جمهورية مصر العربية



مجمع اللغة العربية

بحوث وباحثون

للدكتور إبراهيم مدكور
رئيس المجمع

الكتاب الأول
بحوث

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

جمهورية مصر العربية

مجمع اللغة العربية

بحوث وباحثون

للدكتور إبراهيم مدكور
رئيس المجمع

الكتاب الأول
(بحوث)

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

أعد مادة هذا الكتاب

عبد الحكيم صلاح عبد الحكيم

المحرر بالمجمع

صححت تجاربه

سميرة صادق شعلان

المحرر الثانى بالمجمع

أشرف

على الكتاب وراجعه

ونسق فصوله

سعد توفيق حمدى

مدير إدارة

التحرير والشئون الثقافية

بالمجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة

ترجع صلتى بمجمع الخالدين إلى نحو نصف قرن أو يزيد . ذلك أنى بعد عودتى من بعثتى عام خمس وثلاثين وتسع مئة وألف عينت للتدريس بكلية الآداب ، وهى من أوثق كلياتنا الجامعية صلة بالمجامع اللغوية . وكان فيها من الرواد الأوائل فى إنشاء المجمع وتعزيزه والسير به أمثال طه حسين ، وأحمد أمين ، وإبراهيم مصطفى ، وعبد الوهاب عزام ، وأمين الخولى . وقدر لى أن اتصل بالحياة النيابية فى سن مبكرة على أثر عودتى من بعثتى فى أوربا وقضيت فى مجلس الشيوخ نحو سبع عشرة سنة بدأتها عام خمس وثلاثين وتابعت السير إلى عام اثنين وخمسين وهو عام الثورة .

وفى هذه الفترة حاولت أن اتصل بالحياة الجامعية ما وسعنى، ولكن الواجبات البرلمانية وما أكثرها – لمن شاء أن يتعهدها – لاتدع للنائب أو الشيخ زمناً كافياً لبحث أو درس علمى .

وعن طريق كلية الآداب فتح لى باب المجمع وكان صاحب الدعوة ومرشحى أستاذاً وزميلا هو المرحوم أحمد أمين الذى ما كنت أستطيع أن أرفض له طلباً . وقد عرض علىّ أمر مجمع اللغة العربية عام ست وأربعين وقلت له : أليس هذا مبكراً بعض الشىء فقال كعادته : البركة فى البكور . وكانت النتيجة أنى دخلت المجمع فى الرعيل الثالث من المجمعيين عام ست وأربعين فى عشرة صعد بها عدد المجمعيين إلى أربعين عضواً وهى تلك العشرة الطيبة التى قال بها مرشحنا فى كلمة الاستقبال . وكان من حظى أن نبت عن زملائى فى الرد على تلك الكلمة الكريمة .

وأعترف أنى أقبلت على أعمال المجمع منذ دخولى فيه، ولكنى لم أتفرغ له التفرغ الكامل فى السنوات الست الأولى لأن عضوية مجلس الشيوخ كانت تلقى علىّ أعباء ربما تتعذر الملاءمة بينها وبين أعبائى فى ميدان آخر .

ومنذ عام ١٩٥٢ استطعت أن أتفرغ لأعمال المجمع فى بعض لجانه . ومن حسن الحظ حقاً أن المجمعيين منذ البداية أخذوا بسنّة الدرس الهادىء والدقيق فى لجانهم المختلفة .

وقد مر مجمعنا فى تكوينه بمراحل مختلفة تبدأ بعشرين عضواً نصفهم من المصريين والنصف الآخر من العرب والمستعربين الذين قسم بينهم هذا النصف قسمة عادلة فنال المستعربون خمسة مقاعد ووقفت الخمسة الباقية على ضيوفنا من المجمعيين فى العالم العربى.

ولست فى حاجة إلى أن أشير إلى أن هذا التوزيع يدل على رغبة صادقة فى خدمة العربية عن طريق كل من يؤمن بها ويعنى بنهوضها وتقدمها . وبذلك أخذ مجمعنا صبغة عالمية لم تتجه إليها المجامع العربية التى جاءت بعده . ولم يعدل عن هذا إلا فى فترة قصيرة هى فترة الوحدة بين مصر وسوريا التى شاء فيها أخواننا السوريون أن توقف العضوية على العرب وحدهم ولم يعمر هذا التضييق طويلا وعاد مجمع القاهرة إلى نظرته العالمية الواسعة وتوسع فيها ما أمكن فقد أصبح أعضاؤه العاملون اليوم ستين عضواً عاملا ؛ أربعون منهم مصريون والعشرون الآخرون موزعون بين الباحثين عرباً ومستعربين . وأحرص على أن أشير إلى أن المجمعيين منذ النشأة الأولى أخذوا بسنّة الدرس والبحث عن طريق لجان متخصصة تعنى كل لجنة منها بناحية من نواحى المشاكل الأدبية واللغوية . ونمت هذه اللجان على مر الزمن فكانت ثلاثاً أو أربعاً فى البداية ثم وصلت اليوم إلى نحو خمس وعشرين لجنة ثلثها ينصب على اللغة وآدابها وتراثها ، ويعنى الثلثان الباقيان بلغة العلم ومنذ ربع قرن تقريباً وعناية المجمع بلغة العلم تنمو عاماً بعد عام وأملى كبير فى أن يعين هذا على تكوين المصطلح العلمى والأدبى الذى يفتقده أحياناً الباحثون والدارسون .

ولا شك فى أن العلوم الإنسانية من أدب وفلسفة وفقه وقانون قد خطت خطوات فسيحة فى سبيل المصطلح العلمى ، والأمل معقود على أن يقدم المجمعيون للباحثين والدارسين ما يمكنهم من أن يكتبوا ترجمة وتأليفاً باللغة العربية مستعملين ألفاظاً ومصطلحات كلها عربية . وتدور البحوث التى نقدمها فى هذا الكتاب حول عدد غير قليل من المشاكل اللغوية التى عالجناها عن طريق مجلة المجمع أو بعض مطبوعاته .

وفى محاضر جلسات المجلس والمؤتمر مادة غزيرة آسف أن الباحثين والدارسين لا يطلعون عليها .

ولا يفوتنى أن أشير إلى أن مجمع القاهرة حريص على أن يتبادل مطبوعاته ومؤلفاته مع الهيئات العلمية المعنية فى العالم العربى خاصة ولا يتردد فى أن يستجيب لرغبة الباحثين فى العالم عامة شرقاً وغرباً ، إن فى أوربا وأمريكا أو فى آسيا وأفريقيا وهانحن أولاء سائرون على الدرب وكل من سار على الدرب وصل .

ولا يفوتنى أيضا أن أسجل شكرى لثلاثة من أبناء المجمع الكرام تضافرت جهودهم حتى تم إخراج هذا الكتاب وهم : الأستاذ سعد توفيق حمدى الذى بذل من الجهد ما كان له أبلغ الأثر فى إصدار الكتاب على هذه الصورة ، والأستاذة سميرة صادق شعلان التى وقفت على تجارب الكتاب وصححتها ، والأستاذ عبد الحكيم صلاح عبد الحكيم الذى جمع مادة الكتاب من الدوريات المجمعية المختلفة .

إبراهيم مدكور

حياتنا الفكرية في نصف القرن الأخير

الحياة الفكرية فى مجتمع ما وليدة جهود الرواد والمتخصصين ، وثمرة استجابة الشباب وجمهور المثقفين وهى فى حاجة ماسة إلى وعى ويقظة ، وتفتح وحب استطلاع . وتبلغ أوجها عادة فى عهود الاستقرار السياسى والازدهار الحضارى وهكذا كان شأنها فى عصر بركلين لدى اليونان فى التاريخ القديم ، وفى صدر الدولة العباسية لدى المسلمين فى القرون الوسطى ، وفى القرن السابع عشر لدى أوربا فى التاريخ الحديث .

١ ـ عوامل ومقومات :

للحياة الفكرية عواملها ومقوماتها ، ومن أخص هذه العوامل الرغبة الأكيدة فى تفهم الكون والإنسان . والبحث فى الكون يقود لا محالة إلى البحث عن خالقه وبارئه ، وبذا تكتمل قضايا الفكر الإنسانى الكبرى ، وهى الله ، والعالم ، والإنسان ، وحولها دارت الدراسات الفلسفية منذ نشأت إلى اليوم ، وإن تغلبت واحدة منها على الأخرى أحيانا . ومن الخطأ أن يظن أن العلم عاش بمعزل عن الفلسفة ، فتحت كنفها نشأ ، وفى ظلها نما وترعرع . وعدت العلوم الرياضية والطبيعية من قديم جزءا من الفلسفة . وكبار المفكرين فى التاريخ قديمه وحديثه فلاسفة وعلماء كأرسطو بين اليونان ، وابن سينا بين المسلمين وروجر بيكون بين اللاتين وديكارت بين المحدثين . وفى الفكر الإسلامى بخاصة علماء برزوا بفلسفتهم بقدر ما برزوا بعلمهم كأبى بكر الرازى طبيب الإسلام الأول ، وابن الهيثم مؤسس علم الضوء والبيرونى فلكى الإسلام الكبير .

---

* كلمة ألقيت فى المجمع العلمى المصرى بمناسبة بلوغه الخمسين من عمره .

ولا نزاع فى أن العلم حاول أن يستقل شيئاً فشيئا عن الفلسفة وأصبحنا أمام علوم متعددة ومتنوعة ولكل منها موضوعه الخاص ومنهجه الواضح وقوانينه الثابتة وبين الدراسات الفلسفية الصرفة ما نحا نحو هذا الاستقلال ، وأخذ نفسه بالمناهج العلمية والتجريبية كعلم النفس ، وعلم الاجتماع . ويهدف البحث الفكرى علما كان أو فلسفة إلى فهم مظاهر الطبيعة واستخدامها أحسن استخدام وتوضيح مشاكل الكون والإنسان فلم تنقطع الصلة بين العلم والفلسفة ، برغم التخصص الدقيق واستقلال العلوم بعضها عن بعض ، ولا حياة لفلسفة بدون متابعة كشوف العلم ومعطياته .

ومن مقومات الحياة الفكرية السليمة حرية شاملة تفسح المجال للأخذ والرد ولا تضيق صدراً بالنقد والمعارضة . ومن مقوماتها البحث الدقيق ، والرأى الأصيل ، والفكر العميق ، فلا تقنع بمجرد الأخذ والمحاكاة بل تحرص على أن تضيف وتجدد ، وأن يكون لها إسهام فى بناء الفكر الإنسانى . تعنى بالقول أكثر مما تعنى بالقائل ، فتحذر التعصب الأعمى ، وتتقى الميول والأهواء ، وتزن الأمور بميزانها الصحيح ، تحكم العقل ، وهو إن استقام ، أصدق حكم فتحارب الخرافات والأباطيل . وتزيل الشبه والأوهام . تساير الزمن ، وتعيش فى عصرها ، وإن أغفلته تخلفت وانقطع بها الطريق . فلا ترفض الجديد لمجرد أنه جديد ومنه دون نزاع ما هو قيم ونافع . ولا تسبغ على الماضى قداسة لا يستحقها ولا تبقى عالة عليه على مر الزمن . وإذا كان للأوائل فضل السبق ، فإنه يجدر بهم أن يحذوا حذوهم وأن يعطوا عطاءهم ، وأن يتحرروا من القيود والأغلال ولا حياة لفكر فى أمة بمعزل عن التيارات العالمية ، وصلة العالم بعضه ببعض فكريا أصبحت اليوم من اليسر والسرعة بحيث لا يستطيع أن يعوقها عائق .

٣ — عصور الانحطاط والظلمة :

تلك هى الحياة الفكرية المثلى ، وبودى أن نعرف أين نحن منها فى نصف القرن الأخير . ولا نزاع فى أنّا عشنا فيما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر الميلاديين فى ظلمة قاتمة ، قنعنا فيها بأن نردد أقوال السابقين ، واكتفينا بأن نلخصها فيما سمى « بالمتون » أو أن نوضحها دون إضافة تذكر فيما سمى

« بالشروح »«والحواشى» ، « والتقارير» وكل ذلك فى الغالب مكرر لا جديد فيه وشاعت فينا تلك القولة التى قد تردد حتى اليوم ، وهى :« ما ترك الأول للآخر شيئا » وهى قولة لا يؤيدها واقع ، ولا يقرها عقل ولا دين . وكانت حياتنا الفكرية فى تلك القرون الغابرة ضيقة النطاق ، مقصورة على طائفة محدودة ، تعيش فى الماضى ، ولا تعبأ بالحاضر ، تنكر التطور والتقدم ، ولا تشعر بحاجة إلى رأى أو اجتهاد .

٣ ـ الوعى الجـديد :

وفى أخريات القرن الثامن عشر فتحت الحملة الفرنسية أعيننا على أمور لا عهد لنا بها ،وغرست فينا بذرة وعى وفكر جديدين فأدخلت معها فن الطباعة الحديث ، وهو وسيلة ناجعة من وسائل نشر الفكر وتداوله واصطحب نابليون معه أيضا أربعين من كبار العلماء الفرنسيين الذين جاسوا خلال الديار ووصفوا طيور مصر وحيواناتها وحللوا تربتها وكشفوا من معادنها وصخورها ورسموا معالم اقتصادها ، وخلفوا ذلك الكنز الثمين الذى أغفلناه زمنا طويلا ، وهو « وصف مصر » Description de l'Egypte وأسسوا معهدا لايزال قائماً إلى اليوم ، وهو (المجمع المصرى) L'institut d' Egypte وقد حرص نابليون على أن يرأسه بنفسه .

ثم جاء محمد على (١٨٤٩) فغذّى هذا الوعى ونماه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقاد حركة علمية طوال أربعين سنة . فأنشأ مدارس للطب والهندسة والصيدلة إلى جانب المدارس الحربية وأرسل إلى أوربا وفرنسا بخاصة بعثات متلاحقة أولاها سنة ١٨٢٦ ، وكانت مكونة من ٤٠ طالبا ، على رأسهم شيخهم وإمامهم رفاعة الطهطاوى الذى استطاع بعد عودته أن يضىء أول مشعل للنهوض والتجديد . ولم يقف محمد على عند المدارس العالية ، بل أنشئت فى عهده مدارس ابتدائية وثانوية ، ولم يتردد فى أن يستعين بالعلماء والخبراء الأجانب وبخاصة الفرنسيين ، وطبعت الثقافة المصرية بطابع فرنسى ظل سائدا حتى نهاية القرن التاسع عشر . وسمح بإنشاء مدارس أجنبية دينية ومدنية ، كان لتعليم اللغات الحية فيها شأن كبير . وفتحت

أبوابها لأبناء المصريين ، إلى جانب أبناء الجاليات الغربية ، وتخرج فيها نفر ممن تولوا القيادة الفكرية والسياسية فى القرن العشرين .

ولو قدر لأبناء محمد على وخلفائه أن ينهجوا نهجه ، وأن يتابعوا خطاه لكان لحياتنا الثقافية والفكرية اليوم شأن آخر غير ماهى عليه . ولكنهم مع الأسف هدموا ما بنى ، فأغلقوا المدارس العليا ، وأوقفوا إرسال البعوث الطلابية إلى أوربا .

٤ — القرن العشرون :

والربع الأول من القرن العشرين هو الدعامة الحقيقية لحياتنا الفكرية المعاصرة . وقد مهد له مصلحان كبيران هما جمال الدين الأفغانى (١٨٩٢) ومحمد عبده (١٩٠٥) اللذان دعيا فى قوة إلى التجديد والتحرر السياسى والفكرى . وأدع جانبا التحرر السياسى الذى أولع به الأفغانى ، وأقف قليلا عند التحرر الفكرى الذى آمن به محمد عبده . فنادى بحرية البحث ، وأعلن فى وضوح أن الدين لا يتنافى مع العقل وحاول ما وسعه التوفيق بين العقل والنقل على نحو ما صنع أسلافه من كبار المفكرين الإسلاميين . وفتح باب الاجتهاد الذى أغلق جهلا وخطأ فى عصور القهر والظلمة ، وطالب بإصلاح المحاكم الشرعية ، واقترح إنشاء مدرسة خاصة لتخريج قضاتها على غرار مدرسة الحقوق التى تخرج القاضى المدنى . وهى مدرسة القضاء الشرعى التى لم تعمر طويلا مع الأسف ، برغم أنها وسيلة ناجحة من وسائل التقدم والتطوير . واستطاع جمال الدين ومحمد عبده بدروسهما ومقالاتهما فى الصحف والمجلات أن يبعثا شعورا قوياً بضرورة الإصلاح والتجديد ، وأن يوقظا وعيا صادقا لتقبل الجديد . وأن يكوّنا جيلا سار على الدرب ، أمثال قاسم أمين ، ولطفى السيد ، ومصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرازق .

وصاحب هذا إنشاء جامعة أهلية عام ١٩٠٨ وهى « الجامعة المصرية القديمة » وقد وجهت نحو ضرب من التلاقى بين الشرق والغرب . فقام على أمرها بعض كبار المستشرقين ، أمثال : نللينو الإيطالى ، وما سنيون الفرنسى وأسهم معهم بعض الأساتذة المصريين . ولم تتردد هذه الجامعة الناشئة فى أن

تبعث بعوثا إلى أوربا كان من بين أعضائها منصور فهمى ، وأحمد ضيف وطه حسين وفى أقل من عشرين عاما تحولت الجامعة الأهلية إلى جامعة أميرية ، هى « جامعة فؤاد الأول» ، التى أصبحت اليوم « جامعة القاهرة » وعن هذا نشأت أخيراً عدة جامعات لا أدرى إن كنا قد أعددنا لها حقا إعدادا كافيا ، ومنها ماهو أشبه بالمعاهد العليا منه بالجامعات ، واتسمت جامعة فؤاد الأول بانفتاح فكرى وثقافى قل أن نجد له نظيرا فى حياة الجامعات المعاصرة ، فاستعانت بالأساتذة الأجانب من مختلف الجنسيات فى الكليات والأقسام وقامت أقسام اللغات الحية بخاصة على أساتذة من أبنائها والناطقين بها . وتوسعت هذه الجامعة توسعا ملحوظا فى بعوثها إلى الخارج ، فكانت توفد منهم كل عام عشرات بل مئات . وحاولت أن تجعل منهم أساتذة المستقبل ، وهم بالفعل الذين اضطلعوا بعبء التعليم العالى والجامعى فى الربع الثانى من هذا القرن ، ولم يقف عطاؤهم عند مصر بل امتد إلى الخارج ، والتعليم الجامعى فى العالم العربى بعامة مدين لهم بقسط كبير .

وأخذت جامعة فؤاد الأول نفسها بقدر من التقاليد الجامعية ، فاستمسكت باستقلالها ، ودافعت عنه ما وسعها ، وضربت فى ذلك أمثلة رائعة ، أستطيع أن أذكر من بينها مواقف للطفى السيد ، وطه حسين ، وعلى مشرفة . وآمنت أيضا إيمانا جازما بحرية البحث ، فأفسحت المجال للباحثين ، واتسع صدرها لشتى الآراء . ولولاها ما بلغ حديث الشعر الجاهلى مثلا ما بلغه من عنف وقوة ، وبصرف النظر عن موضوع هذا الحديث فإنه دون نزاع كان ذا شأن فى خلق جو من التحرر الفكرى ، وفى توجيه الأذهان نحو النقد والتمحيص . والحقيقة بنت البحث ولا يضيرها فى شئ أن تقلب الأمور على وجوهها المختلفة . وأيقنت الجامعة كذلك بأن العلم لا وطن له ، وأن علينا أن نطلبه ولو بالصين فتابعت سنتها فى الاستعانة بالأساتذة الأجانب الدائمين والزائرين ، وبقينا نزاملهم ، ونعيش إلى جانبهم ، ونتعاون معهم حتى أوائل العقد السادس من هذا القرن ، ثم كانت القطيعة أو المقاطعة التى لم نعدل عنها إلا أخيراً ، وفى شئ من التردد والتلكؤ .

وبوجه عام أخشى أن يقال : أين نحن اليوم من التقاليد الجامعية ؟

وهل لا يزال إيماننا بها راسخا كما كان بالأمس ، وهل نحرص حقا على تعزيزها وإدعامها ؟

٥ ـ نصف القرن الأخير :

فى هذا الجو قامت حياتنا الفكرية فى الربع الثانى من القرن العشرين ، وخرجت من حيرتها بين الشرق والغرب بين القديم والجديد ، بين التقليد والابتكار . فآمنا بأن عالم الفكر لا تحده حدود مكانية ولا زمانية ، وأن للشرق تراثه وقيمه ، وأن للغرب علومه وفنونه ، والخير كل الخير فى أن نلائم بين ذلك كله ، وأن نتخير منه أحسنه وأقومه ، وفى وسعنا أن نفاضل ونوازن ، وأن نحكم ونفصل فاستعدنا ثقتنا بأنفسنا ، وتخلصنا من ربقة التقليد الأعمى وأدركنا أن من حقنا أن نجدد ونبتكر ، وأن ننشئ ونبدع ، وأن يكون لنا إسهام فى ميدان الأدب والفن ، والعلم والتكنولوجيا ، إلى جانب ما تسهم به أوروبا وأمريكا . وهل لى أن أعود بكم إلى بعض صور من تلك الحرية الحائرة التى عشنا فيها فى العقدين الأول والثانى من القرن العشرين ، واكتفى بمثالين اثنين ، ينصب أولهما على المرأة ، ويدور الثانى حول اللغة الوطنية .

حرية المرأة ونشاطها :

فذهب فريق منا ، ولعله كان الغالبية الغالبة إلى أن تسدل الأستار والحجب على المرأة المصرية ، وأن يقصر نشاطها على شئون بيتها ، وأن يوصد أمامها باب العلم والتعليم . ورأى فريق آخر أن لها ما للرجل من حقوق وعليها ما عليه من واجبات ؛ فتسهم فى ميادين الحياة على اختلافها ، وتتسلح بأسلحة العصر جميعها ، وكان موضوع السفور والحجاب من الموضوعات التى سالت فيها أقلام وملئت صحائف ، وبقيت منه ذيول فى العشرينيات والثلاثينيات ولكن الحياة الجامعية قضت عليه قضاء تاما . وللطفى السيد فى هذا يد طولى وها أنتم أولاء ترون كيف تقف المرأة اليوم إلى جانب الرجل فى شتى الميادين ولها عطاء وبذل ملحوظان فى سبيل قومها ووطنها . وليس فى جامعاتنا وكلياتنا ما يعز على الفتاة المصرية أن تنافس فيه ، وكثيراً ما أحرزت قصب السبق ، وأصبح لها إسهام ملحوظ فى حياتنا الفكرية .

ويقيني ألا رجعة في هذا المضمار بحال ، برغم ما يلحظ أحيانا من غلو في بعض مظاهر التحجب والتستر ، ولن تنزل المرأة المصرية عن حق اكتسبته ، وهي جادة في كسب حقوق أخرى .

اللغة الوطنية :

ولغتنا نفسها كانت موضع أخذ ورد ، فقيل : هل نفسح فيها المجال للفظ الأجنبي والدخيل ، أو نقاطعه ونحرمه ؟ ودار حول ذلك نقاش وجدل طويل ، ثم انتهينا إلى أنه ليس ثمة غضاضة في أن نعرب كما عرب الأقدمون وأن نضيف إلى ثروتنا اللغوية الموروثة ثروة جديدة مكتسبة تسد حاجة العلم والحضارة . وتساءلنا أيضاً أنقف عند العامية أم نحل محلها الفصحى ؟ وكان لكل من الجانبين أنصار وأعوان . ولم يبق اليوم شك في أن العربية هي اللغة الوطنية ، وفي وسعها أن تحل محل العامية واللغات الأجنبية . وسبق لسعد زغلول أن خطا في العقد الأول من هذا القرن خطوة في سبيل تعريب التعليم الابتدائي والثانوي ، ثم تابعنا السير وخطونا خطى بعيدة ، فعربت مرحلة التعليم العام جميعه في الربع الثاني من هذا لقرن ، فيما عدا مدارس اللغات ، وقطع شوط كبير في تعريب التعليم العالي والجامعي . والعربية التي نادى بها تختلف عن عربية القرن الماضي وأوائل هذا القرن فنحن نريد لها أن تكون ملائمة لروح العصر . تمقت الغرابة والتعقيد ، وتتخلص من الصنعة والزخرف اللفظي ، وتبدو سهلة سائغة . ويراد لها أيضاً أن تكون يسيرة في تعليمها وتعلمها ، فيتخفف ما أمكن في نحوها وصرفها ، ويسلك في كتابتها وإملائها أيسر السبل ويراد بها في اختصار أن تكون لغة الخاصة والعامة على السواء ، لأنا أصبحنا لا نستسيغ الامتيازات الثقافية والاجتماعية ، ولا نسلم بما كان يسمى : « الأرستقراطية الفكرية » ، ورددت تلك العبارة الشهيرة ، وهي « أن التعليم للإنسان كالماء والهواء » .

ويلحظ أن العامية عادت فشمخت بأنفها بعض الشيء في ربع القرن الأخير وذلك راجع في الغالب إلى قصور في التعليم ، وضعف لدى بعض من يحترفون الكتابة وربما كان للغة السياسة دخل في هذا أيضاً ، وقد قيل يوماً : « إن العامية أصبحت لغة الدولة الرسمية » . وبقدر ما عزز سعد زغلول الفصحى في ثورة

سنة ١٩١٩ ، أصابها ما أصابها فى ثورة عام ١٩٥٢ . ولكنى على يقين من أن تلك أمور عارضة ، وأنه لا معدل عن الفصحى بحال .

وتدور حياتنا الفكرية بوجه عام حول أبواب ثلاثة رئيسية ، هى التحقيق والنشر ، والترجمة والتعريب ، والبحث والتأليف ، وسنقف عند كل واحد منها وقفة قصيرة ولن نعرض للجوانب السياسية والاجتماعية ، لأنها تتطلب حديثاً خاصاً ، بل أحاديث .

(أ) التحقيق والنشر :

اعتداداً بتراثنا رغبنا فى إحيائه ، وقد سبقنا إلى ذلك بعض المستشرقين فى القرن الماضى ، ورسموا له مناهج علمية دقيقة . وحاولنا أن نسهم معهم ، وخطونا فى ذلك خطوات فسيحة فى نصف القرن الأخير . وبخاصة يوم أن سلمت جامعاتنا بأن تحقيق النصوص يدخل عن جدارة فى الدراسات الجامعية وتراثنا خصب فسيح ، فيه علوم دين ودنيا ، فيه تفسير وحديث وفقه ، فيه أدب ولغة ونحو وصرف ، فيه تاريخ ، وقصص ، فيه كلام وفلسفة ، ورياضيات وطبيعيات ، وهو بلا شك من أغنى مخلفات الحضارات القديمة والوسطى ، ولا أدل على هذا من إحصاء قام به حاجى خليفة إبان القرن السابع عشر ، وقدمه فى كتابه : « كشف الظنون فى أسماء الكتب والفنون » . ويشتمل هذا الكتاب الضخم على ٣٠٠ فن ، وعلى عدة آلاف من المؤلفين وعلى نحو خمسة عشر ألف كتاب ، وأيد هذا إحصائيات وكشوف أخرى حديثة ومعاصرة . وأصبح هذا التراث جانباً هاماً من جوانب حياتنا الفكرية ، وله نسبة ملحوظة فيما تخرجه المطبعة العربية كل عام . وبذلت فى سبيله جهود مختلفة ، للكشف عنه وجمعه ، أو تحقيقه ونشره . ودارت حوله دراسات متصلة لشرحه والتعليق عليه ، واستطعنا فى ضوئه أن نتدارك نقصاً ، ونصحح خطأ ، أو نوضح غامضاً فى تاريخ الفكر الإسلامى . بدأنا فى إحيائه منذ أخريات القرن الماضى ، وأخرجنا منه على عجل قدرا لم يؤخذ فيه بمنهج التحقيق العلمى وأجوده ما اضطلعت به هيئات متخصصة أو كان ثمرة دراسات جامعية للماجستير أو الدكتوراه . ومما يؤسف له أن قدراً من هذا التحقيق الجامعى لم ير النور بعد .

وللعلوم الإنسانية ، وبخاصة الأدب واللغة ، نصيب ملحوظ فيما حقق ونشر . وما أحوجنا أن نعنى بالعلوم الطبيعية والرياضية التى شغل بها الغرب قبلنا ، وكان لها شأن فى تاريخ الفكر الإنسانى ، ومنها ما ترجم قديماً إلى اللاتينية والعبرية ولم نقف بعد على أصله العربى ، وفى وسع مجمعكم أن يسهم فى هذا بنصيب .

(ب) الترجمة والتعريب :

الترجمة وسيلة هامة من وسائل ربط الثقافات بعضها ببعض ، وتبادل الآراء والأفكار وقد أخذ بها قديماً وحديثاً ، وهى اليوم أداة اتصال سريع ومباشر وفى صدر الدولة العباسية قامت حركة ترجمة إلى العربية تعد من أخصب الحركات الفكرية فى التاريخ القديم والمتوسط ، كانت خصبة فى موضوعاتها ففيها أدب وعلم وفلسفة خصبة فى أصولها ومراجعها ، فنقلت عن الهندية والفارسية ، كما نقلت عن السريانية واليونانية واللاتينية ، وخصبة أخيراً فيمن اضطلعوا بها ، فلم تفرق بين مسلم ومسيحى بل كان أغلبهم من المسيحيين ، ولا بين عربى وعجمى ، بل كان أغلبهم غير عربى.وآتت أكلها على أكمل وجه وكان لها أثر واضح فى النهضة العلمية الإسلامية .

وفى التاريخ المعاصر صاحب نهضة محمد على التعليمية حركة ترجمة تزعمها رفاعة الطهطاوى ، واحتفظ لنا الزمن بقدر من ثمارها . ثم توقف السير أو كاد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكأنما شاء لطفى السيد فى الربع الأول من القرن العشرين أن يوجه النظر مرة أخرى نحو الأصول اليونانية القديمة ، وكان معجباً بمولاه أرسطو . فترجم سلسلة من كتبه بدأها بكتاب الأخلاق ، وعول فيها على ترجمة بارتلمى سانتهيلر الفرنسية . وبصرف النظر عما يؤخذ على صنيعه من مآخذ ، فإنه جاء مؤشراً للاتجاه نحو الترجمة والعناية بها . وقد دفعت الدراسات الجامعية فى الربع الثانى من هذا القرن نحو ترجمة متنوعة فى الأدب والعلم والفلسفة ، نقلت عن الفرنسية والإيطالية ، أو عن الألمانية والإنجليزية ، وانصب معظمها على دراسات حول آراء ومذاهب ، أو حول أشخاص ومدارس ، ووقف قسط ضئيل

منها على النصوص . واضطلع بمعظمها متخصصون يفقهون ما يترجمون ، ويعرفون كيف يؤدونه بالعربية أداء حسناً إلا أن هذه جميعها إنما كانت ثمرة جهود فردية ومحدودة وكأن باحثينا يؤثرون التأليف على الترجمة . ولست أدرى إن كنا لا نزال نحرص اليوم على التمكن من لغة أجنبية واحدة على الأقل كما كنا نفعل بالأمس ؟ والتمكن من اللغات المنقول منها والمنقول إليها هو السلاح الأول للترجمة السليمة .

وعلى كل حال لا نزال فى حاجة ماسة إلى حركة ترجمة أنشط وأوسع تضطلع بها هيئات تسهر عليها ،وتسهم فيها الدولة إسهاماً أكبر . وقد رسمت فى ذلك خطط ، ووضعت مشروعات لم تأخذ فى جد سبيلها إلى التنفيذ . وهناك كتب أمهات تتبادلها اللغات الحية فيما بينها ، وما أجدرها أن تترجم وتزود بها المكتبة العربية . ولست فى حاجة أن أشير إلى أن هناك بحوثاً تنقل من لغة حية إلى أخرى ولما يمض على ظهورها بضعة أشهر .

وإذا كنت أدعو إلى تزويد المكتبة العربية بثمار الفكر الإنسانى فى اللغات الحية ، فإنى آمل أن يكون لنا إنتاج تتسابق هذه اللغات إليه ، وتسعى إلى ترجمته ، أو نضطلع نحن بالتأليف فى هذه اللغات على نحو ما صنع بعض مفكرينا ومبعوثينا .

(ج) البحث والتأليف :

لنا فى نصف القرن الأخير بحوث ومؤلفات متعددة ومتنوعة ، وفى كثير منها عمق ودقة ، وابتكار وأصالة ، ويمكن أن يقارن بنظائره فى اللغات الحية . وتكاد تستوعب بحوثنا أبواب الفكر الإنسانى جميعها ، فشغلت بالعلوم الإنسانية كما شغلت بالعلوم الرياضية والطبيعية . والعلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصول فى قمة الدراسات الإنسانية ، وقد اضطلع بها أساتذة أجلاء كشفوا عما فيها من عمق وأصالة . وعنى مؤرخونا بالحضارة الإسلامية عناية كبيرة ، فوضحوا كثيراً من جوانبها . وقام مؤرخون آخرون بحفريات حول الحضارات القديمة من فرعونية ، ورومانية ، أو بابلية وآشورية . وحاول مؤرخو الفكر والفلسفة أن يعرفوا بمدارس إسلامية غفل الناس عنها ، وأن

يترجموا لرجال بقوا مستورين فى غياهب التاريخ . وقام بعض علماء الاجتماع بدراسات حقلية هامة . ومن بين علماء النفس من اضطلع ببحوث وتجارب دقيقة .

ونحس اليوم إحساساً صادقاً بأنا نعيش فى عصر العلم والتكنولوجيا ، فى عصر الملاحظة والتجربة . وأعددنا لذلك عدته من معامل ومراصد ، من محطات تجارب ومراكز بحوث ، من معاهد ومؤسسات وأكاديميات علمية وأنشئت جامعات مستقلة للتكنولوجيا أو للبترول والمعادن ، واستكملت فروع الدراسات الطبيعية والرياضية على اختلافها ، من طب وفسيولوجيا ، وكيمياء و صيدلة ، ونبات وحيوان ، وجيولوجيا وبترول ، وطبيعة ورياضة ، وهندسة وميكانيكا وكهرباء وإلكترونيات . وفى كل فرع من هذه الفروع أساتذة متخصصون لهم آراؤهم وأبحاثهم بالعربية أو الإنجليزية ، ومنها مانشر فى بعض المجلات العلمية العالمية ، أو ما كان محل تعليق وتنويه فى المؤتمرات الدولية . ومن بين هؤلاء الأساتذة أعلام يعدون فى مَصَافّ الأطباء والعلماء العالميين ويرأسون أقساماً متخصصة تخصصاً دقيقاً فى جامعات إنجلترا والولايات المتحدة . ولدينا ما يزيد على أربعين جمعية علمية تتابع نشاطها وتنظم لقاءاتها ، وتنشر أبحاثها ، وقد تكون لبعضها صحيفة خاصة بها ، وعلى رأس هذه الجمعيات الاتحاد العلمى المصرى الذى يربطه بالاتحادات العلمية العربية والعالمية روابط كثيرة ومما يؤسف له أن قدراً غير قليل من بحوثنا فى ربع القرن الأخير ينحو نحو الجمع والتلخيص ويتسم بطابع السطحية ، ولا يعنى كثيراً بالأصالة والتعمق وكثيراً ما جنت عليه السرعة والتعجل .

مسار الفكر الاسلامى :

لا سبيل لأن ندخل فى تفاصيل هذه البحوث والدراسات ، ويعنينا أن نوجه إلى جانب واحد منها ينصب على الفكر الإسلامى ومساره . ولا شك فى أن هذا المسار قد تغير وتبدل على مر الزمن ، وكسته عصور الانحطاط والظلمة بجمود وع ق وعشنا معهما زمنا طويلا ، ففقدنا بصرنا وبصيرتنا ، وأهملنا عقولنا وتفكيرنا ، وفى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن عدنا إلى أنفسنا ونعمنا بوعى جديد ينادى بفهم الإسلام على وجهه الصحيح والعودة به

إلى أصوله الأولى وصورته الحقة التي عرف بها في عصور النهوض والازدهار. وسبق أن أشرنا إلى ما كان لمحمد عبده من شأن في توجيه هذه الدعوة وحمل رايتها وقد حملها من بعده تلاميذ له وخلفاء فكشفوا بوضوح عن سماحة الإسلام ويسره ، واتساع آفاقه وقبوله للجديد النافع ، ودعوته إلى النظر والتأمل ، وإفساحه المجال للعقل ، وحثه على تحكيمه وحسن استخدامه وفي ثقة هؤلاء الرواد والمصلحين بأنفسهم لم يخشوا مطلقاً طغيان الحضارة الغربية ، ولم يروا بأسا أن يأخذوا عنها ويفيدوا منها . وبالأمس البعيد قامت الحضارة الإسلامية الكبرى التي بزّت الحضارات الأخرى وسمت عليها ، وتقبلت أفكارا أجنبية كثيرة وفي وسعنا أن نستعيد مجدها ، وأن نطور ونجدد في ضوء مثلها وقيمها .

وفي الربع الثاني من هذا القرن تضافرت جهود صادقة على رسم هذه الصورة وتوضيحها وبيان حقيقتها ومعالمها الأصيلة : فبرهن أمثال مصطفى المراغي ، ومصطفى عبد الرازق . ومحمود شلتوت ، على أن في التشريع الإسلامي مرونة تمكنه من متابعة التطور والتجديد ، وتسمح له بمواجهة متطلبات كل عصر وحاجاته وتشريع الكتاب والسنة نفسه إنما ينصب أساسا على الأصول والمبادىء العامة ، وعلى الفقهاء والمشرعين أن يعالجوا كل جديد في ضوء ظروفه ، على أن يضعوا المصلحة العامة موضع الاعتبار وقد أدوا في الماضي رسالتهم على وجه سديد . وحتى الجرائم وقفت الشريعة الإسلامية فيها عند الأصول والقواعد التي تحدد مفهوم الجريمة والمخالفة ، تاركة للقاضي والحاكم تقدير العقوبة الملائمة . ولم تشر إلا إلى عقوبات ثلاث جرائم كبرى هي : القتل ، والزنا ، والسرقة ، فاتحة الباب لدرء الحدود بالشبهات وبهذه الروح صيغت في الربع الثاني من هذا القرن قوانين الوقف والوصية والميراث وعني في الوقف خاصة بالوقف الخيري ، وأخذ في الميراث بالوصية الواجبة التي فتحت باب الإرث لأبناء الأبناء ، كي يحلوا محل آبائهم الذين ماتوا قبل المورث ، وقننت حقوق الأسرة من زواج ونفقة ، وطلاق ووصاية ، وقيدت بقيود تلائم العصر وتحترم حقوق المجتمع ، وخطونا أخيرا في هذا السبيل خطوات فسيحة . ، وصيغ القانون المدني جملة على أيدي عبد الرازق السنهوري صياغة تلائم بين مبادىء المعاملات في الإسلام ، وما

أخذ به التشريع المدنى المعاصر فى أرقى صوره وأحكمها ، وأصّلَ على الخفيف التأمين فى الإسلام ، ووجد لشهادات الاستثمار سندا فى الفقه الإسلامى ولست فى حاجة أن أشير إلى أن القائلين بإطراح قوانيننا جميعاً والعودة إلى الفقه الإسلامى يغفلون ما ضينا القريب والبعيد .

واستكمالا لهذه الصورة اتجه فريق آخر نحو سِيَر الأعلام فى الإسلام وفى هذه السير هداية وإرشاد ، ودحض لشبه باطلة ، ورفض لقصص وروايات لا أساس لهما ، وتقديم نماذج حية لما كان عليه الإسلام فى ثوبه الصافى ومظهره الحقيقى . ويكفى أن أشير فى هذا إلى كتب ثلاثة — لهيكل هى : « حياة محمد » ، « وأبو بكر الصديق » ، « والفاروق عمر » ، وإلى كتابين للعقاد ، وهما : « عبقرية محمد » ، و « عبقرية عمر » ، وإلى آخرين لطه حسين ، وهما : « الفتنة الكبرى ». و « على هامش السيرة» . ونحا أحمد أمين نحوا آخر . فوقف نفسه فى العشرين سنة الأخيرة من حياته على تاريخ الحياة العقلية فى الإسلام ، ووضع فى ذلك على التوالى : « فجر الإسلام » ، و « ضحى الإسلام » « وظهر الإسلام » وفى هذا التوالى نفسه ما يؤيد فكرة التطور والتبدل ، وتلك سنة الحياة .

وتلتقى هذه المحاولات على اختلافها عند هدف واحد ، هو عرض تعاليم الإسلام فى صورها الحقة ، وهى لا تتنافى بحال مع النهوض والتقدم ،وتفسح المجال لحرية الفكر ويسلم بما للعقل من سلطان .

خـاتمة :

كل تلك جهود عشنا معها زمناً رغدا ، وسعدنا فيها بالمواءمة بين القديم والجديد ، ولم نرفض من ثمار الحضارة الغربية إلا ما يتنافى مع أصولنا ومبادئنا ، وسرنا فعلا إلى الأمام فى ثقة وطمأنينة ، وقطعنا شوطاً لا بأس به ، ولكننا مع الأسف الشديد بلينا فى الخمسينات والستينات بنكسة تهدم ولا تبنى . وتتنكر لكثير مما بنيناه فى النصف الأول من هذا القرن . تندد بماسمته الغزو الأوربى وتحاول ما استطاعت أن تضيق النافذة المفتوحة على الغرب وتصور الإسلام بصورة قاتمة ، وتنادى بالرجوع إلى ما ليس من الدين

فى شيء ، ولا يتلاءم مطلقا مع سنن النشوء والارتقاء . ومكن الكبت والقهر لمثل هذه الاتجاهات أن تنبت فى منبت السوء ، وأن تعيش وتحيا تحت كنف الجمعيات السرية والخلايا الخفية ، وأن يتعصب لها عملاء أو جهلاء ، واختلط الفكر والدين بالسياسة ، فضلا معها الطريق . ولا يخلو هذا الضلال والزيغ من تيارات خفية ومؤثرات خارجية ، هدفها الأول الهدم والتخريب برغم ما تزعمه من رغبة أكيدة فى البناء والتشييد ، ولا سبيل لحياة حقة ، فكرية كانت أو عملية ، إلا فى وضح النهار .

فلنعد لأنفسنا ، ولنستفد من تجاربنا القريبة ، ولنثبت أقدام الحرية ما استطعنا ، ولنحارب التستر وبث السموم فى الظلام ، « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الفكر واللغة (*)

اللغة ابتكار من أبدع ما وصل إليه الإنسان ، وأداة تمتاز بكثير من الإتقان والإحكام ، ووسيلة ناجعة من وسائل الترابط والتفاهم بين الأفراد والجماعات وهي ظاهرة متشعبة النواحي والأطراف ، قد أثارت ألوانا شتى من البحث والدراسة . وإذا تركنا جانبا ما يتصل بها من دراسات أدبية و نحوية وصرفية فإنها وجهت إلى بحوث أخرى متعددة .

فعرض لها علماء وظائف الأعضاء ليعرفوا كيف تؤدى ، ويبينوا أعضاء النطق والصوت ، ويرسموا فى اختصار الجهاز العضوى للغة . وعالجها علماء النفس لما رأوا من صلة وثيقة بين العمل الذهنى والدلالات اللغوية ، وعنى بها علماء الاجتماع مبينين نشأتها وتطورها ، ومقارنين بين اللغات البدائية واللغات المتحضرة ، ومعلنين أن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية من عوامل ومؤثرات . ونظر إلى اللغة أخيرا على أنها جزء من التاريخ يسجل الماضى ، ويحكى الأحداث ، بل هى نفسها قطعة تاريخية متحركة يجب درسها وبحث معالمها .

ودون أن نعرض لهذه النواحى المتعددة ، نود فقط أن نوجه النظر إلى ما بين الفكر واللغة من صلة . وفى هذه الصلة ما يلقى كثيرا من الضوء على مناقشاتنا وعملنا المجمعى ، وخاصة فيما يتصل بالمصطلحات ووضعها ، والمترادفات وقيمتها ، وألفاظ الحضارة وتجددها ، والتعبيرات المبتكرة ومدى الحاجة إليها .

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة الحادية عشرة من جلسات مؤتمر المجمع فى دورته الثامنة عشرة .

ولاشك فى أن المعنى وثيق الصلة باللفظ الذى يؤديه ، لأنه ثوبه ووعاؤه وبدونه يضل ويصبح كأن لا وجود له ، فلا يمكن تبادله بين الأفراد ، بل ولا استحضاره فى ذهن الفرد الواحد ، وقديما قالوا : « التفكير حديث نفسى » ومن هنا ارتبط التفكير باللغة ، وبالأخص فى صوره السامية كالحكم والاستدلال .

* * *

وإذا تأملنا الفكر واللغة وجدنا أن كل واحد منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به ، فاللغة فى نشأتها تخضع إلى مدى بعيد للنشاط الذهنى أو الميول والاتجاهات النفسية . وما لغة الأطفال إلا حركات وإشارات تبعث عليها غرائز واستعدادات يدفع الطفل يده إلى الأمام مشيرا إلى التقدم ، أو إلى الخلف مشيرا إلى التراجع وكل تلك حركات تعبر عن انفعالات داخلية ، ولا تلبث هذه الحركات أن تتحول إلى إشارات ، والإشارات إلى أصوات ، والأصوات إلى ألفاظ وجمل . وبذا تنشأ اللغة فى تدرجها الطبيعى ، وتقوم على أساس سيكلوجى .

لم يؤثر الفكر فى نشأة اللغة فحسب ، بل ساهم أيضا بنصيب ملحوظ فى حفظها والإبقاء عليها ذلك لأن تعلم اللغة بين أبناء الجيل الواحد يعتمد على السماع والحفظ ، وتبادلها بين الأجيال المتلاحقة لاسبيل إليه إلا بالنقل والرواية ودعامة ذلك كله الذاكرة والحافظة ولولا الذاكرة ما كانت لغة كما يقولون . وقد يكون فى الكتابة ما يرفع عن كاهلنا اليوم بعض عبء الاحتفاظ باللغة ، ولكن كم من جماعات عرفت لها لغات تداولتها وتوارثتها دون أن يكون للكتابة فيها أثر ملحوظ ، وإنما عولت على الذاكرة وحدها . كذلك كلنا يعلم أن قوة التذكر أوضح فى حياة البداوة منها فى حياة الحضر ، لأن المتحضرين فى اعتمادهم على القلم والقرطاس يضعفون الذاكرة ويقللون استخدامها على أن الكتابة نفسها لا يمكن أن تتعلم وتكتسب إلا بقسط ضرورى من الحفظ والتذكر .

وللحياة الفكرية أثر آخر فى نهضة اللغة ونموها إذ لولا تجدد المعانى وتباينها ما تجددت الألفاظ ولا تنوعت التراكيب . ولولا عمق الفكرة

وتحددها ما كانت دقة اللفظ وتخيره . وكم يشعر المتكلم أو الكاتب أن اللفظ أو التعبير الذى استعمله لا يؤدى تماما المعنى الذى يريده ، فيحاول البحث عن غيره ليكون أكثر ملاءمة . وثروة اللغات تتفاوت فيما بينها تبعا لنشاط الحياة الفكرية وتقدم العلوم والفنون . ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى أن عصر ازدهار اليونانية قد اقترن بتلك النهضة الفلسفية والفنية التى عرفتها أثينا فى القرن الخامس والرابع قبل الميلاد . وقد لوحظ أيضا أن أسماء الذوات تغلب أسماء المعانى فى اللغات البدائية ، لأن البدائيين لا يلجئون كثيرا إلى التعميم والتجريد . وتساهم فكرة الزمن بنصيب أوضح فى لغة المتحضرين منها فى لغة الشعوب الهمجية . وتبادل العلوم والفنون بين الأمم لا يقتصر على تبادل الأفكار بل يصاحبه أيضا تبادل بعض الألفاظ والأساليب الدالة عليها وكثيرا ما كشفت هذه عن أصل تلك .

وللغة بدورها أثر قوى فى التفكير ، فهى إلى مدى بعيد مادته ودعامته ذلك لأن الدال والمدلول متلازمان ، وقل أن يستحضر أحدهما فى الذهن بدون الآخر . وقد سبق لأرسطو أن قال تلك الجملة المشهورة التى قدر لها أن تحيا مع الزمن ، وهى : « ليس ثمة تفكير بدون صور ذهنية » ، وفى مقدمة هذه الصور تجئ طبعا الرموز اللغوية . ولم يحاول أحد نقض هذه القضية إلا فى القرن التاسع عشر ، يوم أن جاءت مدرسة فورتسبورج ، وذهبت إلى أن هناك ضربا من التفكير مجردا من تلك الصور الذهنية كتفكير الأطفال الذى تمليه طائفة من الميول والغرائز ، أو كتلك اللمحات والخواطر التى تمر بالذهن عابرة وكأنها معنى مجرد من كل كساء .

ودون أن نقف طويلا إزاء هذين الرأيين المتقابلين ، نود أن نلاحظ فقط أن الحدس ليس إلا ضرباً من التفكير ، وهناك ضروب أخرى ذات حلقات لا يمكن ربط بعضها ببعض إلا بواسطة الرموز اللغوية .

على أن الحدس نفسه قد يستصحب لفظا أو ألفاظا ، ولذا قالوا إن المرء يفكر فى كلامه قبل أن يتكلم عن تفكيره :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالتفكير السامى أو التفكير المنطقى الذى هو سلسلة من الحكم والاستدلال لا غنى له عن اللفظ والعبارة .

والألفاظ فوق هذا هى الوسيلة لتحديد الأفكار وتمييز بعضها من بعض ، وإذا كانت المدلولات متنوعة فمن اللازم أن تتنوع الدوال تبعا لها . ولا شك فى أن الأفكار متفاوتة معنى ومدلولا ، عموما وخصوصا ، جنسا ونوعا . ولولا الألفاظ ما أمكن تقسيمها وتصنيفها ، ولا تحليلها وتركيبها . وآية الفكر الدقيق تعبير دقيق يؤديه ، والعبارة المحكمة تؤدى عادة إلى تفكير محكم . وبذا تنوعت العلوم ، وتحددت موضوعاتها ، وامتاز كل منها بمصطلحاته . وما العلم إلا لغة أحكم وضعها .

واللغة أخيرا سبيل تداول الأفكار وتبادلها ، فهى التى تنقلها من فرد إلى فرد ، ومن جماعة إلى جماعة ، وإلا بقيت وقفا على أصحابها ومحبوسة فى أذهانهم . وإذا كان التفكير الفردى يخضع للمجتمع ويتأثر به ، فإن للغة دخلا كبيرا فى هذا الخضوع والتأثير . ومن أهم مزايا اللغة قدرتها على أداء المعانى وتيسير تبادلها ، وفضل لغة على أخرى يرجع فى قسط كبير إلى اتساع تداولها وكثرة المتخاطبين بها .

* * *

فى وسعنا أن نقرر إذن أنه إذا كانت اللغة ثمرة للتفكير ، فإنها هى أيضاً شرط أساسى لوجوده وتحققه على وجه كامل . هذه هى صلة الفكر باللغة ، وهى فيما يبدو صلة تفاعل وتلازم ، وقد ترتبت عليها آثار عدة ، يعنينا أن نشير إلى اثنين منها فقط . أولهما أنه يمكن أن تدرس الحياة العقلية فى ضوء الحياة اللغوية . فمثلا ضعف النطق أو بطوءه يؤذن بضعف ذهنى ، والأطفال لا يعبرون عن أحكامهم عادة بجملة وإنما يكتفون بكلمة أو بعض كلمة . ومن هنا نشأ علم النفس اللغوى الذى يرمى إلى تفسير بعض الظواهر النفسية فى ضوء الدراسات اللغوية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما حاوله « دى شوسير » بالنسبة للغة الكبار و « بيانجيه » بالنسبة للغة الأطفال « ليفى بريل » بالنسبة للجماعات البدائية . وإذا كانت الدراسات السيكلوجية قد أفادت كثيرا فى الخمسين سنة الأخيرة من تقدم البيولوجيا والفسيولوجيا والبافولوجيا ، فإنها استمدت أيضاً فى هذه الفترة مادة لا بأس بها من الدراسات اللغوية .

وفى تاريخ الأدب ظواهر لها دلالتها السيكلوجية ، فيلاحظ أن ازدهار الآداب يقترن دائما بازدهار العلم والحياة العقلية ، وأنه حين يعتدى على الحرية الفكرية ويعم الظلم والطغيان ينتشر الغموض والرمز فى الألفاظ والأساليب ، ولتلك الحرية الفكرية التى نعم بها الأثينيون القدامى شأن فى وضوح لغتهم وصفائها . وإذا كانت المترادفات تعد ثروة لغوية فى بعض العصور ، فإنها فى عصور أخرى تعتبر سرفا لا محل له ولا داعى إليه .

ومن جهة أخرى شغلت علاقة الفكر باللغة الناطقة منذ أن وضع علم المنطق إلى اليوم . ونحن نعرف أن منطق أرسطو نبت فى جو البيان والجدل السفسطائى ، وكان ذاصلة بالنحو اليونانى ، بل والعربى . ولأمر ما تطلق كلمة « لوجوس » اليونانية على العقل واللغة على السواء . وقد درج المناطقة منذ أرسطو على أن يعتبروا دراسة الألفاظ والقضايا مقدمة ضرورية لدراسة البرهنة والاستدلال . ولم يقنع المناطقة المحدثون بهذا ، بل شاءوا أن يحصروا المعانى كلها ويجمعوا « ألف باء » الفكر الإنسانى ، ويضعوا لكل معنى رمزا خاصا به ، وبذا تتكون اللغة العلمية العالمية .

قال بذلك « ليبنتز » ، فتنبأ بالمنطق الرياضى ، وسبق عصره بنحو قرنين ، وأثار لأول مرة فكرة اللغة العالمية . ولا غرابة ، فقد كانت اللاتينية لغة العلم والعلماء لعهده ، هذا إلى أنه كان عالمى النزعة ، إن فى العلم أو فى السياسة . وفى هذه اللغة المنشودة ما يقرب من المسافة بين بنى الإنسان ، وما يحول دون أخطاء كثيرة ، لأن الخطأ فى الحكم والاستدلال كثيرا ما ينشأ عن خلاف لفظى أو غموض فى التعبير . ويوم أن يتوفر لكل معنى رمز خاص به نستطيع أن نقول : لنحسب ، بدل أن نقول : لنبرهن .

وقد عادت فكرة اللغة العالمية إلى الظهور مرة أخرى قوية متحفزة فى أول هذا القرن وكان من أكبر مناصريها رياضى وفيلسوف فرنسى بارع انتزع فجأة فى الحرب الكبرى الأولى ، وهو «كوتورا » الذى كان يرمى إلى تهذيب « الاسبرنتو » وتكوين « الأيدو » تلك اللغة الدولية التى تفرض نفسها على جميع العقول وجميع الشعوب . وقد وضع

فى ذلك معجما خاصا ، أخذ عنه كثيرا الأستاذ « لالاند » فى معجمه الفلسفى المشهور

والرياضة أقل العلوم حاجة إلى الألفاظ والتراكيب لأنها أبعدها مدى فى العموم والتجريد . فإذا ما حصرت حقائقها ، واختير لكل حقيقة رمز معين أمكن تكوين لغة رياضية كاملة ، وعلى غرار هذه اللغة الرياضية يمكن وضع اللغة العالمية. وقد كان « كوتورا » فوق تخصصه فى المنطق والرياضة ملما بأطراف الدراسات اللغوية المقارنة ، فأخذ يبحث عن أصول عامة يمكن أن تتخذ أساسا للغة الدولية ، وحاول فعلا أن يكون هذه اللغة ويعد لها نحوها الخاص .

ولم تلبث محاولته هذه أن تثير ثائرة علماء الاجتماع الفرنسيين ، وعلى رأسهم « دركايم » . فلم يرتضوا ذلك النطق الإنسانى الذى يقود إلى لغة عالمية ، وقرروا أن هناك أسرا لغوية بقدر ما هنالك من مجتمعات إنسانية . وسواء أصحت الأسس التى بنى عليها « كوتورا » مقترحه أم لم تصح فإن فكرة اللغة الدولية قد ازدادت فى ربع القرن الأخير قوة ووضوحا . ولعل فى سرعة الاتصال العالمى اليوم ما ييسر سبلها ، ويتيح لهذ الفرصة لتخرج من دائرة الرغبة والأمل إلى عالم الحقيقة والوجود .

* * *

فى هذا العرض السريع ما يلقى بعض الضوء على عملنا المجمعى ، ومنه نستخلص دروسا نافعة وفى مقدمتها أن الأصل فى المصطلح العلمى أن يؤدى بلفظ ، كى يتوفر لكل معنى رمزه اللغوى الخاص به . فلنتحاش إذن الدوال المتعددة للمدلول الواحد منعا لتكرار لا داعى إليه ، وربما أدى إلى شيء من اللبس ، والمصطلح المجمع عليه وإن لم يؤد المعنى المراد تماما سينتهى بأن يستقر ويستحضر مدلوله كلما ذكر .

ونحن أحرص ما نكون على أن نؤدى المعنى العلمى الجديد بلفظ عربى فإن تعذر ذلك فلا ضير من التعريب ، لا سيما إذا كانت الكلمة المعربة ذات صبغة عالمية ، وهذا هو المنحى العلمى فى مختلف اللغات . ومن ذا الذى

يذكر مذهب « ليبتنز » مثلا ولا يذكر معه كلمة « مناد » (Monade) ؟ إنا نراها في اللغات الأوربية على اختلافها دون تغيير أو تبديل .

وما يقال عن الألفاظ يمكن أن يقال عن الأساليب ، فإذا كانت المعانى المفردة فى تجدد فإن المعانى المركبة التى تعتمد على الرابطة والإسناد تتجدد أيضا ، وإذا كنا نحن بحاجة إلى ألفاظ جديدة ، فإنا فى حاجة أيضا إلى أساليب جديدة وقد تصادف هذه الأساليب من الرفض والمعارضة ما تصادفه الألفاظ المبتكرة ، فتستنكر حينا وترد حينا آخر . بيد أنا إذا كنا فى حل من ابتكار اللفظ فلا غضاضة علينا فى ابتكار الأسلوب مادام يلتقى مع الأوضاع العربية . والفكر — فى خلقه وابتكاره ، فى حركته وتنوعه — يتطلب دون انقطاع من الألفاظ والأساليب ما يؤدى المعانى المختلفة والمتنوعة .

وأخيرا إنا نعيش فى عصر من أخص خصائصه محاولة الاقتصاد فى المجهود الجسمى والذهنى ، وذلك لتزاحم الأعمال وضيق الوقت ، وكلنا يود أن ينتج أكبر كمية ممكنة فى أقصر وقت ممكن . وأنفع الحقائق ما يمكن توصيله عن أيسر السبل وأقربها . وإذا كان العلم قد اتسع صدره قديما للدراسات الطويلة والمجلدات الضخمة فإنه يعنى اليوم بإحكام المعنى والمبنى وإذا كان الأدب يباهى فيما مضى بالسجع والترادف والكناية والمجاز ، فإنه أضحى يحرص الحرص كله على السهولة والجزالة والدقة والوضوح

هذه هى روح العصر ، وتلك هى مقتضياته ولا سبيل للخروج عليها .

تراثنا الفكرى واللغوى

١ ـ للحضارات الإنسانية الكبرى آثارها ومخلفاتها ، من أدب وفن ، وعلم وفلسفة . والحضارة الإسلامية من أعمق هذه الحضارات أثرا وأوسعها أفقا . انتشرت ثقافتها شرقا وغربا . وامتدت إلى العالم القديم فى قاراته الثلاث كتبت بعدة لغات : بين عربيـة وعبرية ، وسريانية وفارسية ، وتركية وأردية فتراث الإسلام الفكرى غنى فسيح طويل عريض عمر قرونا متلاحقة وأسهمت فيه شعوب مختلفة . وجه إليه الدين أصلا ، وكان الاشتغال به عبادة ، وحفظه وتعهده قربة تعددت ألوانه : فيه شرعيات ، ولغويات وعقليات .

وتحت كل شعبة من هذه علوم وفنون ، وتحت كل علم أبواب وفصول ووضعت فيه بحوث ودراسات : مختصرة ومطولة ، متون وأصول ، شروح وحـواش . تعليقات وتقارير نمت على مر الزمن وتنوعت أساليبها ومناهجها ويكفى للتدليل على هذا الثراء والنمو المطرد أن أشير إلى مثلين اثنين :

أولهما « كتاب الفهرست » لابن النديم .

وثانيهما « كتاب كشف الظنون » لحاجى خليفة .

وقد ظهر الكتاب الأول فى النصف الثانى من القرن الرابع للهجرة ، وشاء واضعه أن يحصى ما ألف أو ترجم إلى العربية منذ صدر الإسلام ، وهو وراق يتحدث حديث خبير . وأسفر إحصاؤه عن عشرات العـلوم والفنون ومئات المؤلفات والمؤلفين . ثم جاء الكتاب الثانى بعد الأول بسبعة قرون فتضاعف العدد عشرات ، بل مئات . وأصبحت الفنـون نحو ٢٤٠ ، والمؤلفـون نحو عشرة آلاف ، والمؤلفات نحو خمسة عشر ألفا ، وتتابع السير ، واطـرد النمو ، وشهدت بذلك إحصاءات متلاحقة .

٢ — ولا سبيل لأن يعيش الفكر الإنسانى بمعزل عن السياسة يضئ معها حينا ويخبو حينا آخر .

يزدهر بازدهارها ، ويبلى بما يحل بها من ويلات ونكبات . وكثيراً ما قضت الحروب الداخلية والخارجية على ما خلف الفكر الإنسانى من نفائس وكنوز ، ويكفينا أن نشير إلى غزو التتار الذى أهلك الحرث والنسل ، وحرمنا من مؤلفات لا نعرف منها اليوم إلا الاسم ، أو بعض ما نقل عنها فى مؤلفات معاصرة . ومن حسن الحظ أن الأمراء والعلماء كانوا يتنافسون فى اقتناء الكتب والمخطوطات ، وكان ينسخ من الكتاب الواحد عشرات المخطوطات وكثيرا ما عيد نسخه فى عصور لاحقة .

وللوضع السياسى والخلاف المذهبى شأن فى تخير الكتب وجمعها ، فكان الفاطميون مثلا حراصا على كتب الشيعة حرص السلاجقة على جمع كتب أهل السنة .

وأضحى لكل فرع من الدراسات مظان يبحث عنه فيها ، ففقه المالكية مدين فى حفظ أصوله لشمال أفريقيا ، ويرجع إلى الشام ومصر فى البحث عن كتب الشافعية .

ويعد اليمن اليوم أكبر مصدر لما بقى من مخلفات متأخرى المعتزلة . وأذكر أن المرحوم طه حسين استطاع يوم أن كان وزيرا للمعارف أن يرسل إليه بعثة كشفت عن بعض نفائسه ومن بينها كتاب المغنى للقاضى عبد الجبار الذى لم تستكمل أجزاؤه حتى اليوم . ويوم أن آل النفوذ السياسى فى الإسلام إلى الدولة العثمانية اتجهت حركة جمع المخطوطات وحفظها نحو مكتبات استامبول الخاصة والعامة التى نأمل فى صدق أن يستكمل حصرها وأن ييسر أمر تصويرها والأخذ عنها .

٣ — وللتراث العربى شأنه فى تاريخ الثقافة الإنسانية ، فهو ثمرة حضارات سادت العالم عدة قرون ، وهمزة وصل بين القديم والحديث ، أخذ عن الحضارات القديمة ما أخذ ، وأضاف إليها ما أضاف . احتفظ منها بأجزاء

ضاعت أصولها ، ووجه إليها النظر فى التاريخ المتوسط والحديث . والتراث اللاتينى مدين دون نزاع للتراث العربى . بدأ يأخذ عنه منذ عهد مبكر . فى القرن العاشر الميلادى وامتد هذا الأخذ إلى عصر النهضة والتاريخ الحديث . وهناك قدر من مؤلفاتنا العلمية القديمة نفتقد أصلها العربى ، ولم يبق منها إلا ما احتفظت به الترجمة اللاتينية فعلى سبيل المثال نفتقد قدرا من أصول تفاسير ابن رشد على أرسطو ، فى حين نجدها مكتملة فى الترجمات العبرية واللاتينية .

واتجه الغرب مرة أخرى نحو الكنوز العربية فى التاريخ المعاصر ، وجدّ فى الكشف عنها والحصول عليها . وأعانه على ذلك الرحلة والسياحة ، ومكنه منه الاستعمار الذى فتح الباب فسيحا أمام الباحثين وهواة جمع النصوص النادرة ، وصاحب هذا أنَّا لم نكن نقدِّر حقا تراثنا ، ولم نحرص على حفظه ، ولا يزال عرضة للسلب والتجارة غير الشريفة . وفى المكتبات العامة الكبرى بأوربا وأمريكا أقسام عربية عامرة بمخطوطاتنا ومؤلفاتنا القديمة وقد وقفت شخصيا على مخطوط منطق «كتاب الشفاء» لابن سينا فى «اليودليان» «والمتحف البريطانى» قبل أن أحصل عليه من مكتبات استامبول ولم يكتف الغرب بهذا بل قام منذ القرن التاسع عشر بدراسات ببليوجرافية جادة حاولت حصر المؤلفات العربية القديمة والتعريف بها وبمؤلفيها ومن أهم ما ظهر منها فى أخريات هذا القرن فهرس مخطوطات القسم العربى بمكتبة برلين ، ويقع فى عشرة مجلدات ، وصنف تصنيفا تاريخيا دقيقا .

ثم جاء بعده ببضع سنين «تاريخ الأدب العربى لبروكلمان» ، الذى ظهر أولا فى مجلدين اثنين ، ثم ألحق به بعد مدة ثلاثة مجلدات أخرى .

وعول عليه الباحثون تعويلا يذكر طوال النصف الأول من هذا القرن ، برغم ما أخذ عليه من نقص أو قصور . وبدأ زميلنا الدكتور فؤاد سزكين منذ أربعين سنة تقريبا يتدارك على بروكلمان بعض ما فاته ثم انتهى به الأمر إلى وضع دراسة ببليوجرافية جديدة تشمل مخطوطات العلوم الإسلامية المختلفة منذ النشأة حتى منتصف القرن الخامس الهجرى . وتقع فى عشرة مجلدات ينصب كل واحد منها على علوم معينة ، وختمها بفهرس عام . ويأمل أن يتابع الشوط

حتى القرن الحادى عشر . ومما يؤسف له أن هذه الدراسات كتبت كلها بلغات أجنبية ، ونأمل أن تجد سبيلها إلى العربية وبدأت الإدارة الثقافية بالجامعة العربية منذ زمن مضى ترجمة بروكلمان ، ولكنها لم تتابع السير ، وترجمت أخيرا أجزاء من كتاب سزكين .

٤ — وليس تراثنا اللغوى بأقل شأنا من تراثنا الفكرى . تعهدناه منذ عهد مبكر وتوالت الوفود على البادية ، لكى تنهل من الحياض الأولى ، وتأخذ العربية من منابعها وتنافس النقلة والرواة فى السماع والحفظ والرواية ، ينقلون نثرا وشعرا ، خطبا وقصائد ، حكايات ونوادر وشجعهم على ذلك الخلفاء والأمراء ، وأجزلوا لهم العطاء . وربما كان بينهم بعض المحترفين ، ولكن كان على رأسهم رواة ثقات وأئمة أعلام ، أمثال ، الأصمعى ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وعلى هؤلاء عول اللغويون والمحققون . ومهد ذلك كله للتأليف المعجمى ، وليس ثمة لغة من اللغات العالمية الكبرى توفر لها ما توفر للعربية من معجمات ، وقد افتتح الخليل بن أحمد عصر المعجمات فى القرن الثانى للهجرة ، ووضع « كتاب العين » المشهور . وتنافس الباحثون من بعده فى وضع معجمات فى أحجام متفاوتة ، وفى تبويب متنوع . ولا يكاد يخلو قرن بعد ذلك من ظهور معجم عربى ، وربما ظهر فى القرن الواحد عدة معاجم . وبين أيدينا من هذه المعجمات قدر لا بأس به ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوربية . ومنه ما لم ير النور بعد وتبذل جهود فى تحقيقه وإحيائه

وقد رأى مجمعنا أن من واجباته الأولى أن يضطلع بشىء من هذا العبء إلى جانب معجماته الحديثة ، وبذل فى سبيله جهودا متلاحقة .

وفى الاثنى عشر عاما الأخيرة استطاع أن يسهم فى هذا الإحياء إسهاما ملحوظا فوضع نواة لمكتبة معجمية لم تكن رأت النور من قبل ، وتشتمل على ثمانية عشر مجلدا ينصب ستة منها على (كتاب التكملة والذيل) للصاغانى ، وأربعة على « كتاب الجيم » للشيبانى ، وأربعة أخرى على « كتاب الأدب » للفارابى ، واثنان على « كتاب الإبدال » لابن السكيت ، « وكتاب الأفعال » للسرقسطى واثنان أخريان على حواشى ابن برى وهو يتابع السير ، وتحت

يده نصوص لغوية قيمة جديرة بالتحقيق والإحياء . ولست فى حاجة أن أشير إلى أن تحقيقاته تجد سبيلها إلى العالم العربى بأسره ، ومن بينها ما نفذت طبعته الأولى .

هذا هو تراثنا الفكرى واللغوى وما أحوجه إلى الجمع والتنسيق ، والحفظ والتسجيل والتحقيق والنشر . وجدير بنا أن ننظم الجهود المبذولة لنشره وننسقها تفاديا للتكرار ، وأن نأخذ فى هذا النشر بالمنهج العلمى الدقيق وتراثنا العلمى بوجه خاص لم ينل بعد من عنايتنا ما نال من المستشرقين والباحثين الغربيين ، وهذا دون نزاع واجبنا ، وعلينا أن نؤديه . والسلام عليكم ورحمة الله .

التراث العـــربى

إن لكل حضارة تراثها ، وتراث الحضارة الإسلامية من أعمقها أثرا ، وأوسعها أفقا . انتشر شرقا وغربا ، وكان له صدى بعيد فى قارات الدنيا القديمة الثلاث ؛ آسيا ، وأفريقيا ، وأوربا ، وامتد أثره إلى التاريخ الحديث والمعاصر. كتب بعدة لغات: بين عربية ، وعبرية ، وسوريانية أو فارسية ، وتركية وأردية ، وجاء صنيع شعوب عديدة ، وثمرة جهود أربعة عشر قرنا . عنى بأمور الدين أصلا ، فكان الاشتغال به عبادة ، وحفظه وتعهده قربة . ثم تعددت ألوانه ، وتنوعت أبوابه ، ففيه شرعيات ، وأدبيات ولغويات ، وفيه فلسفة وسياسة ، وعلوم طبيعية ورياضية ، وتحت كل شعبة من هذه أقسام متعددة ، وتحت كل قسم دراسات مختصرة ومطولة . متون وأصول ، شروح وحواش ، تقارير وتعليقات . وضعت فى عصور متتابعة وعلى أيدى باحثين متلاحقين ونمت على مر الزمن . ونظرة إلى كتاب الفهرست لابن النديم ، وكتاب كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة ، تبين مدى خصب هذا التراث ، ونموه وتطوره ، ظهر الكتاب الأول فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وشاء واضعه وهو وراق محترف ، أن يحصر ما ألف فى العربية أو ترجم إليها فى عهده . وأسفر إحصاؤه عن عشرات العلوم والفنون ، ومئات المؤلفين والمؤلفات . وظهر الكتاب الثانى بعده بسبعة قرون ، فتضاعف العدد عشرات أو مئات ، وأصبحت الفنون نحو ثلاثمئة والمؤلفون نحو عشرة آلاف ، والكتب نحو خمسة عشر ألفا .

ولم يسلم هذا التراث — كغيره — من عدوان الزمن ، فقضت الحرائق والحروب على قسط منه غير قليل . وقدر لنا أن نحرم من مؤلفات لانكاد نعرف منها اليوم إلا الاسم ، أو بعض فقرات نقلت عنها فى مؤلفات أخرى معاصرة أو لاحقة . ومن حسن الحظ أن الولاة والأمراء والباحثين والعلماء

كانوا يتنافسون فى جمع الكتب واقتنائها . وكان ينسخ من الكتاب الواحد عشرات المخطوطات ، وقد يعاد النسخ فى عصور متلاحقة ، فتوفر للنص الواحد عدة نسخ ، بل عدة روايات .

وللميول السياسية والخلافات المذهبية شأن فى تخير الكتب واقتنائها ، فكان الفاطميون مثلا حريصين على جمع كتب الشيعة ، وحرص السلاجقة على جمع كتب أهل السنة . وأضحى لكل علم مظان يبحث عنه فيها ، ففقه المالكية مدين فى مدارسته وحفظ أصوله لشمال أفريقيا ، ويرجع إلى الشام ومصر فى البحث عن كتب الشافعية ، ويعد اليمن اليوم أكبر مصدر لما بقى من مؤلفات المعتزلة ، وبخاصة المتأخرون منهم ، وفيه وقفنا على الموسوعة الكلامية الكبرى التى لم تكتمل أجزاؤها بعد وهى « كتاب المغنى » للقاضى عبد الجبار . ويوم أن آل النفوذ السياسى فى الإسلام إلى الدولة العثمانية ، أصبحت استامبول مركزاً هاما للتراث العربى ، ومنه فى مكتباتها حصيلة عظيمة ، وفيها مؤلفات قد لا توجد فى مكان آخر . ويوم أن فكرنا فى إخراج «كتاب الشفاء» لابن سينا ، وهو موسوعة فلسفية كبيرة ، أوفدنا إلى استامبول بعثة قضت هناك زمنا ، وحملت إلينا نفائس قيمة . وما أجدرنا أن نتابع البحث فى تلك المكتبات العامرة بعلوم الإسلام وفنونه . ولم يقف أمر التراث العربى عند العالم الإسلامى . فقدتسابق المغربيون منذ القرون الوسطى فى جمع مخطوطاته . وترجموا منها إلى اللاتينية ما ترجموا ، وجدُّوا فى اقتنائها مرة أخرى منذ القرن الثامن عشر ، وعلى دعائمها قامت حركة الاستشراق الحديثة وفى المكتبات الأوربية الكبرى أقدار من الكتب العربية مسجلة ومفهرسة وبخاصة فى المتحف البريطانى ومكتبة باريس الأهلية والأسكوريال فى أسبانيا ، والأمبروزيانا فى إيطاليا فضلا عن مكتبة الفاتيكان .

وللتراث العربى شأن فى تاريخ الثقافة الإنسانية ، فهو عنوان حضارة سادت العالم عدة قرون ، وهمزة وصل بين القديم والحديث . أخذ عن الحضارات القديمة ، وأثر فى الحضارات الحديثة . أحيا معالم التراث اليونانى ، احتفظ بأجزاء منه ضاعت أصولها . ووجه نظر الغرب إليه ، فبدأ يأخذ عنه ، ويتابع خطاه ، ونشأ من ذلك تراث القرون الوسطى اللاتينى .

وللتراث العربى شأن أيضاً فى الحضارة الغربية الحديثة ، أثر فى علمها وفلسفتها ، فى فنها وصناعتها . وهو اليوم للعرب والمسلمين جميعا مجد الماضى ونبراس الحاضر . وهدى المستقبل .

هذا هو تراثنا العربى ، وما أجدرنا أن نعنى به فنحاول جمع ما تفرق منه ونعد العدة لتحقيقه ونشره ، على أن نتفق على منهج هذا النشر وقيوده العلمية الحديثة ، وهذه نقطة أود أن نقف عندها قليلا ، ذلك لأن بين من يحاولون التحقيق أناسا لا يؤمنون بهذا المنهج ولا يعتدون به . ونفقد كبار المحققين الواحد تلو الآخر ، ونسأل أين البديل ؟ ونحن فى حاجة ماسة إلى إعداد أجيال متواصلة من شباب المحققين . واقترحت فيه أوليات لم تر النور . ونحن نرحب بالجهود التى تبذل فى الأقطار الشقيقة لإحياء التراث العربى ونشره . ولكن الأمر يتطلب ضربا من التنسيق، تفاديا للتكرار وبذل جهود فى غير موضعها .

إحيـاء التراث

تتوالى الحضارات الإنسانية وتتعاقب ، يأخذ بعضها عن بعض ،ويرث لاحقها سابقها ، وللحضارات الكبرى آثار ومخلفات شتى . والحضارة الإسلامية من أعمق الحضارات القديمة أثرا ، وأوسعها ثقافة ، انتشرت ثقافتها شرقاً وغرباً ، وامتدت إلى العالم القديم فى قاراته الثلاثة ، وأسهم فيها عدة شعوب ، وتتابع إنتاجها نحو ثلاثة عشر قرناً ، وكتبت بلغات مختلفة ، بين عربية وعبرية وسريانية ، أو فارسية وتركية وكردية . تعددت ألوان هذه الثقافة وتنوعت أبوابها ، فيها منقول أو معقول ، أدب ولغة ، علم وفن ، سياسة وعمران . وتحت كل شعبة من هذه أقسام متعددة ، وفى كل قسم بحوث ودراسات مختصرة ومطولة : متون وأصول ،شروح وحواش . وقد وضعت فى عصور متتابعة ، وعلى أيدى باحثين متلاحقين ، ونمت على مر الزمن نموا كبيرا .

بيد أنها لم تسلم من عدوان هذا الزمن نفسه فقضت الحرائق والحروب ، والعسف والظلم على قسط كبير من أصولها ،ومن أوضح مظاهر هذا العدوان غزو التتار فى القرن السابع الهجرى الذى أباد الحرث والنسل ، وقضى علينا بأن نحرم من مؤلفات لا يعرف منها إلا الاسم ،أو بعض ما نقل عنها من مؤلفات أخرى معاصرة أو لاحقة . ومع هذا لا يزال ما وصل منها إلينا عظيما ، تعمر به المكتبات العامة فى الشرق والغرب . ومن حسن الحظ أن الولاة والأمراء والباحثين والعلماء كانوا يتنافسون فى جمع الكتب واقتناء نفائسها . وكان ينسخ من المؤلف الواحد عشرات المخطوطات لسد حاجة الطالبين ، وقد يعاد النسخ فى عصور متلاحقة ،فتتوفر للنص الواحد عدة نسخ ، بل عدة روايات :

وللوضع السياسى والخلاف المذهبى شأن فى تخير الكتب واقتنائها ، فكان الفاطميون والبويهيون مثلا حراصاً على جمع كتب الشيعة ، حرص السلاجقة على جمع كتب أهل السنة . وأضحى لكل نوع من الكتب مكان يبحث عنه فيها . ففقه المالكية مدين فى مدارسته وحفظ أصوله لشمال أفريقيا . فى حين يرجع إلى الشام ومصر فى البحث عن كتب الشافعية ، ويعد اليمن أكبر مصدر لما بقى من مؤلفات المعتزلة ، وبخاصة المتأخرون منهم . . ولما كان النفوذ السياسى فى الإسلام قد آل فى القرون الأخيرة إلى الدولة العثمانية فإن مكتبات استامبول تعد الذخيرة الكبرى للتراث الإسلامى ، وفيها مؤلفات قد لاتوجد فى مكان آخر ، وفى حصرها حصراً دقيقاً مايمكن من استكمال حلقات مفقودة. وقد بذلت فى ذلك جهود ملحوظة فى الثلث الأول من هذا القرن ، وما أحوجنا إلى استكمالها. وحبذا لو أنشيء فى استامبول معهد للدراسات العربية يعد طائفة من الباحثين لجمع هذه المخطوطات وحصرها ، ويقينى أن الحكومة التركية سترحب بذلك .

ولسنا فى حاجة أن نشير إلى ما للتراث العربى من شأن فى تاريخ الثقافة الإنسانية ، فهو عنوان حضارة سادت العالم عدة قرون ، وهمزة وصل بين القديم والحديث . أخذ عن الحضارات القديمة ، وأثر فى الحضارات الحديثة . أحيا معالم التراث اليونانى ، واحتفظ بأجزاء منه ضاعت أصولها الأولى ووجه نظر الغرب إليه ، فبدأ يأخذ عنه ويتبع خطاه ونشأ من ذلك تراث القرون الوسطى اللاتينى . وللتراث العربى شأن أيضاً فى الحضارة الغربية الحديثة ، أثر فى عملها وفلسفتها فى فنها وصناعتها . وهو اليوم للعرب والمسلمين جميعا مجد الماضى ، ونبراس الحاضر وهدى المستقبل .

* * *

وقد عنى المسلمون من قديم بحفظ تراثهم المكتوب ، فافتنوا فى نسخه ، وأجادوا فى تغليفه ، وأودعوه أماكن أمينة . وأنشئت منذ عهد مبكر مكتبات لجمعه وحفظه ، وأعدت فى المساجد خزائن خاصة به . وتعددت مخطوطاته ، ويكاد يصل ما بقى منها إلى بضعة ملايين ، موزعة بين الشرق والغرب فى العالم القديم والجديد . وقد تسابق الغربيون منذ القرون الوسطى إلى جمع المخطوطات

العربية ، وتنافسوا فى شرائها ، ولم يضنوا عليها بمال . واشتد تنافسهم فى التاريخ الحديث وجدّوا فى اقتنائها منذ القرن الثامن عشر ، ولها أقسام خاصة مسجلة ومفهرسة فى المكتبات الأوربية الكبرى وبخاصة المتحف البريطانى ، ومكتبة باريس الأهلية ، والأسكوريال ، والأمبروزيانا ، وللمكتبات بعض الجامعات الأمريكية نصيب منها . وعلى دعائمها قامت حركة الاستشراق منذ أوائل القرن الماضى .

ولا يزال فى العالم الإسلامى والعربى ثروة كبيرة منها ، وما أجدرنا أن نرعاها ونتعهدها وقد أشرنا من قبل إلى الثروة الهائلة التى تحتفظ بها مكتبات استامبول ، ودعونا إلى متابعة كشفها وفهرستها والتعريف بها . وفى إيران قدر ما أحوجنا أن نقف عليه ، وأن نفيد منه . وسبق لحيدر آباد الدكن أن عرفت ببعض مخطوطاتها .

والتبادل الثقافى ضرورى ونافع ، فى المطبوع والمخطوط على السواء ، وعن طريق الفيلم والتصوير يمكن تبادل المخطوطات على اختلافها ، وفى العالم العربى ثروات يعتز بها ، وهى موزعة بين المكتبات العامة والخاصة ، وندعو مخلصين أصحاب المكتبات الخاصة أن يكشفوا عن كنوزهم ، وأن يمكنوا الباحثين والدارسين منها . ويكفى على سبيل المثال أن أشير إلى « كتاب المغنى » للقاضى عبد الجبار الذى أخرجنا بعض أجزائه ، واحتفظت مكتبات اليمن الخاصة بالأجزاء الباقية

ومخطوطات العالم العربى موزعة بين عواصمه ومدنه ، وربما كانت القاهرة والرباط من أعظمها حظاً . وفى مكتبات مصر العامة والخاصة تكاد تصل إلى مئات الألوف وقد لا تكون ثمة مجموعة تعادلها فى بلد عربى آخر . إلا أن منها ما فهرس وعرف به ، ومنها ما لم يفهرس بعد ، وأغلبه تنقصه الأحراز الملائمة والأماكن الصالحة .

وأول خطوة فى سبيل إحياء التراث العربى المكتوب أن يحصر ، وأن تجمع مخطوطاته وتفهرس ويعرف بها تمهيدا لنشرها ، وهذا ماسنعرض له فيما يلى:

لا شك فى أن حصر المخطوطات العربية وجمعها هو أول خطوة فى سبيل إحيائها وقد أشرنا من قبل إلى أن الغرب قدر هذه المخطوطات قدرها منذ زمن بعيد . وتابع البحث عنها إلى اليوم ، وبذل ما بذل فى سبيل اقتنائها . وتعاون العرب

والمسلمون تحت نير الاستعمار التركى والأوربى ، فى حمايتها ومحاربة تهريبها والاتجار بها ، ولم يتنبهوا إلى قيمتها التاريخية والثقافية إلا فى أخريات القرن الماضى . وأخذوا يجمعونها ويودعونها أحرازا أمينة ، ويبحثون عما فقد منها فبعثت بعوث للبحث عن المخطوطات النادرة ، وبذلت فى ذلك جهود متفاوتة فى بعض الأقطار العربية ، وكان لمصر منها نصيب واضح . وأخشى أن تكون هذه الجهود قد توقفت بعد أن اضطلعت جامعة الدول العربية بأمر هذا البحث ، وما أجدر الجامعات والمجامع اللغوية والعلمية والمكتبات العربية الكبرى أن تعنى به . وأن تسهم فيه بنصيب .

وقد أنشأت الجامعة العربية فعلا قسما لجمع ما يمكن جمعه من المخطوطات القيمة ، وبدأ هذا القسم عمله عام ١٩٤٧ ، واستمر ينمو على مر الزمن ، وأصبح « معهدا للمخطوطات العربية » ، مكتبته ومطبوعاته وصحيفته . وكانت له مجلة توقفت زمناً ونأمل أن تستعيد نشاطها . واستطاع فى الثلاثين سنة الماضية أن يبعث عدة بعوث إلى سوريا ، وتركيا . ولبنان ، والمملكة العربية السعودية ، وتونس ، والمغرب فى العالم العربى ، وإلى إيران ، والهند ، واليابان ، وإيطاليا ، فى البلاد الأخرى ولا بد له أن يتابع هذه البعوث ، وعلى كل بعثة أن تعد لمهمتها قبل البدء فيها ، وأن ترسم خطوطها ومعالمها . وينبغى أن يضع المعهد فى حسابه مخطوطات المكتبات والمتاحف الأوربية الكبرى ، وفى وسعه أن يحصل على فهارسها ، وهى فى الجملة دقيقة ومستوعبة ، وعن طريق التبادل أو المراسلة يمكن الإفادة منها . وقد آن الأوان لأن نؤمن بأن العلم للجميع وأن طلبه حق ، وأن الاستجابة له واجبة ، وعلينا أن نُرَوِّض على ذلك القائمين على أمر مراجعه ومصادره . وكم شكا الناس من بطئنا أو إعراضنا عن إجابة طلب باحث أو دارس لصورة نص أو مرجع من المراجع . وقد أحرز معهد المخطوطات فى الثلاثين سنة الماضية قدرا كبيرا من صور المخطوطات العربية وزادت حصيلته زيادة ملحوظة ، وتكاد تبلغ الثلاثين ألف مخطوط ولا يتردد فى أن يمكن الباحثين من الاطلاع عليها ، أو الحصول على نسخ منها ، ويتوارد عليه الزائرون من الشرق والغرب بانتظام . وقد بدأ منذ زمن فى ترتيب مخطوطاته ، وفهرستها ، وأخرج بالفعل قدرا من فهارسه ، والباحثون والدارسون فى حاجة ماسة إليها ، وإنا لنرجو لهذا المعهد أن تؤيد رسالته :

ويعزز نشاطه ، وأن يبقى منارة يهتدى بها فى ميدان جمع المخطوطات العربية وتحقيقها ونشرها .

والنشر الكامل الدقيق هو الإحياء الحقيقى للتراث العربى ، وقد يسرت المطبعة الحديثة أمره ، ويزداد فن الطبع دقة ووضوحاً عاماً بعد عام . وقد عرفت المطبعة فى أوربا منذ القرن السادس عشر ، ولم تعرف فى العالم العربى إلا فى القرن الماضى . فظهرت فى مصر لأول مرة عام ١٨٠١ ، وفى لبنان عام ١٨٢١ ، وفى تونس عام ١٨٦٠ . وليس بغريب أن تنشر فى أوربا مؤلفات عربية قبل أن تظهر فى العالم العربى بثلاثة قرون ، ولا نزال مدينين حتى اليوم لأوربا بالطبعة العربية لكتاب (القانون) لابن سينا مثلا ، وما أجدرنا أن نخرجه إخراجاً علميا محققا . ولم يكن للنشر فى الماضى منهج واضح ولا خطة مرسومة ، بل كان يكتفى فيه بالأخذ عن مخطوطات ما دون بحث أو تمحيص ، فيجيء المطبوع مجهول الأصل مليئاً بالأخطاء ، وقد يكون بين مخطوطاته ما هو أدق منه لفظا وأوضح عبارة . وأصبح للنشر العلمى اليوم شرائط وقيود أخذ بها فى نشر التراث اليونانى والرومانى ، وطبقها المستشرقون ما وسعهم على ما نشروا من نصوص عربية .

ومما يؤسف له أن هذه الشروط والقيود لم ترع بدقة فيما نشر فى العالم العربى ، وبخاصة فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، واكتفى بطبع بعض المخطوطات دون بحث عن أصولها أو تحقيق لنصوصها . وأعيد طبع كتب كما هى دون تنقيح أو تهذيب ، وأخذ عن بعض ما نشر فى الخارج فى غير دقة ولا عناية . وربما قام بالنشر من ليس أهلا له ولا متخصصا فى موضوعه وأضر شيء ذلك النشر التجارى الذى يهدف إلى المال وحده ، فلا يتقيد بمنهج علمى ، ولا يبالى بتحقيق . ومن حسن الحظ أن الدرس الجامعى أخذ منذ ثلث قرن أو يزيد فى تقدير النشر العلمى حق قدره ، وفتح بابه لرسائل الماجستير والدكتوراه ، وضرب فيه مثلا يحتذى وفرض منهجه على شباب الجامعيين من الدارسين والمحققين ، وفى بعض الرسائل الجامعية تحقيق لا يقل عن أمثاله فى الجامعات الغربية .

والمخطوط فى الواقع وثيقة تخضع لما تخضع له الوثائق التاريخية الأخرى من بحث وتمحيص ، ونقد وملاحظة . فيحصى الموجود من نسخه ، ويبين عصرها ، ويوازن بينها . ولا شك فى أن أولاها ما كتب بخط المؤلف ، أو ما أملاه أو قرأه أو قرىء عليه . ثم يليه ما أخذ عن نسخه ، أو كتب فى عصره . ولا يصح التعويل على نسخة واحدة إن كان للنص أكثر منها ، وفى تعدد النسخ ما يسمح بالمقارنة واستكمال الناقص . وللمحقق أن يتخذ نسخة أساسا ، ثم يضيف إليها فى الهامش الروايات الأخرى . وله أن يكوّن من مجموع النسخ نصاً مختارا ، إذا لم تتوفر له نسخة بخط المؤلف . وهذا مسلك صعب يتطلب فقها باللغة ، وتمكنا من موضوع المخطوط ، وإلفا لأسلوب المؤلف وعلى المحقق أن يكمل الخروم إن استطاع ، وأن يرجع إلى المصادر التى يشير إليها النص للتثبت والموازنة . ورغبة فى الضبط والتوضيح يقسم النص ويرقم ، وينقط ويشكل ، وتستخدم فيه علامات الفصل والوصل . والتعجب والاستفهام ، وتمييز زيادات المحقق وإضافاته بأقواس معقوفة .

ومن شرائط النشر العلمى التحقق من صحة المخطوط ونسبته إلى صاحبه وهناك كتب منحولة جمعت ولفقت من مصادر مختلفة ، وأخرى عزيت إلى غير أصحابها . وسبيل الكشف عنها ضرب من النقد الداخلى والخارجى فيتحرى الموضوع ليتعرف مدى التقائه بآراء من يعزى إليه ، ويرجع إلى المصادر التى تتصل به ، وقد كشف بهذا عن أخطاء كثيرة توالت عليها أجيال متعاقبة . ولا بأس فى أن يقدم المحقق لما ننشره ، فيعرّف به ، ويلخص ما جاء فيه وله أن يعلق عليه ، ويشرح غامضه ، على ألا تطغى الحواشى والتعليقات على النص . ويحسن أن يختم تحقيقه بفهرس لأعلام الأشخاص والأماكن ، وآخر للكتب التى ورد ذكرها فيه ، ومعجم للمصطلحات إن دعا الأمر .

وقد غفلنا عن تراثنا زمنا طويلا ، إلى أن تنبه إليه من قبل نفر من كبار المستشرقين فى أخريات القرن الماضى ، وأخرجوا منه مراجع لا تزال عمدة فى بابها . وبدأنا فى هوادة نضطلع بهذا العبء منذ أوائل هذا القرن ، وأخذ يتكون لدينا جيل من المحققين والناشرين ، ولم نعن كثيرا بتتبع الأصول المختلفة وجمعها من مظانها

وقنعنا فى الغالب بنشر ما توفر لدينا ، واكتفينا بمخطوط واحد ، وكان فى وسعنا أن نضم إليه مخطوطات أخرى ، ولم نلتزم – فى اختصار – بمنهج التحقيق العلمى الدقيق . ومع هذا أسهمنا فى إحياء تراثنا ، وظهر لنا إنتاج أخذ ينمو على مر الزمن ، واضطلع به أفراد وجماعات . وركب بعض الناشرين المركب السهل ، فأعادوا إخراج ما سبق نشره دون إضافة أو تعديل ، وربما شوهوه وأساءوا إليه ، وطغت النزعة التجارية ورغبة الكسب اليسير هنا ، كما تطغى فى ميادين أخرى .

وفى ربع القرن الأخير ازدهرت حركة التحقيق والنشر ازدهارا ملحوظا وتنافس فيها المتنافسون من حكومات وهيئات وأفراد ، ظهرت فى العالم العربى وزارات للتراث ، ومجالس قومية لإحيائه . وبدت ظاهرة سبق أن دعونا إليها وشجعنا عليها ، وهى أن يضم تحقيق النصوص إلى مجال البحوث الجامعية ، وما أجدره بذلك ، وفيه ما فيه من عناء ومشقة وتحرير وتمحيص ، فتقبل رسائل الماجستير والدكتوراه التى تعالج نصوصا قديمة ، وقد اتجه الشباب الجامعى أخيرا نحو ذلك وأسهم فيه إسهاما بينا . ومما يؤسف له أن عددا غير قليل من تلك الرسائل لم ير النور بعد ، ونأمل أن تضطلع الجامعات نفسها بقدر من هذا العبء ، وأن توجه إليه أنظار دور النشر الكبرى .

ولم تحظ هذه الحركة النشيطة فى الجامعات وخارجها بتخطيط واضح ، ولا تنسيق شامل ، بل تركت لهوى الأفراد والجماعات . ولا نكاد نلحظ شيئا من هذا التخطيط إلا فى مثلين اثنين وقف عندهما مجمعان لغويان ، هما مجمع دمشق الذى عنى خاصة بالنصوص التاريخية التى تتصل بسوريا وبلاد الشام ، ومجمع القاهرة الذى وقف عند النصوص اللغوية . ووقعنا تبعا لهذا فى شىء من الازدواج والتكرار ، فينشر نص واحد أكثر من مرة فى بلدين أو بلاد عربية ، وتهمل نصوص أخرى لها وزنها وقيمتها . وما أحوجنا أن تتوزع هذه الجهود بيننا ، وأن يرسم للتحقيق والنشر خطة شاملة تقوم على أولويات واضحة ، وفى وسع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أن ترعى ذلك وتتعهده . وليس فى هذا ما يعدو على حرية المحققين

والناشرين ، بل هو محاولة لتوزيع الأعمال بينهم . وتفادى للجهود المكررة والضائعة .

وتراثنا واسع عريض ، متعدد الألوان ، متنوع الدراسات ، فيه أدب ولغة ، وقصص وتاريخ ، وفقه وتشريع ، وتفسير وحديث وجغرافيا ورحلات ، وعلم وفلسفة . ولم تنل هذه الدراسات حظا متعادلا من التحقيق والنشر ، ففيها ما عظم الإقبال عليه ، وفيها ما أهمل إهمالا يكاد يكون تاما ويرجع ذلك فى الغالب إلى أن بعض الهيئات العلمية لم تحاول أن تضطلع بنصيبها وما أجدرها أن تفعل . فتاريخ العلوم الطبيعية والرياضية مثلا ونصوصها قد استلفتت نظر المستشرقين منذ عهد مبكر ، ولم تنل منا بعد ما تستحق من عناية . ونحن فى حاجة ماسة لتتبعها والكشف عنها لا سيما بعد أن قلت عناية المستشرقين بها أخيرا ورب الدار أولى برعايتها .

والسبيل الحق لإحياء تراثنا ، ونشره نشرا علميا محققا أن تضطلع به الهيئات المتخصصة ، وتتقاسم أعباءه فيما بينها ، فيقوم الأدباء واللغويون على نشر النصوص الأدبية واللغوية ، ويرعى الفقهاء والمحدثون أصول الشريعة الإسلامية ومراجعها ، وتضطلع الجمعيات والاتحادات العلمية والفلسفية بالمخطوطات العلمية والفلسفية . ولهذا التخصص أشباه ونظائر فى اللغات العالمية الكبرى ، وقد آتى ثمارا طيبة . وبلغ درجة واضحة من التحديد والدقة فوقفت كل هيئة نفسها على عصر بذاته ، أو على مدرسة بعينها . والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر من بينها فى الفرنسية « مجموعة بوديه » التى عنيت خاصة بالنصوص الفلسفية اليونانية ، وفى الإنجليزية « مجموعة لويب » الكلاسيكية التى أخرجت عددا غير قليل من مؤلفات أرسطو الطبيعية .

واستطاعت مكتبتنا العربية بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية أن تخرج فى العشرين سنة الأخيرة قدرا لا بأس به من النصوص الفلسفية .

ومن حق إحياء التراث أن ينوه به ، وأن تعطى عنه فكرة صحيحة للباحثين والدارسين فى العالم بأسره ، وأن ينقل منه ما ينقل إلى اللغات الحية وإذا كنا نحرص على أن نأخذ عن هذه اللغات ، فإن من واجبنا أن نعطيها وربما تم هذا العطاء على أيدى بعض أبناء هذه اللغات أنفسهم ، ولكن هذا لا يعفينا من أداء هذا الواجب على وجهه . وقد اضطلع به نفر من باحثينا ومبعوثينا فى النصف الأول من هذا القرن ، ثم انصرفنا عنه أخيرا وضعفت بيننا وسائل البذل والعطاء ، وقل من يجيدون النقل والترجمة .

ولم يبق شك اليوم فى أن الثقافة العربية غذت قديما الثقافة اللاتينية والعبرية بغذاء وفير ، وامتد غذاؤها إلى عصر النهضة الأوربية والتاريخ الحديث ، ونريد لها أن تستعيد مجدها وأن تسهم مع الثقافات الأخرى فى ميدان الفكر والحضارة الإنسانية .

الأدب العربى تجاه مشكلتى اللغة والحرف

١ ــ للغة سلطان وقداسة تستمدهما من وحى السماء ، أو من إجماع أهل الأرض . وقديما قالوا إنها توقيفية أوحى بها الله إلى عباده ليتفاهموا ويتفاوضوا « وعلّم آدم الأسماء كلها » ويزيدها قداسة أن تصبح لغة الطقوس والعبادة ، أو أن ينزل بها كتاب سماوى يهبها من قداسته ، ويضفى عليها من هيبته . وليس ثمة شك اليوم فى أنها ظاهرة اجتماعية ، تنشأ فى قلب المجتمع ، وتحيا بحياته فلها ما للظواهر الاجتماعية من سلطان وحرمة ، وعزة وكرامة ، وتعد بحق فى مقدمة مشخصات الأمم والشعوب .

وقد عولت العربية على هذين المنبعين ، فهى لغة الدين والدنيا ، والعبادة والسياسة ، بها نزل القرآن ، وبها حفظ ، ونشأت حوله دراسات ، لغوية متنوعة . وهناك طقوس دينية لا بد للمسلم أن يستخدم فيها ألفاظا وجملا عربية ، كيفما كانت لغته الوطنية . ويوم أن أخذ العرب فى بسط نفوذهم أخذت العربية تنتشر معهم ، فكانت تدرس فى أصبهان وشيراز ، كما كانت تدرس فى دمشق وبغداد ، وظهر كتاب وشعراء فى قرطبة والحمراء ، كما ظهروا فى القاهرة والقيروان . وأضحت إجادة اللغة العربية بابا هاما من ابواب التنافس ، ووسيلة من وسائل الرقى والسؤدد .

ولقد أفادت العربية كثيراً من جانبيها الدينى والاجتماعى . واكتسبت مناعة وقتها حملات الخصوم والأعداء ، وحمتها من جموع التغير والتبديل .

(*) ألقيت فى مؤتمر الأدب العربى المعاصر الذى عقد بروما فى المدة من ١٦ إلى ٢٠ من شهر أكتوبر سنة ١٩٦١ .

وبقيت على الدهر بحيث أصبحت لغة قديمة وحديثه معا ، « إنَّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون » إلا أن هذه القداسة كثيرا ما وقفت فى طريق الإصلاح والتجديد ، واعترضت سبل النمو والتطور . فقيل بالحرام والحلال فى أمور تتصل بمتن اللغة وأساليبها وكتابتها ورسمها ، كما قيل بهما فى الحكم على أقوال الناس وأفعالهم . ومع هذا فالزمن يسير ، ولا بد أن تسير اللغة معه ، وربما كان لدعوى القداسة والحرمة أثر فى التأنى فى التجديد ، والتروى فى الإصلاح ، مما يربط الحاضر بالماضى ويساير التطور دون طفرة.

٢ — والأدب حياة اللغة ، يساهم فيه المتحدث والكاتب ، الناثر والشاعر الخطيب والصحفى ، المذيع والممثل ، الأديب والعالم ، الشعب والخاصة فهو جملة الإنتاج الأدبى فى لغة ما يتأثر — دون نزاع — بالأحداث السياسية والظروف الاقتصادية والاجتماعية ، ويصور الحياة الدينية والأخلاقية ، يبتلى بالجمود أحيانا ثم ينشط ويتحرك . يأخذ ويعطى ، فيتغذى من الآداب الأجنبية ويغذيها . وهو متنوع ، يختلف من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى أخرى فهناك أدب قديم وأدب حديث ، أدب ريفى وأدب حضرى ، أدب ديموقراطى وأدب أرستقراطى .

والأديب الحق مبدع ومبتكر ، بقدر ما هو مقلد ومحاك ، يبتكر ألفاظا وأساليب ، كما يبتكر أفكارا وأخيلة . ينهج نهج القدامى ويحذو حذوهم فى الوقت الذى ينافس فيه المعاصرين ويحاول أن يجدد مثلهم . وأنصار الأدب القديم أنفسهم لا يرضون أن تنمحى شخصيتهم ، وتفنى أساليبهم فيمن سبقهم وأعز شىء لدى الأديب حريته ، فيحرص على أن يكون حرا فى تفكيره ، يرسل أحاسيسه ومشاعره كما تبدو له ، حرا فى تعبيره يصوغ معانيه على النحو الذى يروقه . ولا يضيره أن نخرج أحيانا على بعض قيود النحو واللغة ، وربما فتح خروجه بابا لنحو ولغة جديدة .

وهكذا كان الأدب العربى ولا يزال ، تنوع بتنوع العصور ، وسار بسير الزمن ، علا وهبط ، قوى وضعف ، ومن الخطأ أن نقف به عند عصر بعينه ، أو أن نقصره على بيئة بذاتها ، تأثر بالآداب الأجنبية وأثر فيها ، وكانت

له حياة مستقلة وتاريخ متصل، ويربأ أدباء العرب بأنفسهم عن أن يكونوا مجرد نقلة أو محاكين، ويأبون إلا أن ينالوا حظهم من الأصالة والابتكار.

٣ – الأدب مادة اللغة، منه يستمد متنها، وعليه يقوم نحوها وصرفها وقد عنى الرواة قديما بجمعه كما عنوا بجمع اللغة نفسها. وأبلوا في ذلك بلاء حسنا، وإن لم يسلموا من الحشو والخطأ، لا سيما والعرب في جاهليتهم كانوا يعيشون قبائل وجماعات، لكل قبيلة لهجتها ونطقها، وظروفها وبيئتها وأوضح ما يكون هذا الخلاف بين القبائل العدنانية في الحجاز، والقحطانية في اليمن، فكانت تستعمل الكلمة الواحدة في عدة معان، أو يعبر عن المعنى بألفاظ مختلفة باختلاف البيئات، مما أدى إلى تباين المعاني للفظ الواحد وكثرة المترادفات، وتعدد قراءات القرآن وما أن فتحت الأقطار شرقاً وغربا وتوطدت الصلة بالثقافات الأجنبية وبسطت الحضارة الإسلامية ألويتها، حتى أخذت العربية تغذى بغذاء جديد لم يأنفه العرب ولم يرهبوه. وكانت ثقتهم بأنفسهم كفيلة بأن يأخذوا الجديد على صورته، أو يؤقلموه ويصوغوه نوعا على حسب قواعدهم. واستمروا كذلك حتى جاء عصر الركود، فكان الجمود والإفلاس والتحريم والتحليل. ويوم أن بزغ عصر النهضة الحديثة استعادت العربية ثقتها بنفسها، وبدأت تتقبل الألفاظ والتراكيب الجديدة غير هيابة ولا مترددة.

عنى العرب عناية بالغة بجمع لغتهم وتسجيلها فتلقفها الرواة من البادية وأعدوا بذلك المادة الضرورية لوضع المعاجم اللغوية. ولا نظن أن لغة ما – قديمة أو حديثة – توفر لها من المعاجم ما توفر للعربية. ففي القرن الثاني للهجرة افتتح الخليل بن أحمد عصر المعاجم الكبرى، ثم تنافس اللغويون والنحاة بعده في تأليف معاجم مختلفة الحجم والمنهج. ولا يكاد يوجد قرن لم يوضع فيه معجم عربي جديد بل ربما وضع في القرن الواحد أكثر من معجم. ويعد القرن الرابع الهجري القرن الذهبي للمعاجم ففيه ظهر معجم ابن دريد (٣٢١هـ) والأزهري (٣٧٠هـ) والصاحب بن عباد (٣٨٥ هـ)، وابن فارس (٣٩٥هـ) والجوهري (٣٩٧هـ) وإذا كان قد فقد بعض المعاجم العربية، فإن أغلبها وصلنا، ومعظمها منشور ومتداول، ومن بينها ما ترجم إلى لغات أجنبية.

ولا شك فى أن هذه المعاجم غزيرة المادة كثيرة المعلومات ، وستبقى على الدهر معينا لا ينضب لتوضيح غريب الكلمات وغامض النصوص . ولكنها تلتقى فى عيوب مشتركة : من غموض فى الشرح ، وخطأ بعض التعاريف لاسيما وقد عرضت لمواد تبعد نوعا ما عن اللغة كالتاريخ والجغرافية والحيوان والنبات ، وقد تغير اليوم وجه العلم وكثيرا ما كرر بعضها بعضا دون تنقيح أو تهذيب ، ويصرح صاحب لسان العرب ، أكبر معجم وصلنا ، بأنه لم يصنع شيئا أكثر من أنه جمع ما ورد فى تهذيب الأزهرى ، وصحاح الجوهرى ، ومحكم ابن سيده ، وحواشى ابن برى على الصحاح ، ونهاية ابن الأثير . وفوق هذا فمنهج هذه المعاجم ناقص ومعيب — ناقص لأنها وقفت باللغة عند حدود زمانية ومكانية ضيقة ، ففقدت كثيرا من معالم الحياة والتطور . فهى توضح العربية فى الجاهلية وصدر الإسلام وتكاد تنكر ما عداها ، وبذا لا تمثل عصور اللغة كلها ، بل ولا العصر الذى وضعت فيه ، ومنهجها معيب أيضاً لا تتوفر فيه شرائط فى المعاجم الحديثة من حسن الترتيب ، ووضوح الشرح ، ودقة المعنى ، والاستعانة بالصور والخرائط واللوحات ففى الرجوع إليها عناء ومشقة ، وفى عرضها حشو واستطراد ، وأصبحت لا تواجه تماما حاجة العصر ومقتضياته .

ولقد حاول بعض اللغويين منذ أخريات القرن الماضى تدارك هذا النقص فوضع البستانى « محيط المحيط » والشرتونى « أقرب الموارد » والأب لويس معلوف « المنجد » . وهم — فيما يبدو — متأثرون بالمعاجم الغربية الحديثة ، والمنجد بوجه خاص محاكاة صادقة لمعجم لاروس الصغير . وهو فى الواقع قاموس عملى سهل المأخذ ، غنى بوسائل الإيضاح ، ولا أدل على ذلك من أنه أعيد طبعه ست مرات فى أقل من عشرين سنة وفى الطبعة الأخيرة قسم كبير فى الأدب والعلوم ، على غرار لاروس ، إلى جانب القسم اللغوى . ولكن هذه المعاجم الحديثة لم تستطع التخلص من قيود الماضى ، ولم تجرؤ على أن تسجل شيئا من لغة القرن العشرين ، واكتفت بأن تلخص المعاجم القديمة فى ترتيب أحسن ومنهج أقوم .

ويوم أن أنشئ « مجمع اللغة العربية » بالقاهرة عام ١٩٣٤ نص في مرسوم إنشائه على أن من أهم أغراضه — « أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية » ، وقد أخذ نفسه بذلك منذ البداية . وكان من بين أعضائه المستشرق الألماني « فيشر » الذي عني بالمعجم العربي منذ أوائل هذا القرن ، ورغب في أن يخرجه على غرار معجم أوكسفورد التاريخي ، فيعمد إلى النصوص لتوضيح معاني الكلمات ، ويتتبع تاريخها وتغير مدلولها . وهي محاولة شاقة ، وشبه متعذرة الآن على الأقل ، لأن العربية أطول تاريخا من الإنجليزية ، وأكثر مصادر ، ومن بين مصادرها ما فقد أو مالا يزال مخطوطا ومع هذا بذل «فيشر» فيها جهودا مضنية وشاء أن يتوجها بأن يخرج « معجمه » تحت كنف المجمع اللغوي ورايته ، ولم يتردد المجمع في أن يجيبه إلى ما طلب ، وأن يمده بوسائل الفنون المختلفة . إلا أن الحرب العالمية الثانية وقفت في طريقه ، ولم نلبث أن فقدناه بعدها بقليل ، وقبل أن يخرج « معجمه » إلى النور . ولم يبق من جهود أربعين سنة إلا جذاذات غير مكتملة وغير مستوفاة ، يحتفظ بها المجمع في قاعة خاصة تحت تصرف الباحثين .

اضطلع المجمع إلى جانب هذا بوضع « معجم كبير » يستوعب اللغة في مختلف عصورها ، ظهر منه منذ خمس سنوات جزء كبير أريد به أن يكون تجربة يستطيع المتخصصون في اللغة أن يبدوا عليها ملاحظاتهم ومن أهم ما قرر في مقدمة هذا الجزء أن للغة ماضيا وحاضرا ، فلها ماضيها الموروث ، وحاضرها الحي الناطق ، ولا بد أن يلاحظ ذلك في وضع معجم جديد ، فيستشهد بالشعر والنثر مهما يكن العصر الذي أنشئ فيه ، وتثبت الألفاظ الطارئة التي دعت إليها ضرورات التطور ، وفرضها تقدم الحضارة ورقي العلم . ولا يزال المجمع يوالي جهوده لإخراج هذا « المعجم الكبير » .

عني المجمع أيضا منذ زمن بوضع « معجم وسيط » سهل التناول ، ينتفع به طلاب العلم وييسر عليهم تحصيل اللغة ، وتوفر له ما أراد ، ويقع هذا المعجم في جزئين ظهر أولهما في أواخر العام الماضي ، والثاني على وشك

الظهور[١]، ويحتوى على نحو ٣٠ ألف مادة ، ومليون كلمة ، وستمائة صورة . وقد أخذ بحظ وافر من فن المعاجم الحديثة ، فهو محكم الترتيب والتبويب ، يسير الشرح دقيق التعاريف ، يكتفى من الشواهد بما تدعو إليه الضرورة ، فى غير غموض ولا تعقيد. يسجل ما استقر من ألفاظ الحياة العامة ، والمصطلحات العلمية الشائعة ويقر كثيرا من الألفاظ المولدة والمعربة الحديثة ، ويهجر الحوشى والغريب .

فالمعجم العربى فى تجدد وتطور شبيه بتطور المعاجم الغربية ، يأخذ بأحدث مبادىء الفن المعجمى وييسر اللغة . يراد به أن يضع ألفاظ القرن العشرين إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام ، وأن يهدم الحدود الزمانية والمكانية التى أقيمت خطأ بين العصور اللغوية المختلفة وفى هذا ما يثبت أن فى العربية وحدة تضم أطرافها ، وحيوية تستوعب كل ما اتصل بها وتصوغه فى قالبها . وقد بذلت فى ذلك جهود لا بأس بها ، وظهرت معاجم مصطلحات إلى جانب المعاجم اللغوية ، ولكن لا يزال الأمر يتطلب جهودا أخرى وقسطا أوفر من الجرأة والتحرر .

٤ — اللغة تعبير عن وجدانات وأفكار بواسطة أصوات ودوال أقرها المجتمع وأخذ بها ، فعناصرها وجدان وعاطفة ، فكر ورأى ، بيئة ومجتمع أو إن شئت مدلولات ودوال وكلها متغيرة ومتحركة ، فالوجدانات والعواطف فى نشوء وارتقاء لدى الأفراد والجماعات ، والأفكار تنمو بنمو العلم والدراسة ، وتتجدد بتجدد الكشف والاختراع . والحياة الجمعية فى تبدل وتغير ، فمن همجية إلى آخذة فى التحضر ، ومن نصف متحضرة إلى موغلة فى الحضارة والمدنية . وكلما اكتملت حضارة أمة تعددت مرافقها ، وتنوعت اتجاهاتها ، وكثرت حاجاتها ، وأضحى لزاما أن تسايرها فى كل ذلك لغتها ، فتزيد مفرداتها وتتنوع تراكيبها ، وتسموا أساليبها ، وتتباين فنون القول فيها .

---

(١) ظهر هذا الجزء فى أوائل هذا العام.

ولم تصل العربية إلى ما وصلت إليه فى عصر المعلقات ، من غزل « امرئ القيس » ، وحماس « مهلهل » ، وفخر « ابن كلثوم » إلا بعد أن مرت بأدوار ومراحل إعداد وتكوين طويل . ثم جاء الإسلام فهذب حواشيها ، ورقق عباراتها ، وصقل ألفاظها ، واستمرت تنمو وتغزر لفظا ومعنى طوال قرون عدة . ولكن الزمن يهدم ما بنى ، فدخلها الغريب والفاسد وأخذت تركد ركود المتخاطبين بها . وما أن حل النصف الأخير من القرن الماضى حتى عادت تنشط وتنهض ، وتسلك سبل الحياة فى حماس وقوة .

ووسائل إنهاض اللغة وتطويرها كثيرة ، أخصها الوضع اشتقاقا وتجوزا وارتجالا ، إطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس ، تحرير السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما نسمع اليوم من طوائف المجتمع كالحدادين والنجارين والبنائين ، التسلم بالتعريب والاعتداد بالألفاظ المولدة وتسويتها بالألفاظ المأثورة ، وقد أخذ قديما بمختلف هذه الوسائل فاستباح العرب الوضع فى مختلف صوره ، وقبلوا كلمات أجنبية أضافوا بها ثروة جديدة إلى لغتهم فمثلا يستعمل « الأعشى » كلمة « شاهنشاه » و« امرؤ القيس » كلمة « السجنجل » ، وفى الإمكان حصر الكلمات المعربة فيما وصلنا من أدب جاهلى . وفى « القرآن » كلمات معربة كثيرة ، مثل « زنجبيل » و« سلسبيل » . أما الاشتقاق والقياس فلم يكن هناك ما يقيدهما ، وكان العربى ينطق على سليقته فكان نطقه حجة . وساعد الفتح والاختلاط على التعريب والاشتقاق معا ، ودفعت إليهما الترجمة وانتشار العلم . وهناك ألفاظ عربية أو معربة إسلامية لم تعرف فى الجاهلية من قبل ، ولم يستنكرها أحد أو يرفضها ويوم أن ضاقت العقول بدأ التحليل والتحريم ، فأصبح التعريب ممنوعا وحرم الوضع على المتأخرين .

ولقد استطاع « مجمع اللغة العربية » أن يفك كثيرًا من هذه القيود ويطلق سراح اللغة فقال بالتضمين ، والنقل ، والمجاز ، والتعريب ، وأجاز الاشتقاق من أسماء الجواهر والأعيان ، كما أجاز النسبة إلى جمع التكسير . وتوسع فى المصدر الصناعى ، وأقر صيغا للدلالة على الحرفة والمرض والصوت . وفتح فى اختصار ، باب الاجتهاد فى اللغة ، وكان

موصدا من قبل . ولم يقنع بأن يسجل ما أقره الأدباء والعلماء بل شاء أن يوجه نحو تطوير اللغة والنهوض بها . وكان لتوجيهه أثره ، وتبارى الكتاب فى التجديد والابتكار . والواقع أن مستحدثات الحضارة والعلم لا تنقطع ولا حياة للغة إلا إن واجهتها ، وعرفت كيف تؤديها على وجهها .

٥ — لم تخل الكتابة — بدورها — من طابع دينى ، فقيل إنها من وحى إلهى عزاها المصريون إلى الإله توت ، واعتقد العبرانيون أن موسى تلقاها عن الله ، وقال بعض مؤرخى العرب إنها توقيف من آدم ، ولا تزال حتى اليوم مرتبطة بالسحر فى أرقى الشعوب حضارة . وإذا كان للكلمة الملفوظة قوة سحرية ، فالكلمة المكتوبة بها أولى ، ومن ثم كان الكتبة الأول من السحرة . وما إن اختلطت الكتابة بالحياة المدنية وصارت فى متناول عامة الناس ، حتى أخذت تتطور بتطور الزمن . قامت أولا على الصور والأشكال ، ثم تحولت إلى رموز وحروف وإن لم تفقد اعتبارات الرسم والفنون الجميلة ، وأضحت الكتابة لغة إلى جانب لغة النطق ، ومن بيننا من يتفاهمون اليوم بالكتابة أكثر مما يتفاهمون بالكلام . ولا سبيل لتعليم بدون قراءة وكتابة ، والصورة الذهنية لكلمة أكثر ارتباطا برسمها منها بنطقها .

وقديما قال فولتير إن « الكتابة صورة الصوت ، كلما كانت أكثر شبها به كانت خيرا » ، فالكتابة المثلى هى التى لا تدل بالحرف على أكثر من صوت ، ولا تضع للصوت الواحد أكثر من حرف ، ولم نصل إليها فى لغة ما . ففى اللغات الحية جميعها ما يكتب ولا ينطق ، وما ينطق ولا يكتب ، وفيها حروف تؤدى عدة أصوات ، وأصوات تؤدى بعدة حروف ويزيد الأمر تعقيدا تفنن بعض النحاة والصرفيين ، وبعض المخلفات التاريخية التى قضت بكتابة كلمات على وجه معين دون أن يتصل ذلك بنطقها الحديث . وكلما اتسعت مسافة الخلف بين اللغة الدارجة والفصحى ، تعقدت مشكلة رسم الحروف . ويحاول المصلحون دائما تدارك هذا النقص ، وكثيرا ما تعذر عليهم ذلك ، تحت ضغط العرف والتقاليد ، ولأن لغة النطق أسرع تطورا فى حين أن لغة الكتابة أكثر محافظة .

والخط العربى نبطى الأصل ، يشبه الكتابة النبطية فى رسمها ، واتخاذ شكلين للحرف فى أول الكلمة وآخرها ، واستعمال الفواصل ، وربط الحروف بعضها ببعض ، نشأ ونما فى الحجاز حيث التجارة والحضارة والسيادة ، ثم انتقل إلى أجزاء الجزيرة الأخرى . وكانت حروف الهجاء ثمانية وعشرين ، مرتبة فى أغلب الظن على حسب الترتيب الأبجدى . وقد حث النبى الأمى على تعلم الكتابة ، وقبل أن يفتدى أسرى بدر أنفسهم بأن يعلم كل واحد منهم عشرة صبيان مسلمين الكتابة ، وكان للوحى كتاب كثيرون . ولكن الكتابة لم تنتشر إلا بعد أن مصرت الأمصار ودونت الدواوين ، وتبارى الخطاطون فى إجادة الخط ، وكان منهم الوزراء والمحدثون والمؤرخون ، وتفننوا فيه فجعلوا منه نسخا ، وثلثا ، ورقعة ، وكوفيا ، وفارسيا ، وأصبح فى مقدمة الفنون الجميلة العربية ، ودبجت به المصاحف ، وزينت الحوائط والسقوف ، وأعدت منه لوحات آية فى الجمال . وتنافس الملوك والأمراء فى أن يتوفر لديهم أحسن الخطاطين ، وأن يقتنوا أروع ما أنتجوا . ولم يقف الخط العربى عند جزيرة العرب وحدها ، بل امتد إلى بلاد أخرى فى آسية وإفريقية وأوروبة ، وسار مع الإسلام أينما سار . فاستعمله الفرس والترك والهنود والملايو والمصريون والمغاربة ولغات مختلفة من إفريقية ، ويكاد يصعد عدد الشعوب التى تستخدمه إلى نحو ٣٠٠ مليون نسمة .

ومنذ عهد مبكر ظهر أن الحروف وحدها لا تكفى فى التعبير عن الأصوات وضبط النطق ، خصوصا بعد أن اختلط العجم بالعرب وضعفت السليقة ، وبدأت تبعد المسافة بين اللغة الدارجة والفصحى . والعربية لغة إعراب ، يتغير فيها معنى الكلمة بل ومعنى الجملة بتغير النطق ، وكم تحدث أبواب الفعل الثلاثى ومصادره من لبس ، وقد تختلط الأسماء المبنية والمعربة والمصروفة والممنوعة من الصرف فالتجىء إلى الشكل بوضع نقطة فوق الفتحة ، ونقطة أسفل للكسرة ، ونقطة على شمال الحرف للضمة ، وأهمل السكون ، ثم تحولت هذه النقط إلى حروف صغيرة ، ولوحظ كتابتها بلون غير لون الحروف نفسها . وزيادة فى الضبط

وتفرقة للحروف المتشابهة رسما بعضها عن بعض استخدم الإعجام فنقطت الجيم والخاء مثلا وأهملت الحاء ، وعلى أساس هذا الإعجام رتبت حروف الهجاء على النحو المألوف اليوم . وعلى هذا عدل الخط العربى وهذب وضبط ، تبعا لحاجات العصر ومقتضياته .

ولاشك فى أن رسم المصحف وضبطه كان الشغل الشاغل ، ولم يحس أبو بكر وعثمان عند جمعهما للقرآن بحاجتهما إلى نقط أو شكل ، ولكن ما لبث المسلمون أن تبينوا ضرورة ذلك . وكتب القرآن برسم أريد به أن يكون تعبديا ، وإن لم يتفق مع الهجاء وقواعد الإملاء . وأصبح أثرا تاريخيا اجتمع لنا به كتابتان : إحداهما قرآنية والأخرى غير قرآنية ، وزاد الأمر تعقيدا قواعد رسم الهمزة والألف اللينة التى يلاقى المبتدئون من التلاميذ عنتا شديدا ، بل والمنتهون . وهناك أعلام وكلمات أعجمية معربة تشتمل على أصوات لا وجود لها فى العربية ، وكثيراً ما خالط العرب فى نطقها ، ولعل ابن خلدون من أقدم من تنبهوا إلى ذلك وحاولوا معالجته ، وفيما عداه لم تلفت هذه الصعاب النظر ، وبقيت الكتابة العربية وكأنها براء من كل عيب لها قداسة تحول دون التفكير فى تهذيبها وإصلاحها .

٦ — وفى أخريات القرن الماضى أثيرت صعاب الكتابة العربية ، على غرار ما أثير حول الكتابة الفرنسية والإنجليزية فى الغالب ، لا سيما وقد بعدت الشقة بين الدارجة والفصحى بعدا دفع فريقا من الناس إلى الدعوة إلى العامية والانتصار لها . وفوق هذا فى إصلاح الكتابة استجابة لمقتضيات تعليم الشعب ومحاربة الأمية ، ذلك لأن الكتابة لم تعد بعد وقفا على ارستقراطية فكرية أو اقتصادية كما كانت فى الماضى ؛ بل أضحت حقا مقررا للجميع ، وينبغى تيسيرها ما أمكن ، والناس عادة أمام الإصلاح فريقان : محافظون يرون أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ؛ ومجددون يلاحقون سير الزمن . وهؤلاء بدورهم متطرفون يأبون إلا أن يقطعوا الشوط دفعة واحدة ، أو معتدلون يذهبون إلى أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة ، ولا بد أن يسير الإصلاح فى تدرج وهوادة .

ولقد صادفتنا فى نصف القرن الماضى مشاكل لغوية متعددة وفى مقدمتها — دون نزاع — مشكلة الكتابة التى كانت ولا تزال محل أخذ ورد.

وقدمت لها حلول شتى تتلخص فى اتجاهين رئيسيين يرمى أحدهما إلى إحلال اللاتينية محل الكتابة العربية ، ويحاول الآخر أن يعد لها على نحو يعالج ما فيها من غموض أو لبس . وليس القول بالحروف اللاتينية جديدا ، فقد عرض فى أخريات القرن الماضى ، وأكده داود الحلبى فى العقد الأول من هذا القرن ، وشجعت عليه تجربة الأتراك وإن اختلف وضع لغتهم كثيرا عن العربية . وظهر فى هذا العام كتاب « يارى » ، الذى شاء به الأستاذ سعيد عقل أن يطبق الحروف اللاتينية على الكتابة العربية تطبيقا عمليا . ولكن أحدا لم يدرس هذا الموضوع دراسة المرحوم « عبد العزيز فهمى » عضو مجمع اللغة العربية ، وليس فى مكنة كثيرين أن يدافعوا عنه دفاعه ، ومع ذلك لم يحظ بالقبول .

والواقع أن « مجمع اللغة العربية » عنى منذ ربع قرن بتيسير الكتابة العربية وأعد جائزة مالية لأحسن اقتراح فيها . ووصلته عشرات الاقتراحات التى قضى زمنا فى بحثها ، ولم يرتض واحدا منها . وفى مقدمة ما عرض عليه مشروع « عبد العزيز فهمى » الذى وقف عليه دورة كاملة من دورات مؤتمره ، ودون أن ندخل فى تفاصيله ، نكتفى بأن نشير إلى أنه لا يقنع بمجرد إبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، بل يلاحظ أن هناك أصواتا خاصة بالعربية ويحاول أن يؤديها بحروف لاتينية مركبة على ما صنع المستشرقون من قبل . وإذا كنا « نفهم لنقرأ » على غير ما ينبغى ، فهو يزعم أن مشروعه ينتهى بنا إلى الوضع السليم وهو أن « نقرأ لنفهم » ، وهو بهذا يصوب إلى معالجة مشكلتى الكتابة والقراءة معا . ولقد رد عليه داخل المجمع وخارجه ، ومن أهم ما أخذ على اقتراحه أنه يقطع الصلة بالماضى ، لمستقبل غير موثوق به . فإن الحروف اللاتينية لا تتلاءم مع طبيعة العربية لغة الإعراب والصرف ، هذا إلى أنها أقل اختزالا من الحروف العربية وتشغل حيزا أكبر ، ونحن نعيش فى عصر السرعة ، ولها أخيرا صعوباتها ، وليس ثمة كتابة تخلو من صعوبات . وما صنعه الأتراك لا يقاس عليه لأن لغتهم أضيق مجالا وأقل استعمالا ، وماضيها لا يذكر فى شىء بجانب

ماضى اللغة العربية ، وليست لها كتابة خاصة بها تحاول العدول عنها . وجاء أخيرا كتاب « يارى » دليلا عمليا على أن التجربة اللاتينية غير ناجحة ، فإنه لا يقرأ ولا يفهم قبل أن يعرب .

أما المقترحات الأخرى فتبقى كلها على الحروف العربية معدلة رسمها ، أو مدمجة للشكل كما هو فى جسم الحرف ، أو مستعملة حروف العلة بدلا منه . ولم يكن غريبا أن يرفض كل هذا ، لأنه فضلا عما فيه من تنكير لا يحقق شيئا من التيسير .

واستمر المجمع يقلب الأمر على وجوهه ، وآثر أن يدع موقتا الكتابة اليدوية ، ويشغل خاصة بحروف الطباعة والآلات الكاتبة . وتبين له أن فى الإمكان اختصار صور الحروف بتمثيل الحرف بصورة واحدة ما أمكن على اختلاف مواقعه من الكلمة ، مع الاحتفاظ بطبيعة الخط العربى وفنه وتجنب المباعدة بين القديم والجديد . ولم يفته أن يعالج صور الهمزة وكتابة الأرقام وعلامات الشكل والترقيم ، وأدخل عليها كثيرا من الاختصار والتحسين . وانتهى إلى طريقة تهبط بصور الحروف ولواحقها للجمع المشكول شكلا كاملا إلى ١٣٥ ، بعد أن كانت تتراوح بين ٣٠٠ و ٤٧٠ بحسب الجمع الآلى واليدوى .

وهذا ولا شك اختصار يوفر كثيرا من الجهد ومن المال ، وبه يصبح صندوق الطباعة العربية قريبا من صندوق الطباعة بالحروف اللاتينية التى يبلغ عددها ١١٥ . وقد طبقت هذه الطريقة بالفعل فلم تستنكرها العين ، ولم تخل من الجمال . وأساسها خط النسخ المستعمل فى الطباعة ، والمألوف لدى كل من يكتبون بالعربية .

وتيسيرا للقراءة رأى المجمع أن يلتزم الشكل فى كتب مراحل التعليم العام على درجات متفاوتة وفى حدود قواعد واضحة ، وأن يوضع فى مكان ثابت من الحرف تألفه العين ولا يختل به توازن السطور ، وأن يوضع النقط موضع ثابت نفيا للاشتباه .

وكم دعا المجمع إلى تيسير النحو والإملاء ، ووضع فى ذلك مشروعات محددة . ونادى من قديم بوضع علامات للدلالة على أصوات الحروف التى لا مقابل لها فى العربية ، وحاول رسم طريقة لكتابة الأعلام الأجنبية . ودعوات كهذه إن لم تستجب اليوم، فهى آخذة طريقها لا محالة، ومن يدرى فقد يكون فى تيسير الكتابة المقترح ما يؤدى إلى اختصار أعظم ، أو ما ينتهى إلى كتابة الحروف منفصلة بحيث لا تأخذ إلا شكلا واحدا ؟ وهناك اتجاه عام يؤثر التدرج ويأبى الطفرة ، لأن من الخير أن يربط الحاضر بالماضى . وابتكار طريقة جديدة للكتابة إن فرض على شعب بوسيلة ما ، فلا سبيل لتطبيقه على شعوب أخرى لا تقره . ونحن جميعا عبيد الألف والعادة . ولا نزاع فى أن الجماعات والأفراد تخضع لهما أكثر مما تخضع للعقل والمنطق .

العربية
بين اللغات العالمية الكبرى

سيداتى ، سادتى :

لقد دعيت إلى هذا اللقاء منذ بضع سنوات فى أعقاب محنتنا الكبرى ، ولا أكتمكم أنى ترددت طويلا فى الاستجابة ، لأنى وددت أن يكون لقاؤنا فى جو أهدأ وظروف أسعد . ولكن أبى الله إلا أن يطول ليلنا وتتوالى محننا ، ونغزى فى عقر دارنا ، ونبتلى بخزى على إثر خزى . ويوم أن وقفت على أحداث بيروت فى الأسبوع الثانى من هذا الشهر ، ترددت مرة أخرى ؛ وتساءلت : هل للغة القلم الآن محل إلى جانب لغة السيف والمدفع ؟ ولولا تكرر معاذيرى لطويت صحفى ، وأعفيتكم من هذا الحديث . ومما يهون علىّ أنه حديث حول العربية التى بها نعتد ، ومن أجلها نعمل .

ويسعدنى أن يدور هذا الحديث فى بيروت ، وقد أضحت منارة كبرى لبث أضواء العربية وإشعاعها شرقا وغربا . تخرجها فى ثوب أنيق جذاب ، وتقدم الكتاب العربى فى صورة شيقة يباهى بها بين الكتب الأجنبية المختلفة . وهأنتم أولاء تغذون قراء العربية فى العالم بأسره وأشهدكم أنى زرت الشرق الأقصى منذ عامين أو يزيد ، ولاحظت أن مطبوعاتكم تصل إليه فى يسر ، وتزين واجهات مكتباته فى العواصم الكبرى . وتستعين بكم أوربا وأمريكا فى إخراج بعض ما تحتاج إليه من مطبوعات عربية .

(*) كلمة ألقيت فى الموسم الثقافى لجامعة بيروت العربية عام ١٩٧٣ .

سيداتى ، سادتى :

لعلكم تعلمون أنه لم يكن فى العالم باسره ، فيما بين القرنين الثامن والسادس عشر الميلادى إلا لغتان يكتب بهما العلم والفلسفة ، وهما العربية فى الشرق واللاتينية فى الغرب . وقد اصطنع العربية كتاب وباحثون من أجناس مختلفة : مغول وبنغاليون ، أتراك وأكراد ، فرس وعرب ، آسيويون وأفريقيون . وانضم إليهم عدد غير قليل من أهل أوربا فى صقلية والأندلس ، بهرتهم الثقافة الإسلامية وأعجبوا بعلمها وفنها . تبحّر هؤلاء فى العربية وجوّدها ، وكتبوا فى فنون شتى : من تفسير وحديث ، فقه وتوحيد ، أدب وسياسة ، تاريخ وجغرافيا طب وكيمياء ، فلك وتنجيم ، موسيقى ورياضيات . والتراث العربى صنيع هؤلاء جميعا دون تفرقة بين جنس أو وطن ، بل دون تفرقة بين دين ودين ، فأسهم فيه بعض المسيحيين واليهود ممن اتسع لهم صدر الإسلام ، وعاشوا إلى جانب المسلمين إخوة فيما بينهم . وقد حرصت اللاتينية على أن تتغذى من هذا التراث ، وقضت نحو قرنين أو يزيد تنقل عنه وتترجمه . فترجمت قدرا من كيمياء جابر بن حيان (٧٧٦) وأبى بكر الرازى (٩٤٥) وعنيت برياضيات الخوارزمى (٨٤٤) ، وبصريات ابن الهيثم (١٠٣٩) ، وفلك البتانى (٩٢٩) والبتروجى (١٠٨٥) ، وطب ابن زهر (١٠٦٢) وعلى بن رضوان (١٠٦٧) إلى جانب ما أخذت عن كبار الفلاسفة من طب وفلسفة . وبذا كانت العربية واللاتينية لغتين عالميتين عملا ، قبل أن يعرض الباحثون لفكرة اللغة العالمية ، وما ينبغى أن تقوم عليه من شروط وأوضاع .

والواقع أن هذه الفكرة من صنع التاريخ الحديث ، وجه إليها ما طرأ فى أوربا من بلبلة لغوية على إثر نشأة القوميات وظهور لغات أوربية حديثة . ومنذ القرن السابع عشر أخذ الباحثون يتحدثون فى جد عن اللغة العالمية ، تنبه إليها ليبنتز (١٧١٦) بوجه خاص ، بعد أن رأى أن لغة العلم أخذت تتبلبل بتعدد اللغات الأوربية الحديثة . وقد كان الفلاسفة والعلماء الغربيون يلتقون من قبل عند اللاتينية وأظنكم تعرفون أن بعض المتخصصين استمروا يستخدمونها حتى القرن الماضى ، ومن بين الكتب العربية الأمهات التى ترجمت فى هذا القرن ما حرص مترجموه على أن يؤدوه باللغة اللاتينية كى تكون فى متناول كبار الباحثين . وقد فكر ليبنتز أولا فى جمع « ألف باء » الفكر الإنسانى ، وحصر

الأفكار البسيطة والمركبة . وإذا ما تم له ذلك ، وضع لكل فكرة رمزا يعبر عنها ويدل عليها . ويوم أن يتفق العلماء على هذه الرموز ، تصبح لغتهم المشتركة التي يتفاهمون بها ، ويلتقون عندها . وإذا كان لم يقدر له أن يكوّن هذه اللغة المنشودة ، فإنه وجه النظر إلى فكرة اللغة العالمية التي شغل بها كثيرون من بعده .

وقد عني بها فعلا عدد غير قليل من الباحثين في القرن التاسع عشر ، وعلى رأسهم طبيب روسي اقترح لغة « الاسبرنتو » التي قدر لها أن تصادف نجاحا لدى كثير من الهيئات العلمية . ولا تزال جمعيات لغوية وفيلولوجية تعالج مشكلة اللغة العالمية ، وتدلي فيها بمقترحات ظهر منها في النصف الأول من هذا القرن ما يزيد على ٥٠ مقترحا . ومن أهم هذه المقترحات ما ذهب إليه رياضي وفيلسوف فرنسي معاصر انتزع في الحرب العالمية الأولى ، وهو كوتورا (Couturat) الذي ألمّ بأطراف الدراسات اللغوية المقارنة إلى جانب تبحره في المنطق والرياضة وكان يرمي إلى تهذيب « الاسبرنتو » ، وتكوين « الإيدو » تلك اللغة الدولية التي تفرض نفسها على جميع العقول والشعوب ، وقد أخذ يبحث عن أصول عامة يمكن أن تتخذ أساسا للغة دولية ، وحاول فعلا أن يكوّن هذه اللغة وأن يعد لها نحوها الخاص ، ووضع فيها معجما مستقلا . ويظهر أن الجمعية الفلسفية الفرنسية شاءت في أوائل هذا القرن أن تدفع هذه اللغة إلى الأمام ، وأن تنشرها بين الباحثين ، فأقرتها في معجمها الفلسفي الذي أخرجه أندريه لالاند .

ويلحظ في اللغة العالمية بوجه عام أن تقوم على أبجدية قليلة الحروف ما أمكن ومفردات محدودة تفي بالغرض دون تكرار أو ترادف ، ونحو مطرد ميسر وهجاء سهل ، وكتابة واضحة . وهي بهذا لغة مثالية لم تتحقق بعد ، والواقع أن فكرتها ليست مسلمة من الجميع ، وهناك من عارضها معارضة شديدة . وفي مقدمتهم علماء الاجتماع الفرنسيون ، وعلى رأسهم « دركايم » ، فهم لا يسلمون بذلك المنطق الإنساني الذي يقود إلى لغة عالمية ، وقرروا أن هناك أسرا لغوية بقدر ما هنالك من مجتمعات بشرية . والحقيقة أن اللغة العالمية على النحو الذي صورها به كوتورا إن صلحت لبعض الدراسات والتخصصات كالمنطق والرياضة ، فإنها لا تصلح للمجتمعات الفسيحة . وهي على كل حال لغة

مصطنعة ، ولغة الجماهير لا تفرض فرضا ، ولا تصنع صنعا ، ولا بد لهذه الجماهير أن تضع لغتها بنفسها ، وأن تتصرف فيها بحسب ظروفها وحاجاتها .

ومهما يكن من أمر فهناك لغات يتخاطب بها عدة دول ، ويتفاهم بواسطتها عدة شعوب وهى أشبه ما تكون باللغة العالمية . وقد قضت الفرنسية نحو قرنين أو يزيد ، وهى لغة السياسة والدبلوماسية فى العالم بأسره . وتعد الإنجليزية اليوم لغة المال والأعمال بوجه عام ، وقد مكنت لها الحرب العالمية الثانية كثيرا . وأيدتها الولايات المتحدة كل التأييد ، ولها استعمال شائع فى الشرق والغرب وهى اللغة الرسمية لمئات الملايين من الناس . وسبق لى أن أشرت إلى أن العربية كانت فى الماضى لغة عالمية عوّلت عليها عدة شعوب وأجناس ، ثم ضاقت رقعتها ، وزاحمتها لغات أخرى فى العالم الإسلامى جميعه بل فى العالم العربى أيضا . ولست فى حاجة أن أشير إلى أن الاستعمار بوجه خاص صوب إليها سهاما قاتلة حاربها فى المعهد والمدرسة ، وأبعدها عن ميادين النشاط الإدارى والسياسى والمالى والتجارى . وحاول المستعمرون أن يحلوا محلها لغاتهم ، وبذلوا فى ذلك جهودا طائلة ، وكلما طال مكثهم فى بلد اشتد هدمهم وقوى أثرهم . وأذكر أنى زرت الهند بعد الاستقلال بسنوات ، وأثيرت مشكلة اللغة القومية ، وأحسست من كبار مفكرى الهنود أنفسهم أن الأمر ليس باليسير الهين وعلى عكس ذلك كان الباكستانيون جادين فى أن يحيوا أرديتهم وأن يضيفوا إليها العربية وطلبوا إلى مصر أن تعاونهم فى ذلك وكم لاقت العربية فى وطنها من بطش المستعمر وجبروته ، وبخاصة فى شمال أفريقيا ، ولكنها جالدت وصمدت .

ومنذ النصف الأخير من القرن الماضى أخذت تستعيد مجدها — وتجدد نشاطها . وتكاد تبارى العربية المعاصرة العربية القديمة ، مفرداتها فى صقل وتهذيب ، وإحكام ودقة ، ونمو وتكاثر ، وجملها فى تنوع وتجديد ، ويسر وسهولة ، وظرف ورشاقة ، فى شعرها خيال بديع ، ونسيج محكم ، ووحدة متصلة ، وتصوير خلاب لخلجات النفس وآيات الطبيعة وظواهر المجتمع ، وبين الشعراء المعاصرين فحول لا يقلون عن شعراء العصر العباسى الأول . وفى نثرها تحرر وانطلاق ، ولين ورقة ، ومنطق وتحليل ، وأفكار ومعان ،

لا مجرد صيغ وعبارات . وفيه أيضاً ألوان جديدة كالقصة والرواية ، والمقالة والبحث ، وبين كتاب اليوم من يذكرنا بعبدالحميد وابن المقفع ، أو بالجاحظ ومحمد بن عبدالملك الزيات ، وأمامنا عربية عصرية ، حية متجددة ، تحاول أن تواجه حاجات العلم ومتطلبات الحضارة .

وإنتاجها فى جملته غزير ومتنوع ، قومى وإنسانى ، تضافرت عليه جهود مختلفة ، وبيئات ثقافية متعددة فى أفريقيا وآسيا ، وآزرها نفر من العرب والمستعربين فى أوربا وأمريكا . وفى وسعنا أن نقرر أن قسطاً من أدبنا المعاصر يسمو إلى مرتبة الآداب العالمية الكبرى ، وبدىء فى ترجمته والأخذ عنه ، ويكتب العلم والفلسفة والفن والتكنولوجيا اليوم بلغة عربية فصيحة . وتدرس هذه المواد كلها باللغة العربية فى المدارس الابتدائية والثانوية ، بل فى كثير من الجامعات والمعاهد العليا ، وها نحن أولاء نعرّب العلم بانتظام ، ونتوقع تبادلا أتم واتصالا أوثق بين الأدب العربى والآداب الأخرى، وإنا لنرى القصة أو الرواية الأجنبية تترجم اليوم إلى العربية ، ولما يمض بضعة أشهر على تأليفها فى لغتها الأصلية . ولن يستبعد مثل هذا على بعض إنتاجنا الأدبى ، وبين دور النشر الأجنبية ما يسعى جاهدا إلى ترجمة بعض نفائسنا العربية المعاصرة . ولا شك فى أن المؤتمرات الأدبية والعلمية تزيد هذا الاتصال وثوقاً وتأكيدا ، وما أحوجنا أن نكثر منها ، ونجعلها عربية ومختلطة ، كى نفتح النوافذ على مصراعيها ، ونجدد الهواء والفكر من حين لآخر ، وعالم الثقافة ، من حسن حظ الإنسانية ، أوسع صدرا من عالم السياسة والاقتصاد .

وفى وسع العربيـة أن تبسط نفوذها مرة أخرى ، وأن تمتـد إلى بيئات ومجتمعات جديدة فى آسيا وأفريقيا . وقد سبق للخط العربى أن انتشر فى بلاد كثيرة فى آسيا وأوربا وأفريقيا ، وسار مع الإسلام أينما سار ، فاستعمله الفرس والترك ، والهنود والملايو ، المصريون والمغاربة ، الشاميون والعراقيون ، ولغات مختلفة فى أفريقيا ويكاد يصعد عدد الشعوب التى تستخدمه إلى نحو ٣٠٠ مليون نسمة ، ولم يعدل عنه الترك ولا الملايو إلا أخيراً . وقد أشرت من قبل إلى أن باكستان فى بدء استقلالها ، اتجهت نحو العربية ، وودت أن تصبح لغتها الوطنية ولو قدر لها أن تسير فى هذا الطريق لخطت فى ربع القرن الماضى خطوات يعتدبها ،

وبين الأردية — لغتها — والعربية وشائج قديمة . ونعتقد أن أندونيسيا ترحب بنشر العربية فى ربوعها ، لو يسر لها ذلك ، وفى أفريقيا مشاكل لغوية معقدة ، وكم يسعى اليونسكو وراء حلها ، ويسلم بأن للعربية شأناً فى هذا الحل ، وقد كتب إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة محاولا الاستعانة به فى ذلك . وهناك دول أفريقية حديثة فى بلبلة من أمر لهجاتها المتعددة ، وفى وسع العربية أن تحل محل كثير من هذه اللهجات ، برغم النزعة الإنجلوسكسونية أو الفرنكوفونية التى تلقى بعض الأنصار والمؤيدين ، ولجامعة الخرطوم جهود فى هذه الناحية لدى بعض البلاد الإسلامية المجاورة . وقد استطاعت اللغة السواحلية منذ زمن أن تكون همزة وصل بين كثير من شعوب أفريقيا وقبائلها ، وهى لغة تربطها بالعربية صلات معروفة .

ولا سبيل لانتشار لغة إلا إذا كان فى طبيعتها ما يعين على ذلك ، وأبجدية العربية محدودة الحروف ، لا تزيد فى عددها عن أبجدية الاسبرنتو . وأصواتها تكاد تكون شاملة ، بحيث تواجه مخارج الحروف كلها تقريبا فى اللغات الأخرى . ومفرداتها غزيرة ، ولكن كثيرا ما يختلط فيها المهمل بالمستعمل ، والغريب بالمألوف . وليس بعزيز أن يختار قدر منها يلائم مطالب الحياة الحاضرة ، ويضم فى معجمات خاصة . ونحن نعلم أن الألفاظ المتداولة فى حديث فرد أو كتابته أقل كثيراً من مادته اللغوية . ولا شك فى أن معجمات كهذه تيسر تعلم العربية على الأجانب ، وتساعد على نشرها فى بيئات لا عهد لها بها . ويؤم بعض الجامعات العربية الآن فى العراق ، ومصر ، وتونس والمغرب عدد غير قليل من طلاب العلم الذين ليسوا من أصل عربى ، وواجبنا أن نيسر مهمتهم ونطوع لغتنا لهم . وقد وضعت فى ربع القرن الأخير معجمات عربية مختصرة ، تقف عند الكلمات الكثيرة الورود والذائعة الاستعمال .

وفن المعجمات فى تطور مستمر ، وقد خطا خطوات فسيحة فى القرن التاسع عشر وطوال هذا القرن . وفى العربية ثروة طائلة من المعجمات اللغوية القديمة ، ولكنها فى حاجة إلى تجديد وتهذيب . والمعجم أداة بحث ومرجع سهل ، فينبغى أن يكون واضحا ودقيقا ، محكم الترتيب ، والتبويب دعامة أولى فى وضوح التأليف المعجمى ، وأبسط الأمور أن ترتب الكلمات على

حسب نطقها ، لا على حسب تصريفها . ومن اليسير تطبيق ذلك على العربية ولكن فى حدود المادة ، لأنها لغة اشتقاقية ، وهذا ما أخذ به مجمع القاهرة فيما أخرجه من معجمات . ومما يزيد المعجم وضوحاً جلاء شروحه وتعاريفه ، فتكتب بلغة سهلة ، وتصاغ فى عبارة دقيقة ، والرسوم والصور من خير وسائل الإيضاح . وينبغى أن يساير المعجم تطور اللغة وما أدخل عليها من لفظ حضارى ومصطلح علمى ، ولدينا اليوم معجمات تحقق الكثير من ذلك . وفن الإخراج وسيلة هامة من وسائل نشر المعجم ، وتحبيب القراء فيه ، وقد برعنا هنا فى ذلك وجوّدناه .

والمصطلح العلمى أداة البحث ، ولا حياة لعلم بدونه . وقد نمت لغة العلم فى العربية قديماً بنمو العلوم وتقدمها ، بدأت فى القرن الأول للهجرة ، ثم أخذت تزيد وتتطور على مرِّ الزمن . وما إن جاء القرن الرابع حتى اكتملت واستقرت ، وتبادلها الباحثون فى المشرق والمغرب ؛ لم تختلف من قطر إلى قطر ، فكانت لغة العلم واحدة فى قرطبة والقيروان ، فى الفسطاط ودمشق فى بغداد وأصبهان ، وسجلت فى معجمات خاصة . ويوم أن ركد البحث العلمى ركدت لغته معه ، فجمدت المصطلحات وذهبت الأصالة والابتكار . ثم جاءت النهضة العلمية العربية الحديثة ، فحاولت أن تتدارك ما فات ، وأخذت تكون لغتها من جديد ، مستعينة بالدراسات الجامعية من جانب ، وبالمجامع والهيئات اللغوية والعلمية من جانب آخر .

ونستطيع أن نقرر أن لدينا لغة علمية عربية واضحة فى كثير من أبواب البحث والدراسة ، فالعلوم النظرية من قانون واقتصاد وسياسة ، وتربية وعلم نفس ، وأخلاق وفلسفة تدرس ويؤلف فيها بلغة عربية حديثة . والعلوم العملية من هندسة ومساحة ، وفلك وجيولوجيا وكيمياء وطبيعة ، وصيدلة وطب تبذل فى تعريبها جهود ملموسة . وسيؤدى العلم العربى رسالته ، ويسهم فى كشف المجهول إلى جانب الجهود التى تبذل فى البلاد الأخرى .

ولم يصادف نحو من العناية ما صادف النحو العربى ، تعددت مدارسه بين بصرية وكوفية ، بغدادية وأندلسية . ووضعت فيه كتب شتى بين منثور ومنظوم ، وهو دون نزاع أثر رائع من آثار العقل العربى . لم يرق إلى مستواه واحد من نحو اللغات القديمة ، لا فى اليونانية واللاتينية بين اللغات

الهندو أوروبية،ولا فى السريانية والعبرية بين اللغات السامية ، إلا أن فيه توسعاً زائداً وفلسفة إن لاءمت الخاصة فإنها لا تلائم العامة، وكانت موضع نقد وملاحظة من قديم ، وكثيراً ما كانت العلل النحوية مثار فكاهة وتنادر . واقترنت النهضة العربية الحديثة بالمطالبة بتخليص النحو من فلسفته وتقديمه فى ثوب أيسر وأصفى ونحن لا ننكر على المتخصصين أن يتعمقوا فى دراسة النحو ما شاءوا ، ولكن باسم التعليم العام والثقافة الشعبية لابد لنا أن نيسر النحو ، ونقف بقواعده عند حدود ضيقة تلائم شباب المتعلمين . ونحو اللغات الحديثة يسلك هذا المسلك ويميل إلى الاختصار ، وطلاب الإنجليزية يشعرون بأن ليس ثمة صعوبة فى تدريس أجروميتها . ولكى تستكمل العربية أسباب انتشارها وتتوافر لها شرائط اللغة العالمية ، ينبغى أن تتخير من قواعد النحو المطرد وما يسهل حفظه وتلقينه .

ولبعض المربين وأساتذة النحو المصريين محاولات متصلة فى هذا الباب منذ أوائل هذا القرن ، بدأها حفنى ناصف فى كتاب « قواعد اللغة العربية » وتوسع فيها على الجارم فى كتاب « النحو الواضح » وتلتها جهود متلاحقة ، من أحدثها كتاب التجديد فى اللغة العربية للثانوية العامة ، وفيه قدر من قواعد النحو والصرف ، وهو ثمرة جهود نخبة من المدرسين وشغل مجمع القاهرة بتيسير النحو منذ ثلاثين سنة تقريباً وانتهى فيه إلى قرارات تصلح أساساً لكتاب مدرسى ميسر . وأصبحنا نؤمن بأن النحو لغير المتخصصين ليس علما يقصد لذاته ، وإنما هو وسيلة من وسائل تقويم اللسان والقلم ، ورحم الله أبا العلاء الذى قال : « لا يسخط الله عليك ولا الملكان، إذا كنت لا تدرى لماذا ضمت تاء المتكلم وفتحت تاء الخطاب » .

وبقيت أخيراً مشكلة الكتابة العربية ، وقد أثيرت منذ أخريات القرن الماضى ، واشتد الجدل حولها فى النصف الأول من هذا القرن، ولا تزال تثار حتى اليوم وإن كانت فقدت كثيراً من عنفها وشدتها. ولعل لعدول الأتراك عن الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية شأنا فى طول الأخذ والرد فيها . وقد وجهت إلى الكتابة العربية انتقادات شتى . واختلطت مشكلتها بمشكلة القراءة ، وكثيراً ما رددت عبارة قاسم أمين المشهورة :« أنقرأ لنفهم أم نفهم لنقرأ؟» وغلا بعض النقاد فعد الكتابة العربية « الكارثة الحالة بلغتنا » .

وعرف فولتير الكتابة بأنها « صورة الصوت ، وكلما كانت أكثر شبها به كانت أكمل » والكتابة المثلى هى تلك التى لا تضع للصوت الواحدإلا حرفاً واحدا ، ولا تدل بالحرف إلا على صوت واحد ، ولا نكاد نصل إليها فى لغة ما ، ففى اللغات الحية ما يكتب ولا ينطق به ، وما ينطق ولا يكتب وفيها حروف تؤدى عدة أصوات ، وأصوات تؤدى بعدةحروف . ويزيد الكتابة تعقيدا تفنن النحاةوالصرفيين فى قواعد الاشتقاق ورسم الحروف ، وهناك مخلفات تاريخية وكتابات مقدسة لاتمس وحاول المصلحون تدارك ذلك حاولوه فى الفرنسية كما حاولوه فى الإنجليزية ، وكثيراً ما تعقد الأمر عليهم تحت ضغط العرف والتقاليد . ويمكن أن تعد الكتابة الإنجليزية من أبسط الكتابات ، وبخاصة بعد ذلك التيسير الذى أدخله عليها الأمريكيون ومع ذلك لا تزال لها عقدها وصعوباتها .

وترددت الدعوة إلى إصلاح الكتابة العربية فى كثير من الأقطار ، وأسهم فى معالجتها أفراد وجماعات . ووقف عليها مجمع القاهرة عام ١٩٤٤ دورة كاملة ، وناقش طويلا فكرة الحروف اللاتينية ، ورفضها رفضاً باتا ، وأعلن عن جائزة كبيرة لأحسن اقتراح فى تيسير الكتابة ، وقدم إليه نحو ٢٠٠ مقترح قضى زمنا طويلا فى بحثها والحكم عليها ، ولم يقدر لواحد منها أن يصادف نجاحا والواقع أنه اقترحت حلول شتى لهذه المشكلة ، ويمكن أن تلخص فى اتجاهين أساسيين ، يرمى أولهما إلى تعديل الحروف الحالية لتدارك ما فيها من نقص أو غموض ، ويحاول الثانى اختراع حروف جديدة تحل محل الحروف القديمة ويدخل فى هذا الباب إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، أسوة فى الغالب بما صنعه الأتراك ، وقد شاعت هذه الموجه فى الثلث الأول من هذا القرن . ويدهشكم أن تعلموا أن شيخا من شيوخ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ممن عرفوا بالأصالة والاعتداد بالأمجاد السالفة قد تعصب لهذه الموجة وهو المرحوم عبد العزيز فهمى الذى دافع عنها طويلا أمام مجمع الخالدين دون جدوى . وقدنحانحوه الأستاذ سعيد عقل الذى أخرج منذ خمس عشرة سنة تقريبا كتابه (Yara) ليطبق الفكرة تطبيقاً عملياً ، إلا أن هذا الكتاب

نفسه جاء دليلا واضحاً على أن التجربة اللاتينية غير ناجحة، فإنه لا يكاد يقرأ ولا يفهم قبل أن يعرب ، وأعتقد أن حل الحروف اللاتينية قد استبعد بتاتاً.

وبذلت فى الاتجاه الأول جهود مختلفة ، ومن أخصها التركيز على حروف الطباعة والآلات الكاتبة ، ومحاولة تيسيرها ما أمكن ، لاسيما ونحن نقرأ اليوم أكثر مما نكتب . وقد عنى مجمع القاهرة بهذه الناحية إلى جانب ما بذل فيها من جهود بالمغرب ، وانتهى إلى اختصار صور الحروف إلى أضيق عدد ممكن فمثل الحرف الواحد بصورة واحدة على اختلاف مواقعه فى الكلمة ، وخففت صور الهمزة ما أمكن ، وروئى أن تكون علامات الشكل مزاوجة لمستويات الحروف ، واقتصر فيها على ٢٣ علامة . وأقرت علامات الترقيم المستعملة من فصلة ، وفصلة منقوطة ، ووقفة ، وغيرها . وهبط بذلك صندوق الطباعة إلى ١٣٥ صورة ، فاقترب كل القرب من صندوق الطباعة اللاتينية . وتطبيقا لذلك أخرج المجمع كراسة بعنوان : « تيسير الكتابة العربية » لم تنفر منها العين واستلفتت نظر رجال المطابع ودور صنع ماكينات الطباعة والآلات الكاتبة وسبك الحروف ، ووضع هذا الاقتراح موضع البحث فى العام الماضى فى مؤتمر دعت إليه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، واشترك فيه مندوبون من البلاد العربية جميعها ، وقوبل بالارتياح والتأييد ، وسبق لدار الأهرام أن طبقته ، وقد أصبحت من أوسع الدور العربية نشراً فى صحفها ومطبوعاتها

وأما الكتابة اليدوية فلعل الأيسر والأسرع فيها أن تقف عند خط الرقعة وهذا اتجاه سائد اليوم . وبقيت الخطوط الأخرى من ثلث وكوفى وفارسى وقفا على الفنيين ، وما أجدرنا أن نبقى على هذه الخطوط وأن نأخذ بيد القائمين عليها لأنها ثمرة من ثمار الفن الإسلامى . ورأى المجمع فوق ذلك أن يلتزم الشكل فى كتب مراحل التعليم الأولى من ابتدائية وإعدادية ، وأن يحتفظ بقدر منه فى المرحلة الثانوية ، كى يعود النشء على القراءة والنطق السليم .

ويدخل الإملاء ورسم الحروف فى مشكلة الكتابة العربية ، وقد عقدناهما وبالغنا فيهما كثيرا . فشغل التلاميذ بقواعد كتابة الهمزة فى وسط الكلمة وآخرها وعجزوا عن رسم الألف اللينة وردها إلى أصلها ، وعز عليهم تبين مواضع الفصل والوصل . وللإملاء صعوبات فى بعض اللغات الحية ، إلا أنها دون

نزاع أهون من صعوباتنا . وماأجدرنا أن نذللها ، وأن نربط ما أمكن رسم الحرف بصوته ، وللقدامى فى ذلك حلول ميسرة . ولا شك فى أنا أنزلنا رسم الحروف عن عرشه ، وكان بالأمس عقبة كأداء فى طريق الناشئين . وعلينا أن نقضى على هذه الصعاب من أساسها ، توفيرا للجهد والزمن . ونحن نعيش فى زمن ليس فيه متسع من الوقت للبحث فى مشاكل الهجاء والعقد الإملائية .

سيداتى ، سادتى :

إن نحو مائة مليون نسمة أو يزيد يتخاطبون اليوم باللغة العربية ، ويتكاتبون بها ، وهم فى نمو مطرد، وعددهم هذا وحده كاف فى أن يضعها فى مصاف اللغات العالمية ، ولم ير اليونسكو بدّاً من أن يضمها أخيرا إلى اللغات الدولية التى اعتمدها . وقد برهنت العربية نفسها على حيويتها وقدرتها على البقاء ، وبدأت اللغات الأجنبية تأخذ عنها كما أخذت بالأمس . وحاولنا أن نشير فى اختصار إلى تلك الجهود المتلاحقة التى بذلت فى أخريات القرن الماضى وطوال هذا القرن للنهوض بها ، وتطويعها لمقتضيات العلم والحضارة ، وقد آتت هذه الجهود أكلها. ولا تزال أمامنا جهود أخرى لابد أن نبذلها ، وحياة اللغة بحياة أهلها . واتضح أمامنا أن لبعض الصعاب التى تعترض لغتنا أشباهاً فى لغات أخرى ، ولكل لغة صعابها . وفى وسع الناطقين بها أن يذللوها ، إن حدد الهدف . وانفسح الأمل ، وصدقت العزيمة . فى العربية حيوية ومرونة كفيلتان بأن تضعاها فى مصاف اللغات العالمية ، ومن الظلم أن يلقى الوزر عليها وحياة كل لغة بحياة أهلها ، والإنتاج الأدبى والعلمى الرفيع ثروة إنسانية تعلو على اعتبارات الجنس والوطن .

للغة قداسة تستمدها من وحى السماء ، أو من إجماع أهل الأرض . ومن أسباب قداستها أن تصبح لغة التقرب والعبادة ، أو أن ينزل بها كتاب سماوى ويضفى عليها من قداسته ، ويعكس عليها جلاله . ولا شك فى أنها ظاهرة تحظى بما تحظى به الظواهر الاجتماعية الأخرى من سلطان وتنال ما تناله من اعتداد وكرامة ، وهى فى مقدمة مقومات الأمم والشعوب .

ولقد اعتمدت العربية على هذين المصدرين ، فهى لغة الدين والدنيا والعبادة والسياسة ، بها أنزل القرآن وبها حفظ ، ونشأت حوله دراسات لغوية متنوعة . وهناك طقوس دينية لابد للمسلم أن يستخدم فيها ألفاظا وجملا عربية ، كيفما كانت لغته الوطنية . ويوم أن أخذ العرب فى بسط نفوذهم ، انتشرت العربية معهم ، فكانت تدرس فى أصبهان وشيراز ، كما كانت تدرس فى دمشق وبغداد . وظهر كتاب وشعراء بالعربية فى قرطبة والحمراء ، كما ظهروا فى القاهرة والقيروان . وأضحت لغة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، من أواسط الهند شرقا إلى جبل طارق غربا ، ومن البحر الأسود شمالا إلى المحيط الأطلسى جنوبا . وكانت لغة عالمية قبل أن يعرض المحدثون لفكرة اللغة العالمية ، ويحددوا معالمها .

إن فكرة اللغة العالمية تصعد إلى القرن السابع عشر ، تنبه إليها ليبنتز بوجه خاص ، بعد أن رأى أن لغة العلم أخذت تتبلبل بتعدد اللغات الأوربية الحديثة وقد كان الفلاسفة والعلماء الغربيون يلتقون من قبل عند اللاتينية .

ففكر فى جمع « ألف باء » الفكر الإنسانى ، وحصر الأفكار البسيطة والمركبة وإذا ما تم له ذلك ، وضع لكل فكرة رمزا يعبر عنها ويدل عليها . ويوم أن يتفق العلماء على هذه الرموز ، تصبح لغتهم التى يتفاهمون بها ، ويلتقون عندها ، وإذا كان لم يقدر له أن يكوّن هذه اللغة المنشودة ، فإنه وجه النظر إلى فكرة اللغة العالمية التى شغل بها كثيرون من بعده .

وقد عنى بها عدد غير قليل من الباحثين فى القرن التاسع عشر ، وعلى رأسهم طبيب روسى اقترح لغة « الاسبرنتو » التى قدّر لها أن تصادف نجاحا لدى كثير من الهيئات العلمية . ولا تزال جمعيات لغوية وفيلولوجية تعالج مشكلة اللغة العالمية ، وتدلى فيها مقترحات ظهر منها فى النصف الأول من هذا القرن ما يزيد على خمسين مقترحاً . ويلحظ فى اللغة العالمية بوجه عام أن تقوم على أبجدية قليلة الحروف ما أمكن ، ومفردات محدودة تفى بالغرض دون تكرار أو ترادف ، ونحو مطرد ميسر ، وهجاء سهل وكتابة واضحة . وكأنى بالفكرة تلائم بعض اللغات الخاصة كلغة المنطق أو لغة الرياضة . أما أن تطبق فى المجتمعات الفسيحة فهذا ما لا سبيل إليه ، لأن لغة الجماهير لا تصنع صنعا ولا تفرض

فرضا . ولا بد لهذه الجماهير أن تضع لغتها بنفسها ، وأن تتصرف فيها على حسب ظروفها وحاجاتها .

ومهما يكن من أمر فهناك لغات يتخاطب بها عدة دول ، ويتفاهم بواسطتها عدة شعوب ، وهى أشبه ما تكون باللغة العالمية . وقد قضت الفرنسية نحو قرنين أو يزيد وهى لغة السياسة والدبلوماسية فى العالم بأسره ، وتعد الإنجليزية اليوم لغة المال والأعمال بوجه عام . وسبق لنا أن أشرنا إلى أن العربية كانت لغة عالمية منذ عهد بعيد ، وفى وسعها الآن ألا تقف عند العالم العربى ، وأن تمتد إلى بيئات ومجتمعات أخرى فى آسيا وأفريقيا . ونذكر أن الباكستان — بعد استقلالها — اتجهت نحو العربية ، وودت أن تصبح لغتها الوطنية ، ولو قدر لها أن تسير فى هذا الطريق لحققت فى العشرين سنة الماضية خطوات يعتد بها. وبين الأردية — لغتها السائدة — والعربية وشائج قديمة . ونعتقد أن أندونسيا ترحب بنشر العربية فى ربوعها ، لو يسر لها ذلك . وفى أفريقيا مشاكل لغوية معقدة ، وكم يسعى اليونسكو وراء حلها ، ويسلم بأن للعربية شأنا فى هذا الحل . فهناك دول أفريقية حديثة فى بلبلة من أمر لهجاتها المتعددة ، وفى وسع العربية أن تحل محل كثير من هذه اللهجات ، برغم النزعة الأنجلوسكسونية أو الفرنكوفونية التى تصادف بعض الأنصار والمؤيدين . وقد استطاعت اللغة السواحلية منذ زمن أن تكون همزة وصل بين كثير من شعوب أفريقيا وقبائلها ، وهى لغة تربطها بالعربية صلات معروفة .

* * *

ولا سبيل لانتشار لغة إلا إذا كان فى طبيعتها ما يعين على ذلك . وأبجدية العربية محدودة الحروف ، وهى لا تزيد عن أبجدية الاسبرنتو ، وأصواتها تكاد تكون شاملة ، ومفرداتها غزيرة ، ولكن كثيراً ما يختلط فيها المهمل بالمستعمل والغريب بالمألوف . وليس بعزيز أن يختار قدر منها يلائم مطالب الحياة الحاضرة ، ويضم فى معاجم خاصة ، ونحن نعلم أن الألفاظ المتداولة فى حديث فرد وكتابته أقل كثيراً من مادته اللغوية ، ولا شك أن معجمات كهذه تيسر تعلم العربية على الأجانب ، وتساعد على نشرها فى بيئات لا عهد لها بها . ويؤم جامعاتنا اليوم فى مصر وبغداد عدد غير قليل من طلاب

العلم الذين ليسوا من أصل عربى ، وواجبنا أن نيسر مهمتهم ، ونطوع لغتنا لهم . وقد بذلت فى ربع القرن الماضى جهود لوضع معجمات عربية مختصرة تقف عند الكلمات الكثيرة الورود والذائعة الاستعمال ، وأسهم المستشرقون فى ذلك بنصيب ، إلا أننا لا نزال دون الغاية ، ولم نصل بعد إلى معجم ملائم تماما لنشر العربية .

وفى نحو العربية فلسفة وتوسع زائد ، وعمق إن لاءم الخاصة فإنه لا يلائم العامة ، ويمكن أن يتخير من قواعده المطرد الذى تبدو آثاره واضحة ، و يسهل حفظه وتلقينه . ولنا فى هذا محاولات متصلة منذ أوائل هذا القرن ، بدأها حفنى ناصف ، وتابعها على الجارم وتلاميذه . ويمكن أن يستخلص منها ما يتمشى مع عالمية اللغة . وفى الإنجليزية محاولات مشابهة يسرت نحوها وجعلته من الدروس الهينة . ويمكننا أن نقرر أنه لا توجد فى الإنجليزية اليوم صعوبة تدريس الأجرومية التى يضيق بها المعلمون والمتعلمون أحيانا .

ولم يبق إلا مشكلة الكتابة . وهى بدورها تساير الزمن وتتطور معه ، فيسرنا كثيراً من أمر الهجاء والإملاء . وما أجدرنا أن نتابع هذا التيسير ، على أن أخطاء الإملاء فقدت كثيراً من خطرها . وأصبحت بحيث لا ينظر إليها نظرة الماضى القاسية . ونحن نقرأ اليوم أكثر مما نكتب ، فإذا ما وحدنا صورة المقروء سهل فهمه وتتبعه . وحروف الطباعة ذات شأن فى تيسير الكتابة العربية ، وينبغى أن تكون ذات شكل ثابت وواضح . وإنا لنلحظ تطورها فى الثلاثين سنة الأخيرة ، وكان لمجمع اللغة العربية نصيب فى هذا التطور .

وكل تلك أمور أقرب إلى المنهج والطريقة ، وألصق بالبيداجوجيا ووسائل الإيضاح والتعليم ، ولا يضير اللغة فى شيء أن نأخذ بها . وما أجدرنا أن نفعل ، إن أردنا أن تستعيد العربية مكانتها التى حظيت بها فى الماضى وأن تؤدى رسالتها كاملة بين اللغات العالمية الكبرى .

العربية
لغة العلم والتكنولوجيا

ربما ظن لأول وهلة أن هذا العنوان دعوى ، وكل دعوى لم يقم عليها دليل فأهلها أدعياء . والواقع أن هذا الدليل قد قام فى الماضى والحاضر ، فكانت العربية قديما لغة العلم يوم أن لم تكن له لغة سواها ، وها هى ذى تؤدى اليوم الرسالة نفسها ، وإن بدا فيها قصور ما ، فذلك عيب الناطقين بها ، ولا تسأل هى عنه فى شيء . وتعريب التعليم الجامعى من القضايا المثارة ، والمثارة بعنف فى العشرينيات الأخيرة . ونخطيء إن زعمنا أننا لم نخط فى هذا السبيل خطوات وأستطيع أن أقرر أنها خطوات فسيحة ، إذا ما قيست بالزمن الذى قطعت فيه . ويكفى أن أشير إلى جامعة الكويت الحديثة النشأة ، فقد أفادت من تجربة الجامعات العربية ودرست العلوم الإنسانية كلها بلسان عربى مبين من تاريخ وجغرافيا ، وتجارة واقتصاد ، وحقوق وتشريع ، وعلم نفس وتربية ، واجتماع وفلسفة . فلم نتردد فى ذلك — كما صنعت جامعات عربية أخرى — بين العربية وبعض اللغات الأجنبية من فرنسية أو إنجليزية ، وأقامت الدليل العملى على أن لغتنا كفيلة بذلك على خير وجه . وقدر لها أن تحظى بزمرة صالحة من الأساتذة الأجلاء ذوى الخبرة الطويلة ، فحملوا الرسالة وأدوا الأمانة أصدق أداء . وليس فى هذه الجامعة إلا كلية واحدة تدرس موادها باللغة الإنجليزية وهى : كلية العلوم . وتعد العدة لإنشاء كليتين أخريين إحداهما للطب والأخرى للهندسة ، وأتوقع أن يوضع سؤال لغة التدريس موضع البحث . ويقينى أن هذه الكليات الثلاث سائرة نحو ما انتهت إليه الدراسات الإنسانية .

(*) كلمة ألقيت بجامعة الكويت .

وكم تذكرنى قضية تعريب التعليم بمشكلة أخرى أثيرت فى العشرينيات من هذا القرن ، وهى مشكلة الثنائية بين العامية والفصحى ، والرغبة فى التخلص منها . فذهب فريق إلى الأخذ بالعامية ليسرها وانتشارها ، ويظهر أنه نظر إلى الموضوع من زاويته الخاصة ، ونسى أن هناك عاميات لا عامية واحدة ، فكيف يجمعها ويؤلف بينها؟ ورأى فريق آخر أن لابد من الاستمساك بالفصحى ، تقديساً للماضى ، وحرصاً على جمع العروبة على بساط واحد ، وإبقاء على تراث من الخرق تبديده دون التأكد من بديل يحل محله . وعندى أن هذا الحوار وهذه الخصومة لم تخل من خير وبركة ، فقد قادت إلى فصحى جديدة هينة لينة ، تعنى بالجلاء والوضوح . وتنفر من الشاذ والغريب . وتمقت الصنعة اللفظية ، وتأخذ عن العامية كلما كان اللفظ عربى الأصل . وبذا ضاقت مسافة الخلف بين الطرفين ، وأصبحنا لا نحس بتلك الثنائية إحساسنا بها بالأمس . وتوفرت لدينا فصحى جديدة كتبت بلغة العصر وروحه ، وسلمت من العبارات الضخمة والجمل الطنانة التى شاعت فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن . ويقينى أن نشر التعليم والثقافة الشعبية ، والنهوض بوسائل الإعلام من صحافة وإذاعة سيقضى ذلك كله بتاتا على هذه المشكلة . وسبق أن لاحظت أن صوت أم كلثوم وغناءها قربا المسافة بين لغة تونس ولغة القاهرة ، وألاحظ اليوم أن الإذاعة الكويتية قربت كثيرا لهجة أهل الكويت من لهجة القاهريين . ومن العبث أن نعود مرة أخرى إلى الحديث عن هذه الثنائية ، فقد انقضى زمنها ، وأصبحت غير ذات موضوع .

وهناك عبث آخر شبيه بهذا ، ويحمل رايته بعض إخواننا اللبنانيين الذين يتحدثون عما سموه اللغة الأساسية ، وهى فى تقديرهم مزيج من العامية والفصحى ، ولست أدرى فى أى معمل أو صيدلية يتم هذا التركيب . وهل من سبيل لأن تصنع لغة ما صنعا ، وأن تفرض على الناس فرضا ؟ إن الواقع والتاريخ يشهدان باستحالة ذلك ، وإن قوانين المجتمع تعارض هذا وترفضه . وهل فات أصحاب هذه « الروشتة » أن هذا المزج يتم عفوا وبطريقة طبيعية وفى لغتنا الدارجة عامية وعربية ، بل ألفاظ وتعبيرات أجنبية أيضا .

والذى لا شك فيه أن هذه اللغة الدارجة أصبحت اليوم أسمى مما كانت عليه فى أوائل هذا القرن ، وتضيق مسافة الخلف بينها وبين الفصحى باطراد ، وتلك سنة التطور اللغوى فى كل المجتمعات .

وأملى كبير فى أن يقطع تعريب التعليم الجامعى الطريق على هذا النحو ، وقد قطع فيه شوطا غير قصير . والمهم أن يتمكن العلماء من لغتهم القومية ، وإذا ما أجادوها . ففى وسعهم أن يؤدوا بها كل ما يصادفون من معنى وكل ما يجول فى أذهانهم من فكرة .

للعلم لغة يؤدى بها ، ولا حياة له بدونها ، بها يشرح ويعلم ، وبها يكتب وينشر بين الناس . وتحيا اللغة العلمية بحياة العلم نفسه ، وتسير بسيره ، ولا سبيل لأن توجد فى مجتمع لا يغذيها ولا ينميها . والنهوض العلمى مقترن دائماً بالنهوض الحضارى ، هكذا كان ، وهكذا يكون . فالعلم اليونانى وليد نهضة أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، والعلم الإسلامى ثمرة من ثمار العصر العباسى الأول ، وهو قمة الحضارة الإسلامية . والعلوم الأوربية امتداد للنهضة الحديثة ، وصدى لما قام به الأوربيون من كشوف ورحلات . وحركاتنا العلمية المعاصرة أثر من آثار يقظة القرن الماضى ، ونتيجة من نتائج ذلك الوعى الذى ينشد النهوض والتقدم .

ولغة العلم صنيع أهله ، فالعالم الذى يكشف الظاهرة أو يخترع الفكرة هو وحده الذى يحس بها ، ويحسن التعبير عنها ، ويحكم أداءها ، ومن الخطأ أن نفرض عليه لفظاً ، أو نلزمه بصيغة معينة . وكلما كان متمكناً من لغته القومية استطاع أن يختار منها اللفظ الملائم والصيغة الدقيقة . ولغة العلم فى تطور مستمر شبيه بتطور اللغة الوطنية نفسها ، تتقدم بتقدم البحث ، وتنمو بنمو المادة العلمية . وتاريخ علم يكاد يتلخص فى تاريخ مصطلحاته ، ولكل عالم قدر من الألفاظ ابتكره والتزم به ، وكثيرا ما يرجع خلاف العلماء إلى اختلاف على مدلول ألفاظ تباينوا فى فهمها وشرح المقصود منها . وهناك مصطلحات تبدو قلقة عند نشأتها ، ثم لا تلبث أن تركز وتستقر ، وأخرى تموت فى مهدها ولا نقدر لها حياة .

ومن اليسير توضيح هذه القضايا فى ضوء الماضى والحاضر ، فلم تنشأ لغة العلم فى الإسلام دفعة واحدة ، بل نمت على مرِّ الزمن. بذرت بذورها فى القرن الأول الهجرى ، وفيه ظهرت مصطلحات فى الفقة والتشريع ، والتفسير والحديث والفرق وعلم الكلام . وزادتها فى القرن الثانى مصطلحات فى الأدب واللغة ، فى التاريخ والسياسة ، فى الأخلاق والاجتماع . فى الطب والكيمياء ، فى الفلك والهندسة . ولم تر هذه العلوم غضاضة فى أن يأخذ بعضها عن بعض ، وأن يستعين لاحقها بسابقها ، وهناك ألفاظ استعملت فى عدة علوم ، ولكن بمدلولات مختلفة .

وفى القرن الثالث الهجرى استكملت العلوم الإسلامية لغتها وانتشرت هذه اللغة فى العالم الإسلامى بأسره ، فرددت فى قرطبة والقيروان ، كما رددت فى الفسطاط ودمشق ، وأخذ بها فى البصرة والكوفة ، كما أخذ بها فى الرى وأصبهان ، وفى القرن الرابع الهجرى أصبحنا أمام علم إسلامى مكتمل له آراؤه ونظرياته ، وله لغته ومصطلحاته . وقد سجلت هذه المصطلحات فى مفردات ومعاجم مختلفة ، مثل : «كتاب الحروف للفارابى» ، «ومفاتيح العلوم للخوارزمى» منذ عهد مبكر ، وتلاهما «كتاب التعريفات للجرجانى» ، «وكشاف اصطلاحات العلوم للتهانوى» واستطاعت هذه المصطلحات أن تغذى لغات أخرى ، فانتقل قدر منها إلى الفارسية والتركية ، واستمسك ببعضها من ترجموا عن العربية إلى اللاتينية ، وامتد صداها إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة .

واستعان المسلمون على وضع هذه المصطلحات بوسيلتين هامتين : أولاهما : النقل ، وهو منهج مألوف فى اللغات جميعها ، فتنقل الكلمة من مدلولها الأصلى إلى مدلول جديد له به صلة ، وتستقر فيه . بحيث تصبح عرفية ، وقد ينسى المدلول القديم ، ويحل محله المدلول الجديد وحده . والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر من بينها الصلاة والصيام والزكاة فى الفقه ، والتمييز والاستثناء فى النحو والجامد والمشتق فى علم الصرف .

والفرق بين الدلالة اللفظية والدلالة الاصطلاحية لهذه الكلمات واضح ومعروف .

والوسيلة الثانية من وسائل تكوين المصطلح العلمى هى الوضع ، ويراد به خلق لفظ جديد لأداء معنى خاص بالنحت والاختراع أو التركيب والجمع وأوضح صوره الاشتقاق . والعربية ولا شك لغة اشتقاقية ، يمكن أن يؤخذ فيها من مادة واحدة عدة ألفاظ لدلالات مختلفة ، كالفاعلية والمفعولية والصفة المشبهة وصيغة المبالغة واسم الزمان والمكان واسم الآلة والمصدر الصناعى واستطاعت الصيغة الأخيرة أن تسعفنا فى مواقف متعددة ، وبخاصة فيما يتعلق بالدلالة على المذاهب والنظريات ، كالقدرية والجبرية ، والمادية والمثالية .

لم يقف علماء العربية عند النقل والوضع ، بل سلكوا سبيل التعريب عند الحاجة ، فعربوا عن الفارسية والهندية ، كما عربوا عن السريانية واليونانية . والأمثلة على ذلك كثيرة أيضاً ، واستطاع الخوارزمى أن يقدم منها ، فى كتابه « مفاتيح العلوم » نماذج لا بأس بها . ويمكن أن يلاحظ بوجه عام أن الفارسية كثيرة الورود فى المستحدثات الحضارية والنظم الإدارية ، مثل « الرزمانة » وهى مسلك حساب الخراج ، والدفتر والفهرست من مستلزمات الديوان ، والبريد الذى كان فى الأصل دابة تحمل الرسائل وأصبح الآن قطاراً أو طيارة ، والدستور الذى نسى معناه القديم وأصبح لا يراد به إلا دلالته القانونية الخاصة . ويلاحظ أيضاً أن الألفاظ اليونانية والسريانية كثيرة الورود فى العلوم والفلسفة . فعن اليونانية أخذ لفظ « الناموس » و « السفسطة » فى الفلسفة ، و « الأرثماطيقى » و « الأسطرلاب » فى الرياضة والفلك ، و « القولون » وهو المعى الغليظ ، و « الترياق » وهو دواء السم فى الطب . وعن السريانية أخذ « الكيان » وهو الطبيعة فى الفلسفة ، و « البحران » فى الطب . وللعلوم الإسلامية تاريخ طويل يشرح نشأتها وتطورها ويبين مناهجها ونظرياتها ويشير إلى كبار رجالها وما وضعوا فيها من بحوث ومؤلفات . ولا سبيل لأن نستعرضها هنا ، ونكتفى بأن نقف قليلاً عند علمين منها كان لهما شأنهما فى القرون الوسطى لدى العرب واللاتين على السواء ، وهما : الكيمياء والفلك .

وقد عنى المسلمون بالكيمياء عناية خاصة منذ عهد مبكر ، فشغل بها فى أخريات القرن الأول الهجرى خالد بن يزيد ، وهو من بيت الملك . وتفرغ لها فى القرن الثانى جابر بن حيان ، وكون مدرسة خاصة عرفت فى الشرق والغرب .

وقامت بتجارب عالجت فيها بعض الفلزات والقلويات ، وفرقت بين الترشيح والتقطير ، ووصلت إلى البلورة والتصعيد ، واستخدمت بعض الآلات كالكور والأنبيق ، والميزان ، وسمى علم الكيمياء جملة « علم الميزان » . وكان لهذه المدرسة شأن وتأثير على البحث الكيميائى لدى المسيحيين فى القرون الوسطى والتاريخ الحديث .

وفى أخريات القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى توسع أبو بكر الرازى فى الدراسات الكيميائية ، وصبغها بصبغة علمية دقيقة وهو دون نزاع أكبر كيميائى فى الإسلام ، عرف كيف يربط الكيمياء بالطب ، واستطاع أن يجعلها علماً تجريبياً دقيقاً ، فسبق بذلك التاريخ الحديث . عنى بتحليل العقاقير وهى عنده متنوعة : نباتية وحيوانية ، أحجار وأملاح غازية ومعدنية وصف الآلات المستخدمة فى الكيمياء وصفاً دقيقاً ، كالمنفاخ ، والبوتقة والقدح والقنينة . وقام بتجارب شبيهة بالتجارب الحديثة فى التقطير والتصعيد ، فى التكليس والاحتراق ، وحضر بعض الأحماض بالتسخين كما حضر الكبريت وبعض الكحول بالتقطير .

ثم تلاه كيميائيون إسلاميون آخرون ، ويطول بنا الحديث إن وقفنا عندهم والمهم أن هؤلاء الكيميائيين كانت لهم مصطلحاتهم الكيميائية ، فعرفوا الكبريت والزرنيخ ، والزئبق والنوشادر ، والراتنج والمغنيسيا ، والمغناطيس والأسفيداج ولم يجدوا غضاضة مطلقا فى أن يستعملوا بعض الكلمات الأجنبية المأخوذة عن الفارسية ، أو عن السريانية واليونانية . ولا تزال هذه مستعملة بيننا ، وأخذ اللاتين والأوربيون منها قدرا أقروه ، واحتفظوا به .

أما الفلك فهو أحد علوم ثلاثة عنى بها المسلمون عناية خاصة ، وهى : الطب والكيمياء ، والفلك . ولا شك فى أنه كان للعرب فى الجاهلية بعض ملاحظات فلكية تتصل بالأنواء والعواصف ، وتقيس الزمن بطلوع الشمس وغروبها ونرجح أنهم أفادوا شيئاً من فلك البابليين والكلدانيين . وقد بدأت دراسة الفلك الإسلامى فى أوائل العهد العباسى ، ولعلها كانت مرتبطة بالعرافة والتنجيم . وأولع بها خاصة رجلان من كبار الخلفاء العباسيين أولهما : المنصور الذى اتجه نحو الفلك الهندى ودعا إلى ترجمة كتاب « السندهند » وكلف بذلك إبراهيم الفزارى أكبر الفلكيين فى عصره .

وثانيهما : المأمون الذى اتجه نحو الفلك اليونانى ، وشجع على ترجمة كتبه وله أبحاث فلكية متعددة ، من أهمها : محاولته قياس محيط الأرض وقد وصل فيه إلى نتائج مدهشة بالنسبة لعصره .

وفى الإسلام فلكيون كثيرون ، تعاصروا وتنافسوا ، وتلاحقوا جيلا بعد جيل ، وكانت لهم أعمال فلكية عرفت بهم . فظهر منهم فى القرن الثالث الهجرى الكندى وأبو معشر البلخى ، وفى القرن الرابع : البتانى وابن يونس المصرى ، وفى القرن الخامس ابن الهيثم ، والبيرونى وفى القرن السادس ابن ماجة والبتروجى وفى القرن السابع الطوسى والقزوينى .

وأقام المسلمون ما أقاموا من مراصد ، ومن أشهرها : مرصد بغداد ، ومرصد الحاكم بالمقطم ،ومرصد المراغة وزودوها بآلات رصد خاصة ، فاستخدموا الأسطرلاب وذات الأوتار ، ودورة الرياح والبوصلة . واستطاعوا أن يتنبأوا فى دقة بالكسوف والخسوف ، ورصدوا الاعتدالين الربيعى والخريفى وضبطوا حساب السنة الشمسية بما لا يقل عما انتهى إليه العلم اليوم إلا بنحو دقيقة وثلاث وعشرين ثانية ، وقدروا محيط الأرض عن طريق قياس مساحة كبيرة بما لا يبعد عن الواقع كثيراً . وهنا أيضاً عولوا فى لغتهم الفلكية على الألفاظ العربية أولا ، فإن لم تف بحاجتهم استعاروا بعض المصطلحات والألفاظ الأجنبية . وكان للفلك العربى شأن فى العالم اللاتينى ، قدّره اللاتين حق قدره وأعجبوا برجاله ، ورغبوا فيه وترجموا معظم كتبه .

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقرر أنه كان للعرب علوم أولعوا بها ،وأنه ازدهرت لديهم حركة علمية لها منزلتها بين الحركات العلمية العالمية الكبرى ومما يؤسف له أن هذه الحركة لم تدرس بعد الدرس اللائق بها ، ولم تجمع مصادرها ولم تخرج إلى النور فى صورة مقبولة . فكان فى القرون الوسطى علم عربى مزدهر ، تعهده المسلمون ، وغذوه طوال عدة قرون . وأنشأوا له لغة خاصة به ، وقامت هذه اللغة على أساس متين من العربية ، وما أخذته عن اللغات الأخرى تبنته ، وأصبح جزءا منها . ويمكننا أن نقرر أن هذه اللغة كانت فى ذلك التاريخ لغة العلم الوحيدة فى العالم بأسره ، فيما بين القرنين الثامن والثالث

عشر الميلادى . ثم انضمت إليها اللاتينية بعد ذلك ، أخذت عن العربية وأفادت منها . فترجم اللاتين قدراً من كيمياء جابر بن حيان وأبى بكر الرازى وعنوا برياضيات الخوارزمى وبصريات ابن الهيثم ، وفلك الميتانى والبتروجى وطب ابن زهر ، وعلى بن رضوان .شغلوا بالترجمة عن العربية نحو قرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى ، واستعاروا بعض الألفاظ العربية كما استعار المسلمون من قبل بعض الألفاظ الأجنبية . ولا تزال الألفاظ العربية المستعارة باقية إلى اليوم فى اللاتينيةومن بعدها فى بعضاللغات الأوربية المعاصرة فأدت العربية رسالتها نحو العلم فى الماضى ، ولا يعز عليها أن تؤدها فى الحاضر وهى متهيئة لذلك تهيؤ اللغات العالمية الكبرى .

* * *

وشاء القدر أن تركد حركة البحث العلمىفى العالم العربى فيما بعد القرن الثالث عشر الميلادى ، وبقيت على ذلك نحو خمسة قرون ولم تستيقظ إلا فى أخريات القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذى تلاه ، استيقظت فى مصر أولا بدافع من الحملة الفرنسية ، وبغذاء لم يستمر طويلا فى عهد محمد على ومن جاء بعده من خلفائه الأقربين . فأنشئت فى عهده مدارس للطب والصيدلة والهندسة ودرست بها هذه العلوم بالفرنسية ومعها ترجمتها العربية ، ولا تزال بين أيدينا صور من هذه الترجمات التى حاولت أن تحل العربية محل الفرنسية . ولو قدر لهذه المدارس أن تبقى وتستمر فى أداء رسالتها لكان لتاريخ الحركة العلمية المصرية الحديثة شأن آخر . ولا يكاد يختلف الأمر فى الأقطار العربية الأخرى عنذلك كثيرا اللهم إلا فى لبنان الذى أنشىءفيه منذ أكثر من مائة سنة جامعتان ، إحداهما أمريكية والأخرى يسوعية وكانتلهما معاً شبه رسالة دينية ، وحملا باطراد الطابع العربى ، ولم يعبرا فى الحقيقة عن علم عربى .

ولم تبدأ الحركة العلمية فى العالم العربى إلا فى القرن العشرين . فأنشئت الجامعة المصرية القديمة فى أوله ، وهى مدينة بنصيب ملحوظ لحركة الاستشراق وتلتها فى مصر جامعات متعددة ، يبلغ عددها الآن سبعاً ، وازديادها مطرد

وتدرس فيها العلوم المختلفة ، من طب وصيدلة ، وكيمياء ، وفسيولوجيا ، نبات وحيوان ، جيولوجيا وزراعة ، رياضة وفلك : ويقدم قدر من هذه المواد حالياً باللغة العربية ولا يزال قدر آخر يدرس باللغة الإنجليزية . وعلى غرار مصر سارت الأقطار العربية الأخرى . ولكل بلد عربى تقريباً جامعته أو جامعاته الخاصة ، وتدريس العلوم فيها على نحو ما يجرى فى مصر ، فيعطى فى الأغلب بالإنجليزية أو الفرنسية ، اللهم إلا جامعة دمشق التى أخذت نفسها منذ عهد بعيد بتدريس الطب باللغة العربية .

ومن هنا نشأت مشكلة تعريب التعليم الجامعى ، ولها ما يحمل عليها ، لأنه لا سبيل لقيام حركة علمية حقيقية فى بلد إلا إن اعتمدت على اللغة الوطنية ، وبودنا أن يعرب العلم والتكنولوجيا فى الدرس والمحاضرة ، فى قاعة البحث والمعمل ، فى المصنع والمزرعة . وقد خطونا فى ذلك خطوات ملحوظة أسهم فيها الجامعيون بما ألفوا من كتب ، وبما ألقوا من دروس ، وقد عربت بالفعل بعض المواد فى كليات العلوم والهندسة ، وربما كان الأمر أيسر فى كليات الزراعة والطب البيطرى . وتبذل جهود فى سبيل تعريب التعليم فى كليات الطب والصيدلة ، والموقف هنا دون نزاع أدق وأعسر .

وإلى جانب هذه الجهود الجامعية لتعريب التعليم ، ينبغى أن نشير إلى ما تضطلع به هيئات أخرى فى هذا المضمار فأنشئت المجامع اللغوية والعلمية منذ نصف قرن أو يزيد ، ورأت ضرورة مسايرة العربية لمقتضيات العلم ومتطلبات الحضارة ، وأسهمت فى ذلك ما وسعها . ويبدو أن مجمع القاهرة قد منح مشكلة اللغة العلمية عناية خاصة ، وشغل بها إلى درجة لعلها لم تتوفر لدى مجمع آخر فوقف عليها عدة لجان ، وتوسع فى النقل والوضع ، ويسر قواعدهما . وأقر التعريب كما أقره الأقدمون ، ونظمه وأحاطه بشئ من القيود والضوابط ، فاستساغه بوجه خاص فى المصطلحات ذات الطابع الدولى ، وفى أسماء أعلام الجنس ، وفى الألفاظ التى تعبر عن فصائل من النبات أو الحيوان . وأقر عشرات الآلاف من المصطلحات وأخرجها فى مجموعات معينة ، أو فى بعض المعجمات المتخصصة . ويسعده أن يلاحظ أن العلماء والمتخصصين يقبلون على مقرراته ، ويستعينون بها فيما يكتبون ويؤلفون .

وفى العالم العربى أيضاً هيئات علمية متعددة ، من جمعيات واتحادات ، ومراكز بحث ومجالس علمية ، بل عمدت بلاد إلى إنشاء وزارات للبحث العلمى والتكنولوجيا . وتعنى هذه الهيئات كلها بالشكل والموضوع ، فتحاول أن تدفع البحث العلمى العربى دفعة قوية ، وترى أن من أهم وسائل هذا الدفع أن تطاوع اللغة العربية الباحثين والدارسين ، وأن تمكنهم من أن يعبروا عن كل ما يدرسون ويكشفون ولابد للغة العلمية من أن تستقر وتتمكن ، وأن تنتشر وتتداول ، وأن يتلاقى عندها الباحثون العرب أجمعون ، لهذا أخذت الهيئات العلمية نفسها بنشر صحف ومجلات تقدم بحوثها فى لغة عربية سهلة ، ونظمت ما استطاعت الندوات والمؤتمرات التى تجمع المتخصصين فى صعيد واحد ، وتربط جهودهم بعضها ببعض ، إن فى البحث والدرس ، أو فى تكوين لغة العلم ومصطلحاته وأصبح لدينا من هذا كله زاد كفيل بأن يسد الحاجة ، وبأن يسمح بمتابعة السير .

* * *

فبرهنت العربية إذن فى الماضى والحاضر على أنها ليست أقل استعداداً من اللغات العالمية الكبرى لمواجهة متطلبات العلوم والتكنولوجيا أدت هذه الرسالة بالأمس فى أمانة ، يوم أن كان أبناؤها حريصين على أدائها وعجزت عن أدائها حينا يوم أن انصرف العرب عن ذلك . ولا شك فى أنهم راغبون اليوم كل الرغبة فى استعادة مجدهم ، والإسهام بنصيبهم فى نهضة العلم وتقدمه . ومتى تمكن الباحث والعالم من لغته وجد فيها وفاء لأداء كل ما يجول بخاطره . وتعريب التعليم الجامعى يستلزم لا محالة أن يعرب الباحثون والعلماء أولا ، فيدرسوا لغتهم درساً كافياً يمكنهم من أن يكتبوا فيها ويتحدثوا بها فى يسر وطلاقة . ومنهم من يؤثر التأليف بالإنجليزية أو الفرنسية ، لأن عربيته لا تطاوعه على أن يكتب على نحو ما يحب ويهوى . ويوم أن تتوفر فى اللغة الوطنية مكتبة شاملة فى مادة من المواد ، يحس أهلها بأنهم ملكوا هذه المادة وأحسنوا التصرف فيها ، وهذا شرط آخر من شرائط تعريب التعلم الجامعى .

على أننا أصبحنا نعيش فى عصر لا يستطيع باحث أو دارس أن يقنع فيه باللغة الوطنية وحدها ، بل لابد له أن يضيف إليها لغة أو أكثر من اللغات الأجنبية . وتستمسك الجامعات الكبرى بذلك ، وتطبقه فى دقة . وقد كان العلم ولا يزال لا وطن له ، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها . ويعول العلماء فى لقاءاتهم الدورية على أن يتبادلوا فيما بينهم ما كشفوه وما اهتدوا إليه ،وأن يربطوا خيوط البحث العلمى بعضها البعض . وبين العرب علماء يجيدون لغتين أجنبيتين أو أكثر ، وعلى أمثال هؤلاء يعول فى دعم حركة التعريب والنهوض بها . بيد أنه يجدر بنا أن نصارح أنفسنا بما نحس به من نقص ، إن كنا نريد تداركه . ولا أظننا نختلف فى أنا نتزلج فى منحدر بغيض فى تعليم اللغات وتعلمها ، وأصبحت الغالبية العظمى من الشباب لا تجيد العربية ولا أية لغة أجنبية . لنبدأ من هنا إذن إن كنا نريد إصلاحاً على أساس متين ، ولا سبيل بدونه ، لا إلى تعليم ولا إلى تعريب .

لغة العلم فى الإسلام

للعلم لغة يؤدى بها ، ولا حياة له بدونها ، يلتقى عندها العلماء ، ويعول عليها الطلاب . وعلى أساسها يقوم الشرح والدرس ، ويعتمد التأليف والنشر . تسير بسير العلم ، وتقف بوقوفه ، ولا سبيل لأن توجد فى أمة جاهلة ، ولا لأن تحيا فى بيئة لا تغذيها ولا تنميها . وعصور الازدهار العلمى فى التاريخ قديمه وحديثه هى عصور مجد الأمم ونهوضها ، فالعلم اليونانى وليد نهضة أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، والعلم الإسلامى ثمرة من ثمار الصدر العباسى الأول ، ولا تزال الثقافة الفرنسية المعاصرة تحمل فى ثناياها جهود القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ولغة العلم صنيع أهله يصطلح عليها العلماء ، فتصبح لغتهم الخاصة . ولكل علم مصطلحاته ، وكلما تقدم البحث فيه نمت وتحددت ، تبدأ هزيلة مترددة ، ثم لا تلبث أن تقوى وتستقر ، وحياتها فى أن تستعمل وتتبادل . وتاريخ علم إلى حد ما هو تاريخ مصطلحاته ، لأنها جزء من منهجه ، وتعبير دقيق عما يشتمل عليه من آراء ونظريات . ويوم أن يصطلح العلماء على دوال معينة تضيق مسافة الخلف بينهم ، وقديما قال ليبنتز : « إن معظم الخلافات العلمية يرجع إلى اختلاف معانى الألفاظ ودلالاتها » . والعالم ، وهو الباحث عن الفكرة ، من حقه أن يضع لها اللفظ الذى يؤديها ، وقد درج العلماء على هذا باطراد ، فلم يكشفوا الحقائق وحدها ، بل قدموا لها ما استطاعوا من وسائل التعبير . وهم فى خلاف أحيانا مع اللغويين الذين ينكرون عليهم هذا الحق المطلق ، ويقيدونه ببعض القيود ، وربما اقترحوا لهم ألفاظا أخرى غير تلك التى ارتضوها ، ولكن العلماء دائماً هم أصحاب الحق الأول فى تخير اللفظ الملائم للمعنى الذى قصدوا إليه ، وبقدر تمكنهم من لغتهم يكون اختيارهم أدق وأحكم . وقد لا يجد الباحث

الأول اللفظ الدقيق ، فيتدارك تلاميذه ما فاته . وهكذا يسير العلماء ، الواحد منهم تلو الآخر ، فى ضبط المعانى وتحديد الألفاظ المعبرة عنها ، وتطور العلم تطور لمصطلحاته بقدر ما هو تطور لآرائه ونظرياته .

* * *

على هذا النحو تكوّنت لغة العلم فى الإسلام ، فلم تنشأ دفعة واحدة ، بل نمت وتنوعت على مر الزمن . بذرت بذورها فى القرن الأول الهجرى ، وظهرت مصطلحات فى الفقه والتفسير والكلام ، وتلتها فى القرن الثانى مصطلحات فى علوم اللغة والتاريخ ، فى الأخلاق والسياسة ، فى الطب والكيمياء فى الفلك والهندسة . واستكملت العلوم العربية فى القرن الثالث لغتها ، وتوّفرت لها أسباب الحياة . وما إن حل القرن الرابع الهجرى ، وهو العصر الذهبى فى تاريخ الثقافة الإسلامية ، حتى استقر المصطلح العلمى ، وتنوسى معناه الأول وأصبح حقيقة عرفية لا يفهم منها إلا مدلولها الجديد. وتداوله الباحثون فى المشرق والمغرب ، ولم يختلف من قطر إلى قطر. فكانت لغة العلم واحدة فى قرطبة والقيروان ، فى الفسطاط ودمشق ، فى بغداد وأصفهان وبدىء بتسجيلها فى معجمات خاصة تحت اسم مفردات أو تعريفات . ويمكن أن نذكر منها «كتاب الحروف» للفارابى ، «ومفاتيح العلوم» للخوارزمى اللذين ظهرا فى القرن الرابع ، و «كتاب التعريفات» للجرجانى فى القرن الثامن ،و «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوى فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر . ومن المصطلحات العربية ما نقل إلى الفارسية والتركية ومنهما سرى إلى اللاتينية ، بل إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة .

واستعان علماء الإسلام على تكوين لغتهم بوسيلتين هامتين ، و هما النقل والوضع ، والنقل طريق سهل مألوف فى اللغات على اختلافها . ينقل اللفظ من مدلوله الأصلى إلى مدلول آخر جديد ، لا يلبث أن يستقر ويصبح حقيقة عرفية وقد عوّل عليه مفكرو الإسلام الأوّل فيما وضعوه من مصطلحات ، ويلحظ بوضوح فى مصطلحات الفقه والتشريع كالصلاة والصوم والزكاة ، وفى علوم النحو واللغة كالتمييز والاستثناء ، والجامد والمشتق . وكثيراً ما درج

المؤلفون على شرح المصطلح فى جانبيه اللغوى والعلمى . وعن طريق النقل قد يؤدى اللفظ عدة معان باختلاف الموضوعات ، فالرجعة مثلا عند الفقهاء الرجوع فى الطلاق ، وعند الشيعة عودة الإمام بعد غيبته و موته ، وعند المنجمين سير الكواكب المتحيرة على غير النظام المألوف .

وليس الوضع أقل شأناً من النقل فى تكوين المصطلح العلمى ، فيبتكر لفظ جديد لأداء معنى خاص عن طريق النحت والتركيب والاختزال . والاشتقاق يسر السبل لوضع المصطلحات لأنه يخضع لقواعد محددة ويؤدى معانى متعددة ، فمنه تؤخذ صيغة الفاعل والمفعول ، والصفة المشبهة وصيغة المبالغة ، واسم الآلة والزمان والمكان ، وقد فسح المصدر الصناعى المجال للدلالة على أسماء طوائف ومذاهب مختلفة كالقدرية والجبرية واللا أدرية . وإن لغة اشتقاقية كالعربية لا يعز عليها أن تؤدى المعانى فى صورها المختلفة ، وليست فى هذا أقل مرونة من بعض اللغات اللاتينية التى تعتمد على نظام السوابق (Trèfines) واللواحق (Suffines) .

على أن علماء العرب لم يقفوا عند النقل والوضع ، بل أخذوا بالتعريب كلما دعت إليه حاجة ، فعرّبوا عن الفارسية والهندية ، كما عرّبوا عن اليونانية والسريانية . وربما آثروا المعرب على العربى الأصيل إذا كان أدل على المعنى فأحلوا كلمة « جوهر » الفارسية الأصل محل كلمة « عين » العربية للدلالة على لفظ « أوسيا » اليونانية . ويطول بنا الحديث لو تتبعنا هذه المعربات جميعها ، وفى « مفاتيح العلوم » للخوارزمى قدر منها ، يكفى أن نشير إلى أن الألفاظ الفارسية كثيرة الورود وفى مستحدثات الحضارة والنظم والإدارة ، وأن اليونانية والسريانية ملحوظة فى العلوم والفلسفة . وفى هذا ما يدل على المصادر التى أخذ عنها العرب بوجه عام ، يحمل المعنى معه عادة اللفظ الدال عليه . فمن الفارسية مثلا « الرزنامة » وهى مسلك حساب الخراج « والدفتر » « الفهرست » وهما من مستلزمات الديوان و « البريد » وهو فى الأصل دابة تحمل الرسائل أصبح نظاماً متعدد الأشكال ، و« الدستور » ، وهو كلمة تنوسى اليوم تماماً أصلها الفارسى . ومن اليونانية على سبيل المثال أيضاً « الناموس »

«والسفسطة» فى الفلسفة ، «والأرتماطيق» «والأسطرلاب» فى الرياضيات «والقولون» وهو المعى الغليظ «والترياق» وهو دواء السم فى الطب ، ومن السريانية «الكيان» وهو الطبيعة فى الفلسفة ، و«البحران» وهو داء معروف فى الطب .

* * *

والعلوم الإسلامية متعددة متنوعة بين دينية ولغوية ، طبيعية ورياضية ، لكل علم لغته ومصطلحاته . ولا سبيل لأن ندرس الآن نشأة هذه المصطلحات وتطورها ، وما أجدرنا أن نفعل ، ففيها تراث الماضى وذخيرة الحاضر ، وعون على تكوين لغة العلم المعاصر . وعسانا نوفق لعرض نماذج من ذلك فى فرصة تالية . وقد سبق لمجمع اللغة العربية أن وجه فى سنيه الأولى الباحثين لجمع المصطلحات العلمية القديمة من أمهات الكتب التى نشرت أو التى تعد للنشر ، ولا يأخذ المحققون أنفسهم بذلك فى اطراد ، مع أنه جزء هام من أجزاء المنهج العلمى للنشر الدقيق . وينبغى أن يختم كل نص قديم يخرج للقراء بفهرس يشتمل على ما ورد فيه من مصطلحات ، نحيى بها الماضى ، ونعين أبناء الحاضر على الدرس والبحث .

عرضنا للغة العلمية فى الإسلام بوجه عام ، ونود ان نقف عند بعض تفاصيلها ، وأن نقدم نماذج منها فى بعض العلوم الدينية واللغوية ، والطبيعية والرياضية . فنشير إلى نشأتها ، وتطورها والأصول التى قامت عليها ، ونبين مدى أخذ المسلمين بها شرقاً وغرباً ، علماً وعملا ، تدريساً وتأليفا . ونوجه النظر إلى حظها من الاستعمال اليوم ، وكيف استطعنا أن نلائم بينها وبين مقتضيات العلم الحديث .

ورأينا أن نبدأ بالمصطلح الفقهى ، وهو ولا شك من أول المصطلحات الدينية تكويناً دعت إليه حاجة العبادات والمعاملات . وظهرت نواته الأولى فى عهد النبي وأصحابه ، ثم غذّاه التابعون وتابعو التابعين من محدثين وأهل رأى ومن العسير أن نفصل فى هذه المرحلة بين التشريع والتفسير والحديث ، فقد ارتبطت ثلاثتها واختلطت . وكان البحث والدرس إبان القرن الأول الهجرى فى أساسه شفوياً ، سماعا روايا ، سؤالا وجواباً . وحياة العلم فى تدوينه وتسجيله ولم يبدأ ذلك فى جد إلا فى القرن الثانى .

فقد طلب المنصور فى حوالى سنة ١٤٠ هجرية إلى مالك بن أنس (٧٩ ه ـ ٧٩٥ م) إمام دار الهجرة أن يدون فقهه ، « والموطأ » دون نزاع أقدم كتاب فى المصطلح الفقهى وصل إلينا . فيه قدر من المصطلحات لا بأس به ، توارثه تلاميذ مالك وأتباعه ، وغذّوه وصقّلوه . وفى القرن الثالث الهجرى وضع سحنون « المدوّنة » وهى الموسوعة الأولى فى الفقه المالكى ، زادت المصطلح وضوحاً وضبطاً ودقة . وفى القرن الرابع لخصها أبو زيد القيروانى ، ففتح باب الملخصات التى شاعت فى القرون التالية على أيدى ابن الحاجب والقرافى فى القرن السابع ، وخليل فى القرن الثامن ، وكان لهذا شأن كبير لدى علماء المالكية فى القرون الأربعة الأخيرة . ولئن كان مذهب مالك قد ولد فى المدينة ، فإنه نما وترعرع بوجه خاص فى الأندلس وشمال أفريقية .

وعلى نحو شبيه بهذا عولج الفقه الحنفى وأبو حنيفة (١٥٠ ه) ، وإن لم يكتب فيه شيئاً فيما يظهر ، خلف لتلاميذه مادة عوّلوا عليها . وفى مقدمتهم أبو يوسف (١٨٢ ه) صاحب كتاب الخراج ، ومحمد بن الحسن الشيبانى (١٨٩ ه) صاحب « كتب ظاهر الرواية » وهى دعامة المذهب الحنفى . وعليها اعتمد الخلف ، شرحوها تارة ولخصوها تارة أخرى ، فمن الشراح الجصاص (٣٧٠ ه) والبزدوى (٤٨٣ ه) ، ومن الملخصين القدُورى (٤٨٣ ه) صاحب « المختصر فى فروع الحنفية » والكاسانى (٥٨٧ه) صاحب « بدائع الصنائع » . ولهذين الكتابين شأن فى دراسات القرون الأخيرة فى الفقه الحنفى ، وكم وضعت عليهما شروح وتعليقات . وأريد فى القرن الماضى صياغة أحكام الفقه الحنفى على شكل مواد ، كما حدث فى « مجلة الأحكام العدلية » باستامبول ، وفى « الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية » لقدرى باشا بمصر . وقصد بذلك أن تغنى أحكام الفقه الإسلامى عن قوانين نابليون وما تفرع منها ، وهذا اتجاه لم يقابله فقهاء القرن الماضى بترحاب ولو فعلوا لقدرت له حياة كاملة ، وأمكن تنميته والتوسع فيه . أما العودة إليه اليوم فيخشى ألاّ تسفر إلاّ عن دراسات نظرية لا تستطيع أن تجد سبيلها إلى العمل والتنفيذ . واستطاع الشافعى (٢٠٤ ه) أن يضع دعائم مذهبه فى كتابيه (الرسالة)، و (الأم) . ثم جاء تلميذه البويطى (٢٣١ ه) والمزنى (٢٦٤ ه) . فوضحا المذهب ، وفصلا القول فيه ، وأحكما تبويبه . وفى القرن الخامس أضيف إسهام كبير على أيدى المحاملى (٤١٥ ه)

فى «لباب الفقه»، والماوردى (٤٢٢ ﻫ) فى «الأحكام السلطانية»، والغزالى (٥٠٥ ﻫ) فى «الوجيز». ثم توالى علماء الشافعية يلخصون ويشرحون وختم هذه السلسلة زكريا الأنصارى (٩٢٦ ﻫ) فى كتابه «تحرير العباب».

وهناك مذاهب لم تعمر طويلا كمذهب الأوزاعى (١٥٥ ﻫ)، وابن جرير الطبرى (٣١٠ ﻫ) أو كان لها نشاط محدد كمذهب ابن حنبل (٢٤٠ ﻫ)، وداود الظاهرى (٢٧٠ ﻫ). وإلى جانب هؤلاء فقهاء بعض الفرق كالخوارج والشيعة، ولا يزال الأخيرون يتعهدون فقههم تأليفاً وتدريساً.

أسهم هؤلاء جميعاً فى تكوين المصطلح الفقهى وتغذيته، وبرغم اختلافهم فى بعض المبادىء والآراء، فإن لغتهم كانت واحدة تقريباً، وإن تفاوت بعض مدلولاتها لأنهم عوّلوا جميعاً على كتاب السنة، وأخذوا على درجات متفاوتة بما قال به الصحابة والتابعون، وجمع بينهم حوار وندوات مشتركة، ودارت بحوثهم حول موضوعات معينة. وتلتقى المذاهب الأربعة بوجه خاص فى جوانب متعددة، اتصل شيوخها وتتلمذ بعضهم لبعض، فأخذ الشافعى عن مالك، ولم يقف مذهب منها عند بلد معينة، وقد تجتمع كلها فى بلد واحد. فهناك لغة فقهية مشتركة بين المذاهب كلها، ومن الخطأ أن يظن أنها عنيت بالعبادات وحدها بل عرضت لأبواب من القانون كالمدنى والتجارى، والمواريث وحقوق الأسرة، والقانون الإدارى والدستورى.

* * *

وقد عوّل الفقهاء فى تكوين مصطلحهم على الكتاب والسنة. فاستمدوا منهما الأحكام الشرعية، كما استمدوا الألفاظ الدالة عليها. واستعانوا فى ذلك بوجه خاص بما يسمى المجاز العرفى، فنقلوا اللفظ من مدلوله الأصلى إلى مدلول آخر جديد اصطلحوا عليه، وأصبح حقيقة عرفية، قامت فى أساسها على ضرب من العلاقة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه. وبعد النقل اشتق من اللفظ فى مدلوله الجديد صيغ كثيرة، للدلالة على الفاعلية أو المفعولية أو الصفة المشبهة، أو صيغة المبالغة. ويرجع المصطلح الفقهى فى جملته إلى ألفاظ عربية فى أغلب أبواب الفقه من عبادات ومعاملات. ففى العبادات مثلا: «التثريب» و «الترجيع»،

ويراد بالأول قول المؤذن : « الصلاة خير من النوم » فى أذان الفجر ، ويدل اللفظ لغوياً على مجرد « الرجوع » أو الإشارة بطرف الثوب للفت النظر . ويراد بالثانى تكرار المؤذن مرتين فى الأذان قول « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . وفى العبادات أيضاً : « القران » و « الإفراد » ويراد بالأول ، الجمع بين الحج والعمرة بنية واحدة ، وبالثانى إفراد كل واحد منهما بنية وشعائر خاصة . وفى المعاملات مثلا : « الحجز » و « التفليس » ويراد بالأول سلب القاضى أهلية الشخص ، فلا يستطيع التعامل ، ولا يجوز له بيع أو شراء . ويراد بالثانى فقد المال ، فيصبح الرجل وكأنه لا يملك فلساً واحداً .

والفقه الإسلامى فى تاريخه الطويل صورة من صور التطور التشريعى الذى يخضع لظروف البيئة والمجتمع ، ونخطىء كل الخطأ إن زعمنا أنه ولد دفعة واحدة ، أو أن ما نتدارسه اليوم من أحكام فقهية قد وضع جميعه فى عهد الصحابة والتابعين. حقاً إنه يقوم على أصول ومبادىء يجب احترامها ولكنها اليسر والمرونة بحيث تتابع سير الزمن وتقدم العمران ، وتتلاءم مع ما تعارف عليه الناس ، ولا تتعارض مع سد حاجاتهم المشروعة . هو سماوى وأرضى معا ، سماوى فى أساسه وحكمته ، أرضى فى فروعه وتطبيقاته ، وللعرف دخل كبير شأنه فى ذلك شأن كل تشريع قديم أو حديث .

ولم يقف أثر العرف فى الفقه الإسلامى عند القضايا والأحكام ، بل امتد إلى الألفاظ الدالة عليها أو ما نسميه المصطلحات . وأوضح ما يكون هذا أسماء المكاييل والموازين. فمن بينها ما يرجع إلى أصل عربى كالصاع وهو أربعة أمداد ، والمد وهو بالكيل المصرى نصف قدح عند الشافعية والمالكية ومنها ما يرجع إلى أصل أجنبى كالأوقية ، وهى يونانية الأصل ، ووزنها فيما يروى الخوارزمى فى « مفاتيح العلوم » إستار وثلثا إستار ، والإستار نفسه معروف من قبل اليونانية والسريانية ، ووزنه أربعة مثاقيل ونصف مثقال . والواقع أن المسلمين حرصوا على ألا يحدثوا قلقاً أو اضطراباً فيما تعارف عليه الناس فى البلاد التى انتشر فيها الإسلام ، وساروا على نحو ما سار عليه أهلها . فأخذوا بالمكاييل والموازين الفارسية والرومانية والمصرية . ولا ضير علينا اليوم فى أن نفعل كما فعلوا ، فنأخذ بالجرام والكيلو ، أو بالمتر وأجزائه ومضاعفاته .

هذا هو المصطلح الفقهى الذى لم يعن القدامى كثيراً بجمعه فى معجمات خاصة وبيان شرحه ومدلوله ، وكأنما عدوه من الأمور الدارجة والمألوفة . وقد أصبحنا اليوم نجهله ولا نعرف حقيقته ، ويكاد يموت بين أيدينا ، وطغى عليه المصطلح القانونى الحديث . وما أجدرنا أن نكشف عنه ونحييه ، ففيه عون على ما نستحدثه من تشريعات جديدة ، وتقريب لمسافة الحذف بين الاستعمالات القانونية المتباينة فى البلاد العربية . وفى مصر حركة متصلة لإخراج موسوعة الفقه الإسلامى ، وفى إخراجها ما يحدد المصطلح الفقهى ويشرحه وحبذا لو صاحبها عمل معجمى يجمع هذه المصطلحات ويرتبها ويحددها ، ولعل مجمع اللغة العربية فى القاهرة يضطلع بشىء من ذلك . ولأمر ما شاء اتحاد المجامع اللغوية والعلمية أن تدور أول ندوة يعقدها حول المصطلح القانونى وهو وثيق الصلة بالمصطلح الفقهى .

الثقافة العربية اليوم وغداً

نشأتها وتطورها

١ — الحياة الثقافية فى مجتمع ما وليدة وعى ويقظة، وثمرة انطلاق وحرية. ولا شك فى أن الإسلام بعث فى العالم العربى وعياً نشيطاً خلاقاً وأسبغ عليه نعمة شاملة، وحرية كاملة، فتفجرت فيه عبقريات استطاعت أن تقيم حضارة لها شأنها بين الحضارات الإنسانية الكبرى. وفيما بين القرنين السابع والرابع عشر الميلاديين تنافس العرب والمسلمون جميعاً فى ميدان الثقافة، فأنجزوا ما أنجزوا، وأنتجوا ما أنتجوا فى نواح شتى: فى الأدب والفن، فى العلم والفلسفة، فى العمران والحضارة، فى الصناعة والتجارة واسترعى إنتاجهم الأنظار، وبهر أوربا فى القرون الوسطى، وأخذت تنهل من حياضه وتحاكيه. ولم يبق شك اليوم فى أن العلم والفلسفة لدى اللاتين مدينان للعلم والفلسفة العربيين، وأن الازدهار الفكرى فى باريس وأكسفورد إبان القرن الثالث عشر إنما كان صدى لما سبقه من ازدهار فى بغداد وقرطبة، وقد مهد ذلك كله للنهضة الأوروبية الحديثة

ومنذ القرن الرابع عشر طغت على العالم العربى موجة غاشمة من القهر والغلبة وظلمة قاتمة ضاق فيها الفكر والأفق، وعاش الناس فى ماضيهم يرددونه، ويحاكونه، وربما عزّ عليهم فهمه وإدراكه. وكثيرا ما رددت تلك العبارة المشهورة: «ما ترك الأول للآخر شيئاً» فأجدبت العقول، وكثر المحرم، وقل المباح. وعطلت المصانع والمعامل، وأغلق كثير من معاهد العلم الكبرى، ولم يبق منها إلا الأزهر فى القاهرة، والزيتونة فى تونس، والقرويين فى مراكش. وما بقى ظل يدور حول نفسه، يلخص الحقائق العلمية فى «متون»، ثم يوضح هذه المتون فى «شروح» وقد يفسر الشروح فى «حواش» و «تقارير»، وكل

ذلك أخذ عن السابقين . دراسات فى الغالب رتيبه غير متنوعة ، جامدة غير متحركة ، مقلدة غير مبتكرة ، لفظية غير موضوعية . وفى اختصار كانت الحياة الثقافية ضيقة النطاق ، مقصورة على طائفة محدودة تعيش فى الماضى ، ولا تعبأ بالحاضر ، تنكر التطور والتقدم ولا تشعر بحاجة إلى تجديد أو ابتكار.

* * *

٢ — فى القرن التاسع عشر بدأت تهب على العالم العربى نسمة جديدة من اليقظة والحرية وظهرت بوادرها فى مصر أولا ، ثم امتد صداها شيئا فشيئا إلى بلاد عربية أخرى . وأخذ العرب يحسون بوجودهم ، ويشعرون مرة أخرى بأنفسهم . ففكروا فى استقلال ، ونظروا فى تفكير غيرهم . ولا شك فى أن الحملة الفرنسية كانت القبس الأول الذى انبعثت منه حركة البحث والتجديد فقد اصطحب نابليون معه أربعين من كبار العلماء جاسوا خلال الديار ، ووصفوا طيور مصر وحيواناتها ، وحللوا تربتها ، وكشفوا عن معادنها ، وصخورها ، ورسموا معالم اقتصادية ، وأخرجوا ذلك الكتاب القيم : Dcseription de I'Egyptc وأسسوا معهدا لا يزال قائماً حتى اليوم ، وهو L.Istitut d'Egypte الذى حرص نابليون على أن يرأسه بنفسه ، وتلت ذلك حركة استقلالية ردت إلى مصر اعتبارها ، ودفعتها لأن تتسلح بسلاح العلم الحديث وتزعم محمد على طوال أربعين سنة حركة علمية وحضارية فسيحة ، فأنشأ مدارس الطب والهندسة والصيدلة إلى جانب المدارس الحربية . وأوفد إلى أوربا وفرنسا خاصة بعثات متلاحقة ، وكانت أولاها (١٨٢٦) مكونة من ٤٠ طالباً قصدوا باريس لدراسة الرياضة والهندسة والطب والعلوم والصناعية ، وأنشىء عدد من المدارس الابتدائية والثانوية . وأقيمت مشروعات كبرى كالقناطر الخيرية ونظم الرى والصرف ، وشق بعض الترع والرياحات . إلا أن أبناء محمد على لم يسيروا على بهجة تماما ، فأغلقت المدارس العليا ، وتوقفت البعثات الطلابية إلى أوربا . ويظهر أنهم عنوا خاصة بالنواحى الحضارية والعمرانية ، فشيدوا القصور الضخمة ، ودار الأوبرا ، وأنشأوا السكك الحديدية والبريد والبرق .

ونود أن نشير إلى أمرين آخرين كان لهما شأنهما فى هذه الحركة الثقافية ، وأولهما : دعوة العلماء والخبراء الأجانب ، والاستعانة بهم فى النهوض والتجديد

فى العلم والصناعة والعمران . ومنهم جماعة وضعت اللبنة الأولى فى بنيان النهضة المصرية الحديثة . وعول محمد على فى مدارسه ومصانعه على الأساتذة والخبراء الفرنسيين ، وطبعت الحياة الثقافية المصرية بطابع فرنسى واضح استمر حتى نهاية القرن التاسع عشر . ويضاف إلى هذا ثانيا السماح بإنشاء مدارس أجنبية ودينية كانت أو مدنية . ولم تقتصر هذه المدارس على تعليم أبناء الجاليات الأجنبية ، بل فتحت أبوابها أيضاً لأبناء المصريين ، وعززت تعليم اللغات الأجنبية بين فرنسية وإيطالية ، إنجليزية وألمانية . ونشأ فيها عدد غير قليل ممن تولوا القيادة الفكرية والسياسية فى القرن العشرين . والواقع أن الأوربيين حظوا فى مصر إبان النصف الثانى من القرن الماضى بمزايا لم يحظ بها الوطنيون أنفسهم . فوقعت عليهم أحياء خاصة فى بعض المدن الكبرى ، وعوملوا معاملة كلها رعاية وتقدير ، ونعموا بامتيازات لم تخل من ظلم للمواطنين ، ولا نظير لها فى بلادهم الأصلية . وبلغ عددهم أحياناً نسبة ملحوظة ، ويكفى أن نشير إلى أن هذه النسبة صعدت فى الإسكندرية إلى نحو $\frac{1}{4}$ السكان أيام الخديو إسماعيل وفى هذا الاختلاط والاتصال ما سمح بتبادل ثقافات وتجارب وخبرات متعددة .

واستطاعت مصر أن تكون رائدة ، وسيبدو أثر ريادتها فى القرن العشرين على شكل أوضح ، وقل أن نجد بلداً عربياً لم يبعث إليها ببعض أبنائه لينهلوا من حياضها ، ويقفوا على مظاهر نهضتها ، وكان الأزهر من قديم قبلة طلاب العلم من البلاد الإسلامية عامة . وحرصت البلاد العربية ، إن أتيحت لها فرصة على أن تحاكى مصر ، وأن تحذو حذوها . وأفاد بعضها من المدارس الأجنبية وإن تأثر بشىء من ميولها واتجاهاتها . ولبنان وهو نسبياً أكثر حظاً من هذه المدارس ، مدين خاصة لمعهدين كبيرين . هما الجامعة الأمريكية والجامعة اليسوعية . وهذان المعهدان من غرس القرن التاسع عشر ، ولم يخلُوا من أهداف دينية ، وقد بدآ فى صورة مدرستين ثانويتين ، وإليهما يرجع الفضل على كل حال فى حركة لبنان الثقافية المبكرة . ولسنا فى حاجة أن نشير إلى أن الاستعمار فى الجملة لم يشجع التعليم العالى ولا المتخصص ، واكتفى بتخريج كتاب وسكرتاريين . وكان لابد للبلاد العربية أن تعزز استقلالها ، لكى تستطيع

أن ترسم بنفسها وسائل نهوضها وتقدمها ، وتفاوتها ثقافياً يرجع فى قدر كبير منه إلى الزمن ، فأقدمها عهدا بالاستقلال أرسخها قدما فى ميدان العلم والثقافة.

٣ – والقرن العشرون هو البدء الحقيقى للنهضة الثقافية العربية المعاصرة ، لأنه قرن التحرر والاستقلال ، قرن الازدهار الاقتصادى والرخاء ، ولاسبيل إلى نهضة ثقافية بدون إمكانيات تعد لها وتيسر وسائلها ، وهو أخيراً قرن التحدى والمنافسة . وإذا كانت الحربان العالميتان اللتان بلى بهما هذا القرن قد غذيتا الشعور القومى فى العالم العربى فإنهما عاقتا وسائل نهوضه وتقدمه ، وتلتهمها حروب إسرائيل التى لم تعرف نهايتها بعد ، وحروب الاستقلال فى الجزائر وحروب الأكراد فى العراق ، والحرب الأهلية التعسة فى لبنان. وقد أنفق فيها جميعها ما أنفق من أموال وأرواح ، وعوقت دون نزاع سير التجديد والإصلاح وبرغم هذا كله حاول من بلوا بها ما وسعهم أن يلائموا بين متطلبات السلم ومقتضيات الحرب ولو قدر لهم أن يسلموا من هذه الويلات لكان سيرهم فى طريق النهوض والتجديد أكمل وأسرع . ولا تخلوا الشدائد من دروس تمليها فهى تكشف عن مواطن الضعف والنقص ، وتعين على وضوح الرؤية ، وتستحث الهمم ، وتصفى النفوس . وتدعو إلى جمع الكلمة . وتلك دروس ما كان أحوج العالم العربى إليها ، ونعتقد أنه أفاد منها ، ويعز عليه أن ينساها ، ونأمل أن يعمل دائما فى ضوئها .

وقد اتضحت معالم النهضة فى القرن العشرين ، وتحددت أهدافها ، واتسعت آفاقها . ويراد بها أن تكون نهضة عربية أولا تعبر عن العالم العربى فى آماله وآلامه ، تحكى واقعه ، وتصور شخصيته ، وتحتفظ للثقافة العربية بمكان لائق بين الثقافات العالمية . وفى فجر هذا القرن كانت هناك حيرة بين الشرق والغرب ، بين القديم والجديد ، بين التقليد والابتكار . ولا نزاع فى أن الأمر قد وضح الآن ، ذلك لأن العالم العربى يحرص على كيانه ووجوده وشخصيته . يريد أن يكون له فن وأدب ، وعلم وفلسفة ، وقد حقق فعلا بعض ما أراد ، وليس شىء أبعث على الثقة بالنفس من التحقيق والإنجاز . ويريد العالم العربى أكثر من هذا ، فيطمع فى أن يكون لفنه وأدبه منزلة بين الفنون

والآداب الأخرى ، وأن يسهم فى مضمار العلم والتكنولوجيا ، وأن يباهى بما يحقق من كشف واختراع . يريد فى اختصار أن يعيد مجد الماضى ، وأن يضيف إليه أمجاداً أخرى فى الحاضر .

٤ — ولغته نفسها كانت محل أخذ ورد ، لأن الاستعمار حاول أن يحل محلها لغات أخرى من تركية أو إنجليزية أو فرنسية . فهل تستطيع العربية أن تستعيد مكانتها فى مظاهر حياتنا على اختلافها؟ فى الصحافة والمدرسة ، فى المصنع والمتجر فى الإدارة الحكومية والأعمال العامة فى تعامل الأفراد ومصالحهم ؟ وقد آمنت مصر منذ عهد مبكر أنه لابد من لغة وطنية ، وتساءل فريق من الناس أهى الفصحى أم العامية ؟ وتلك بلبلة أخرى عشنا فيها زمناً ، ولكن لم يبق اليوم شك فى أن العربية هى اللغة الوطنية ، وأنها كفيلة بأن تحل محل العامية واللغات الأجنبية . وبدأ سعد زغلول منذ العقد الأول من هذا القرن فى تعريب المدرسة الابتدائية والثانوية الأميرية ، التى سبق للاستعمار أن كساها بكساء إنجليزى . وقد سارت مصر فى هذا الطريق شوطاً بعيداً ، فعربت الكتاب والمدرس واستكملت وسائل التعريب فى العلوم والفنون على اختلافها . ولم تقف عند المدرسة الثانوية ، بل جاوزتها إلى التعليم العالى والجامعى ، وعربت منه قدراً غير قليل ، والنية معقودة على تعريبه جميعه . وتعريب التعليم اليوم من القضايا التى تشغل العالم العربى بأسره . وقد تحقق منه قسط غير يسير . والغالبية العظمى تؤمن بضرورته ، ولا مناص من تعريبه جميعه ، يوم أن تتوفر وسائله . ومن الخطأ أن يعرب التعليم العالى قبل أن يتم تعريب المراحل السابقة ، وأولى بمعارضى هذا التعريب أن يسلموا أسلحتهم فى معركة فاشلة ، والمسألة مسألة زمن وإعداد .

والعربية التى يستمسك بها الآن غير تلك التى كانت تستعمل فى القرن الثامن عشر ، أو فى جزء كبير من القرن التاسع عشر ، إنها عربية من إملاء العصر وروحه . فهى سهلة سائغة ، لا غرابة فيها ولا تعقيد ، ولا زخرف ولا صنعة ، وهى واضحة دقيقة تصوب إلى المعنى وتؤديه فى إحكام ، ولا تحتاج فى الغالب إلى معجمات وقواميس ، تعنى باختيار الألفاظ المألوفة السهلة ، وبتبسيط الجمل وتوضيحها ، ويراد بها أن تكون يسيرة فى تعليمها وتعلمها .

يتخفف ما أمكن من نحوها وصرفها ، ولا يشغل الشباب من قواعدها إلا بالضروري والعملي ، ويسلك في كتابتها وإملائها أيسر السبل . يراد بها في اختصار أن تكون لغة الخاصة والعامة على السواء لأننا نعيش في عصر لا يقبل الخصوصيات ولا يسلم بالامتيازات . وعربية هذا شأنها تقترب فيها لغة الخطاب من لغة الكتابة ، وتضيق مسافة الخلف بين العامية والفصحى ، ولعلها تستطيع يوما أن تحل محل العاميات المتعددة .

وليس في الاعتزاز باللغة القومية ما يصرف عن تعلم اللغات الأجنبية . وتقضي النظم التعليمية في أغلب البلاد العربية بتعلم لغة أجنبية على الأقل ، وقد تضاف إليها ثانية . وهذه البلاد حساسة لأي تقصير في تعليم اللغة الأجنبية حساسيتها لما يحدث من تقصير في تعليم اللغة القومية ، وتكاد توزع كلها بين الفرنسية والإنجليزية ، فتسود الأولى في المغرب ، وتسود الثانية في المشرق ، وربما جمعت بلاد بينهما ، وقد تضاف إليهما الألمانية أو الإيطالية وهناك محاولات لتعميم الروسية ، ولعله لوحظ من قبل أن في العالم العربي استعداداً لتعلم اللغات الأجنبية ولا تزال مدارس اللغات ، وهي أجنبية الأصل ، تؤدي رسالتها ، وعليها إقبال ملحوظ . والعالم اليوم متشعب الصلات ومتعدد العلاقات ، ولا يمكن أن يستغني فيه عن تعلم لغات أجنبية ، وبقدر ما يسعى العرب إلى تعلم لغات غيرهم بدأ يسعى هؤلاء إلى تعلم لغتهم .

وبعد أن أشرنا إلى نشأة الثقافة العربية وتطورها ، وبينا أن نهضتنا الثقافية المعاصرة تصعد إلى القرن التاسع عشر ، ظهرت بوادرها في مصر أولا ، ثم امتدت شيئاً فشيئاً إلى بلاد عربية أخرى . ويعتبر القرن العشرون البدء الحقيقي لهذه النهضة ، لأنه قرن التحرر والاستقلال ، قرن الازدهار والرخاء . وأريد بها أن تكون ثقافة عربية أولا تعبر عن العالم العربي في آماله وآلامه ، ولم يكن غريباً أن تعنى باللغة القومية ، وأن تعتد بتراثها القديم . ولكنها لم تقف عند هذا بل تفتحت أعينها لعلوم العصر وفنونه ، وأخذت منها ما أخذت .

١ — بدأت النهضة الثقافية العربية الحالية بالعلوم الإنسانية ، شأنها شأن النهضة الأوربية الحديثة ، فاتجهت أولا نحو التراث العربى القديم تحى معالمه وتستلهم منه .

والتراث العربى خصب فسيح ، وهو دون نزاع أغنى مخلفات الحضارات القديمة والمتوسطة ، لأنه صنيع عدة شعوب ووليد ثلاثة عشر قرنا . وجه إليه الدين أصلا ، فكان الاشتغال به عبادة ، وتعهده تقرباً . تعددت ألوانه ، وتنوعت أبوابه ، فيه شرعيات ولغويات ، فيه تاريخ وقصص ، فيه فن وأدب فيه علم وفلسفة . ولإعطاء فكرة عن سعته وتنوع مواده ، يكفى أن نشير إلى مرجعين اثنين عنيا بحصره . وقد ظهر أولهما فى القرن العاشر الميلادى ، وهو « الفهرست » لابن النديم ، الذى شاء أن يحصى ما ألف أو ترجم إلى العربية لعهده ، وأسفر إحصاؤه عن عشرات العلوم والفنون ، ومئات المؤلفات ، ومئات المؤلفين . وظهر الثانى فى القرن السابع عشر ، وهو : « كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون » ، ويشتمل على نحو ٣٠٠ فن ، وعدة آلاف مؤلف ، ونحو ١٥٠٠٠ كتاب . ورأت الجامعة العربية قياما بواجبها الثقافى ، أن تجمع هذه المخطوطات ، وأن تيسر أمرها للدارسين والباحثين ، فأنشأت عام ١٩٤٧ معهــداً للمخطوطات استطاع حتى الآن أن يوفد عشرات البعثات إلى العالم العربى والعالم الإسلامى ، بل إلى بعض العواصم الأوربية بحثا عن المخطوطات وحصل على صور لما يزيد عن ٣٠ ألف منها ويعد هذا المعهد مركزاً كبيرا من مراكز الثقافة العربية اليوم .

وقد تنبه المستشرقون إلى هذه الثروة الفكرية الهامة ، وقاموا بإحياء قدر منها فى القرن الماضى . ثم اضطلع العرب أنفسهم بذلك ، وبدءوا فى القرن نفسه يحققون وينشرون . واشتد نشاطهم فى القرن الحالى . فحاولوا أن يحملوا العبء عمن سبقهم من المستشرقين وعنوا بذلك عناية خاصة . وأصبح إحياء التراث بابا فسيحاً من أبواب الثقافة العربية المعاصرة ، وتكاد تسهم فيه البلاد العربية جميعها ، وتخصص فيه بعض الناشرين ، وله نسبة ملحوظة بين ما يظهر من كتب عربية كل عام . وقد ينشر مؤلف واحد مرتين فى آن واحد ببلدين عربيين

وحبذا لو نظم ذلك ونسق ، ورتبت فيه أولويات ، ووزع بين الناشرين فى العالم العربى ، على نحو ما يتم من تنسيق بين انجلترا والولايات المتحدة فى نشر كبار المؤلفات الإنجليزية . والمهم على كل حال أن يقوم بالتحقيق والنشر من هو أهل له ، وأن يفرغ كل ناشر لما تخصص فيه .

٢ — وإلى جانب النشر والتحقيق تجىء الدراسات اللغوية والأدبية ، وهى بدورها من باكورات النهضات الثقافية ، يبدأ بها لأنها من وسائل النهوض والتقدم . وسبق لى أن أشرت إلى محاولات الاستعمار فى فرض لغاته ، أملا أن تحل محله العربية ، ولم تتردد بعض القوى الوطنية فى معارضة ذلك . هذا إلى أن مستحدثات العلم والحضارة جلبت مسميات وأسماء غير عربية ، فإما أن تقبل المسميات بأسمائها ، وإما أن توضع لها أسماء جديدة ، والعربية نفسها كسائر اللغات ظاهرة اجتماعية تخضع لسنة النشوء والارتقاء . وقد دفع ذلك كله ، أسوة بما حدث فى فرنسا فى القرن السابع عشر ، إلى التفكير فى إنشاء مجامع لغوية تحافظ على سلامة اللغة ، وتجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ، ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر . وسبقت مصر إلى ذلك ، فأنشأت عام ١٨٩٢ مجمعاً أهلياً ، ومضت تطور الفكرة زمناً إلى أن استقر الرأى عام ١٩٣٢ على إنشاء مجمع حكومى مثلت فيه البلاد العربية ونفر من كبار المستعربين ، وهو القائم إلى اليوم . وقد نجح هذا المجمع فى إثبات أن اللغة ملك لأهلها ، وأن فى وسعهم أن ينموها ويغذوها . واستطاع أن يبسط قواعدها ، وأن ييسر أقيستها ، وعنى خاصة بلغة العلم وألفاظ الحضارة ، واستحدث مناهج جديدة فى التأليف المعجمى . وأخذ بالفكرة بعض البلاد العربية ، فأنشئ مجمع دمشق عام ١٩١٩ ، ومجمع بغداد عام ١٩٤٧ ، وتهيأ بلاد عربية أخرى لإنشاء مجامع جديدة ، وكان لابد من قيام اتحاد يربط هذه المجامع وينسق عملها وقد أنشىء فعلا منذ ثلاث سنوات .

٣ — وأما الإنتاج الأدبى فما أكثره وما أغزره فيه أخذ ومحاكاة ، وفيه إبداع وابتكار . يحاكى أروع ما عرف فى الماضى ، ويبتكر صوراً جديدة من الحاضر . وكان للتنافس بين القديم والجديد شأن فى ظهور أدب يتسم بسمات العصر ومميزاته . فتوارد على الشعر العربى مدارس وشعراء يحاكون الشعر

العباسي في أزهى عصوره ، أو ينحون منحى الرومانسية الغربية التي تغنى بوحدة الموضوع ، وتدعو إلى أن يعود الأديب إلى نفسه ، ويصور ما يدور بخلده . ولم يقف الأمر عند موضوع الشعر وأخيلته ، بل امتد إلى وزنه وقافيته ، وظهر الشعر الحر الذى يبدو وكأنه محاكاة واضحة لمؤثرات أجنبية . وكم اشتدت الخصومة بين أنصار الشعر القديم وأنصار الشعر الجديد ، ولم يخل ذلك من تفاعل بينهما فتوسع أنصار القديم فى أوزانهم وقوافيهم ، وحاول أنصار الجديد أن يكسوا شعرهم بقدر من الوزن والموسيقى . وفى النثر ألوان جديدة وطريفة : من مقال وقصة ومسرحية ، وسيرة ذاتية . وما المقال إلا تطور للمقامة القديمة ، وقد ساعدت الصحافة والحزبية السياسية على هذا التطور ، ونمته الدراسات الجامعية فكان للمقال شأن فى الدعوات الإصلاحية والحركات السياسية ، والنقد الأدبى ، والتحليل العلمى وهناك مقالات سمت إلى مستوى الأدب الرفيع ، وصارت نموذجاً يحتذى بين القراء والكتاب . والقصة من أغزر أبواب الأدب العربى المعاصر اعتمدت على الملاحظة الدقيقة والتحليلات العميقة . رسمت البيئة العربية رسما معبراً ، وكشفت عن زوايا خفية لدى الفرد والمجتمع . وما المسرحية إلا قصة تعتمد على الحوار ، وضعت شعراً ونثراً ، وعبرت عن الماضى الدفين ، أو عن الواقع الصريح ، تنحو منحى النقد والسخرية ، أو تحمل راية الإصلاح والتجديد . وفى الأدب العربى المعاصر قصص ومسرحيات لا تقل عن نظائرها فى الآداب العالمية ، وترجم قدر منها إلى عدة لغات . والسيرة معروفة فى الأدب العربى من قديم ، وقد نحت اليوم منحى جديداً ، وأجملها السيرة الذاتية التى تكشف عن أعماق النفس وتسجل اعترافات أخاذة ، وتوضح بعض معالم التاريخ ونعتقد أن فى كل هذا ما يبين كيف تطور الأدب العربى المعاصر : بدأ بالتقليد ، ثم انتقل إلى تفاعل بين القديم والجديد ، وانتهى أخيراً إلى مرحلة اكتملت فيها شخصيته واستقامت معالمه ، واتضح استقلاله .

٤ — والفن والأدب مرتبطان ومتعاونان . وقد عرف العالم العربى الفن من قديم ، وربما اجتمعت فى بلد واحد فنون متلاحقة فعرفت مصر الفن الفرعونى والرومانى ، وعرفت الفن القبطى والإسلامى . ولمصر الحديثة سبق فى الإنتاج الفنى ، فظهرت فيها الفنون التشكيلية فى عهد إسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) ،

وأنتج بعض الفنانين الفرنسيين لوحات رائعة تمثل الحياة الشعبية فى مصر إبان القرن التاسع عشر. وتلاها فى القرن العشرين إنتاج لا يقل عنها روعة ، وقد اضطلع به المصريون أنفسهم. وإلى جانب التصوير عنى بالنحت كذلك ، واستعادت مصر شيئاً من فنها الفرعونى القديم . وللفنانين المصريين معارضهم التى أقاموها داخل البلاد وخارجها ، وأحرزوا قصب السبق فى بعض المعارض الدولية ، وفى العواصم الكبرى ، وبخاصة القاهرة والإسكندرية ، متاحف ومراسم متعددة، وبدئ فى إنشاء المعاهد الفنية منذ عهد مبكر : ففتحت « مدرسة الفنون الجميلة » فى القاهرة أبوابها عام ١٩٠٨ وتلتها معاهد أخرى ، ولم تتخلف المرأة فى ممارسة الفنون الجميلة ، وفى عام ١٩٤٠ أنشئ أول معهد عال لمعلمات الفنون الجميلة . وفكر أيضاً فى إنشاء جمعيات فنية ، وأولاها «جمعية محبى الفنون الجميلة » التى تأسست عام ١٩٢٢ ولا تزال تؤدى رسالتها إلى اليوم . وفى البلاد العربية الآخرى خطوات فى سبيل الفن التشكيلى ، بعضها بادئ ووصل بعضها الآخر إلى درجة لابأس بها وفى التاريخ ، ومناظر الطبيعة الحية ، والأحداث السياسية الكبرى غذاء مستمر لفنانى العرب شرقاً وغرباً .

٥ — ومن الفنون العربية : الموسيقى والغناء ، ولهما تاريخ طويل يرجع إلى العصر الجاهلى ، يسير بسير الحضارة . وقد ازدهرت الموسيقى العربية فى العصر العباسى ازدهاراً كبيراً ، فأخذت عن الفرس واليونان ما أخذت ، وأبدعت تحت تأثير الحضارة والمدنية ما أبدعت ، وكان لها رجالها البارزون من موسيقيين ومغنين. ولم يقنع العرب والمسلمون فى الموسيقى بالتطبيق والعمل ، بل أضافوا إليه البحث والنظر ، فكتبوا فى عالم الموسيقى وألفوا ، كانت لهم فيه آراء ونظريات ثم عدا الزمان على هذه النهضة الموسيقية . وتوقفت أو كادت مع توقف مظاهر الحضارة العربيـة فى عصور الظلمة والانحطاط . ويوم أن استيقظ العرب استيقظت معهم فنونهم ، فأخذوا يحيون موسيقاهم بألحانها وأنغامها ، بمقاماتها وضروبها ، بموشحاتها وقصائدها ، وقد رغب محمد على فى أن يربى جنوده تربية موسيقية ، فعنى بالموسيقى العسكرية ، معولا على المعزوفات التركية ، واستحدث فناً موسيقياً شبه تركى . بيد أن هذه المعزوفات التركية ، هى التى

وجهت الأنظار من جديد نحو الموسيقى العربية ، وحظيت مصر بمجموعة من كبار الفنانين الذين حاولوا إحياء هذه الموسيقى العربية وتطويرها ، أمثال عبده الحامولى (١٩٠١) ، ومحمد عثمان (١٩٠٠) وأسهم المسرح الغنائى بمصر فى النهضة الموسيقية المعاصرة ، وعلى رأسه سلامة حجازى (١٩١٧) ، وسيد درويش (١٩٢٣) . وجاءت السينما والإذاعة المسموعة والمرئية ، ففتحت أمام الموسيقى ميادين جديدة ، وعاونت على تربية الشعب تربية موسيقية ، وأفسحت السبيل للمؤلفين والملحنين والمغنين . ودفعت أم كلثوم (١٩٧٥) الغناء العربى دفعة قوية كان لها صداها فى الشرق والغرب .

ومنذ أوائل هذا القرن أخذت البلاد العربية عامة تتعهد فيها الموسيقى ، ويحاول شمال أفريقيا جاهداً أن يحيي الموسيقى الأندلسية ، وفى المشرق العربى نغمات وأصوات عربية أصيلة . وعقدت للموسيقى مؤتمرات ، وأنشئت معاهد متخصصة ، وأرسلت بعثات إلى أوربا لاستكمال الدراسة الموسيقية . وبذلت جهود فى مزج الفن العربى بالفن الأوربى ، فعرفت السمفونية ، وفرق الاستعراض . ولا يزال للموسيقى العربية طلابها وعشاقها .

٦ - والعمارة من الفنون التى تأثرت بالنهضة الحديثة ، وكان طبيعياً أن يتجه محمد على فى مصر نحو تركيا أو نحو أوربا ليأخذ عنها مظاهر الحضارة والعمران . فاستقدم المهندسين والفنيين الأوربيين لإنشاء القناطر ودور الصناعة وأحواض السفن ، وعنى خلفاؤه بتخطيط المدن وتشييد القصور على مقربة من مجرى ماء ، على نحو ما حدث فى البسفور وباريس . وانصب العمران فى القرن التاسع عشر على القاهرة والإسكندرية بوجه خاص ، وكان حظ القاهرة أعظم . فأنشئ فيها مسجد محمد على الشهير بالقلعة ، وقصر عابدين ، وخططت شوارع جديدة ، وبنيت دار الأوبرا التى عمرت نحو قرن والتهمها الحريق أخيراً ، وأسس « كوبرى » قصر النيل . وفى الإسكندرية خطط بعض الشوارع والميادين وأنشئت قصور أهمها رأس التين والمنتزه . ولم يلتزم فى ذلك كله طراز خاص ، فجمع بين الكلاسيكى والقوطى ، بين الفرعونى والإسلامى ، فى شئ من التلفيق والتوفيق . وفى القرن العشرين امتد العمران إلى عواصم أخرى شمالا وجنوباً ، واتسعت آفاقه . وأنشئت مدرسة «المهندسخانة» لتخريج مهندسين

مصريين ، وأوفد عدد منهم إلى أوربا وأمريكا ، وحل المهندس المصرى محل المهندس الأجنبي . وازداد اختلاط الطرز بعضها ببعض ، لا سيما وقد ضعفت فى أوربا نفسها روح الاستمساك بالطراز الكلاسيكى وأصبحت الخطوط المستقيمة الرمز السائد ، وغزت ناطحات السحاب القاهرة والإسكندرية ، كما غزت فى أوربا عواصم أخرى كانت أميل إلى المحافظة . وسارت العمارة فى الأقطار العربية سيرها فى مصر ، وإن تأخر تطورها بعض الوقت ، فحاكت فى أوائل هذا القرن الطراز السائد فى تركيا ثم أخذت تتأثر بالطرز الأوربية والأمريكية وبدأت تظهر فيه أخيراً ناطحات السحاب ، وعولت فى كثير من إنشاءاتها ، وبخاصة فى المشرق ، على المهندسين المصريين ، ولم يبق للفن الإسلامى مجال يذكر ، اللهم إلا فى بناء بعض المساجد والمعاهد والأضرحة ، أو فى ترميم بعض الآثار القديمة ويرجع ذلك فى الغالب إلى زيادة تكاليفه ، وصعوبة صيانته وتعهده .

ونختم هذه السلسلة بإلقاء نظرة على موقف الثقافة العربية من العلم والفلسفة وموقفها منهما اليوم لا يختلف عنه بالأمس إبان ازدهار الحضارة الإسلامية ، فقد اتسع صدر هذه الحضارة لعلوم الشرق والغرب ، وأخذت منها ما أخذت وأضافت إليها ما أضافت .

وكان لها شأن فى إثارة البحث العلمى فى الغرب إبان القرون الوسطى والتاريخ الحديث . والثقافة العربية المعاصرة تؤمن بأنا نعيش حقاً فى عصر العلم والتكنولوجيا ، وتسلم بأنها تخلفت فى معالجتهما بعض الشيء ، وتحرص اليوم على أن تستحث الخطى وأن تتدارك ما فات .

١ – ولقد قفز العلم والفلسفة فى البلاد العربية قفزة ملحوظة ، وهى بلاشك وليدة تحرر وانفتاح ، ووعى ويقظة . تحرر مهدت له دعوة النهوض والإصلاح التى نادى بها أمثال جمال الدين الأفغانى (١٨٩٧) ومحمد عبده (١٩٠٥) ، وهى دعوة تعتد بالإنسان ، وتفسح المجال لعقله وتفكيره ، وانفتاح على الغرب وعلى ما حقق فى ميادين البحث والكشف والاختراع ورغبة صادقة فى محاكاته والسير على نهجه . ووعى يدرك مدى التخلف الطويل ، وينشد نهوضاً وتجديداً يسابق بهما الزمن . وقد أدرك العالم العربى ما للعلم من شأن فى هذا كله ، فاتجه فى القرن العشرين نحو نشر التعليم ما وسعه ، وعد ذلك من أهم أهدافه . فرصد

له فى ميزانيته مبالغ زادت عاما بعد عام ، واستعان بالعلماء والخبراء العرب أو الأجانب كلما دعت إلى ذلك حاجة ، وأوفد البعوث إلى الخارج استكمالا للدرس والبحث . ولناق نظرة على نمو التعليم الجامعى ، وإنه لنمو سريع ومطرد فقد عرفت مصر الحياة الجامعية فى بدء القرن العشرين ، وأسست عام ١٩٠٨ جامعتها الأهلية التى كانت تسمى « الجامعة المصرية القديمة » وفى أقل من عشرين سنة تحولت إلى جامعة حكومية هى ما يسمى الآن « جامعة القاهرة » وتلتها فى نحو خمسين سنة سبع جامعات جديدة ، وهناك أخرى فى طريق الإعداد والتكوين ، حيث يكون لكل محافظة جامعتها الخاصة . ومنذ عشر سنوات لم يكن فى العراق إلا جامعة واحدة وتوفر لديها الآن أربع ، وعلى هذا النحو سارت سوريا ، وانتقلت من جامعة واحدة إلى ثلاث . وفى لبنان على صغرها أربع جامعات ، إذا تركنا جانباً بعض المعاهدة الأجنبية ، وجامعاتها قسمان : اثنتان عربيتان واثنتان من أصل أجنبي . وفى نحو عشر سنوات توفر للجزائر ثلاث جامعات . وللسعودية والكويت جامعاتهما فى المشرق ، ولتونس والمغرب جامعاتهما فى المغرب ، وربما اجتمعت فى المدينة الواحدة عدة جامعات ، كما هو الشأن فى القاهرة وبيروت . وبالجملة فى العالم العربى الآن ما يزيد على ٤٠ جامعة على رأسها اتحاد ينسق بينها ، ويربط بعضها ببعض ، وفى هذا ما فيه من تعاون واتصال ، ولا شك فى أن هذا النمو ما يبعث على الأمل وينشر ألوية النور والعرفان . وقد أسهم الأستاذ والكتاب المصرى فى ذلك ، وعليهما وحدهما عولت بعض الجامعات العربية الناشئة .

٢ — ومن بين هذه الجامعات ما استوعب أبواب البحث كلها ، فاشتمل على كليات للدراسات الإنسانية ، وأخرى للعلوم الرياضية والطبيعية ، وفى كل كلية أقسام وفروع متعددة . ولم تفقد الدراسات الإنسانية منزلتها وبها بدأ معظم هذه الجامعات ، ولا يزال بعضها مقصوراً عليها . والعلوم الإسلامية من تفسير وحديث ، وفقه وأصول ، جزء منها ، وفى كثير من الجامعات العربية كليات وأقسام متخصصة فيها . وقد اضطلع بها أساتذة أعلام طوروا وجددوا ، كشفوا عما فيها من عمق وأصالة ، وبرهنوا على أن فيها ما يلائم العصر ويسد حاجاته . كتبوا وألفوا ولهم إنتاج لا يقل عن إنتاج الشيوخ السابقين . وفى التاريخ عنى

الأساتذة العرب بالحضارة الإسلامية عناية خاصة ، فوضحوا كثيراً من جوانبها ومحصوا بعض ما رميت به أو أخذ عليها ، وجاءوا بإضافات لها وزنها . واضطلع مؤرخون آخرون بحفريات حول الحضارات القديمة من فرعونية ورومانية ، أو بابلية وأشورية ، وأسفرت أبحاثهم عن نتائج هامة ، والفكر الإسلامى فى نصف القرن الأخير مدين للباحثين ، والجامعيين العرب ، قاموا بجمع تراثه ، وحققوا منه ما حققوا ، ونشروا ما نشروا . وحاولوا أن يترجموا منه قدراً إلى لغات أخرى ، وكم نود باسم التبادل الثقافى أن تنشط هذه الترجمة وأن يتسع مداها . وحاول مؤرخو الفكر والفلسفة أن يعرفوا بمدارس إسلامية غفل الناس عنها ، وأن يترجموا لرجال بقوا مستورين فى غياهب التاريخ . ولا يفوتنا أن نشير إلى أن من بين علماء الاجتماع العرب من قام بدراسات حقلية هامة ، ومن بين علماء النفس من اضطلع بدراسات وتجارب مقنعة .

٣ — ويحس العالم العربى إحساساً صادقاً بأنه يعيش فى عصر العلم والتكنولوجيا فى عصر الملاحظة والتجربة ، فأعد لذلك عدته من معامل ومراصد ، من محطات تجارب ومراكز بحوث ، من معاهد ومؤسسات ورغبة فى تشجيع العلم والسهر عليه خصصت وزارات للبحث العلمى ، لها أجهزتها ووسائلها ، لها توجيهاتها وإشرافها ، واستكمل بعض الجامعات العربية فروع الدراسات الطبيعية والرياضية على اختلافها ، من طب وفسيولوجيا ، وكيمياء وصيدلة ، ونبات وحيوان ، وجيولوجيا وبترول ، وطبيعة ورياضة ، وهندسة وميكانيكا ، وكهرباء وإيلكترونيات . وفى كل فرع من هذه الفروع أساتذة متخصصون لهم تجاربهم وأبحاثهم بالعربية أو الإنجليزية ، ومنها ما نشر فى بعض المجلات العلمية ، أو ما كان محل تنويه وتعليق فى المؤتمرات الدولية . وكان طبيعيا أن يبرزوا فى بعض الميادين الخاصة بهم كالنباتات الصحراوية والطبية ، أو فى بعض أمراض البيئة وأعراضها ، وبينهم أعلام يعدون فى مصاف الأطباء والعلماء العالميين ، ولكل مادة من هذه المواد جمعياتها وهيئاتها التى تشجع عليها ، وتتابع نشاطها ، وتنظم لقاءاتها ومؤتمراتها ، وتنشر أبحاثها ، وتخرج صحيفة باسمها . وفى مصر وحدها ما يزيد على أربعين جمعية علمية ، على رأسها الاتحاد العلمى المصرى

الذى يربطها بالاتحادات العلمية فى العالم العربى . وفى هذه الجمعيات وتلك الاتحادات تبادل وتعاون ، وربط وتنسيق .

٤ — ولم يبق إلا أن نقول كلمة عن الثقافة الجماهيرية ، وهى ظاهرة هامة من ظواهر المجتمع المعاصر فى البلاد النامية والمتقدمة على السواء ، ولا شك فى أن البلاد النامية إليها أحوج . إنها ثقافة شعبية تخاطب الجميع وتتنزل عند مستواهم السائد ، ويراد بها أن تكمل نقصا ، أو أن تضيف جديداً فى عالم نفاجأ فيه كل يوم بالجديد . وكانت الثقافة بالأمس وقفا على الخاصة ، ينعمون بها وحدهم ، ويعلنون باسمها تفوقهم ولا تقر الديمقراطية ولا الاشتراكية هذه التفرقة الظالمة ، ولا هذا التمييز الذى لا أساس له . والحق أن الثقافة ملك للجميع وقدر منها ضرورى للحياة ، ويزيد هذا القدر كلما تنوعت وسائل الحياة وتعقدت . وعلى الدولة أن تيسر أمر هذه الثقافة وأن تسهر عليها .

وقد أدرك العالم العربى ما لها من شأن فى حياتنا الحاضرة ، فوقف عليها وزارات خاصة ، وليست مهمتها بأقل من مهمة وزارة التربية والتعليم ، ترعى الكهول والشيوخ فى حين ترعى الأخرى الأطفال والشبان . لها مراكزها ومعاهدها ، وفى هذه المراكز تكافح الأمية ، وتيسر القراءة ، وتقدم المعلومات النافعة ، ولا بأس من قدر من وسائل الترفيه والتسلية . ويدخل فى اختصاص هذه الوزارات مراقبة المسرح والسينما ، وتتبعها وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة . فتعددت وسائلها ، وتنوعت سبلها . وقديماً كان المسجد الوسيلة الوحيدة لتقديم شيء من الثقافة الشعبية والدينية ، وفى الإمكان أن يضم إلى الوسائل السابقة . والمهم أن توضع خطة واضحة للثقافة الجماهيرية ، فتحدد أهدافها ، وتتخير وسائلها ، وتطرد فيها الخطى فى دقة وانتظام . ومن الخطأ أن تطغى عليها اعتبارات شخصية أو دعايات سياسية ، فينصرف الجمهور عنها ، ولا تؤدى وظيفتها على الوجه الأكمل .

خاتمة :

هذه هى الثقافة العربية اليوم ، وفى حاضرها ما يسمح بالحكم على شيء من مستقبلها ويؤيدنا فى ذلك ما حدث من تطور فى بلاد أخرى مرت بظروف شبيهة بظروفها ونعتقد أنه فى أخريات هذا القرن ستنمحى الأمية فى كثير من البلاد العربية ،

وستسير الفتاة عامة إلى جانب الفتى فى طلب العلم والحرص عليه . والإقبال على التعليم فى تزايد مستمر ، ويفوق عدد طلابه سنوياً كل تقدير . والمدارس الثانوية والمتوسطة سخية كل السخاء فى عطائها ، وخريجوها فى ازدياد مطرد . ولا سبيل ، بل لا مصلحة فى أن يستوعبهم جميعاً التعليم العالى والجامعى . وأولى بقدر كبير منهم أن يواجه طلبات المجتمع المختلفة ، وأن ينهض بالاقتصاد القومى فى شتى نواحيه من زراعة وصناعة وتجارة . وفى اختصار : نتوقع فى نهاية هذا القرن أن يرتفع المستوى الثقافى العام للفرد فى العالم العربى . وبدأنا نلحظ بالفعل أن الأجيال الصاعدة أكمل ثقافة وأتم معرفة من الأجيال التى سبقتها ، وليس شىء أعون على النهوض والتقدم من انتشار العلم والمعرفة .

ولم يبق اليوم شك فى أن العربية هى اللغة القومية ، يستمسك بها العالم العربى جميعه ، يجدّ فى طلبها وتعلمها ، ويتدارك ما فاته منها ، وللجزائر فى ذلك تجربة جادة فهى الآن فى معركة التعريب بعد أن فرغت من معركة التحرير وسيكون لتجربتها صدى شرقاً وغرباً ، ومنذ أوائل القرن العشرين تُبذل جهود متلاحقة لتبسيط العربية وتيسيرها ، فتهذب ألفاظها ، وتختصر قواعدها وتبسط إملاؤها ، وتيسر كتابتها وقد أنجز من ذلك قدر لا بأس به . ولن تقف عربية اليوم السهلة الميسرة عند العالم العربى وحده ، بل ينتظر لها امتداد فى آسيا وأفريقيا ، وحياة جديدة فى البلاد الإسلامية خاصة. ونتوقع أن يزداد طلابها من أبناء أوربا وأمريكا ، توثيقاً للعلاقات السياسية والاقتصادية . وفى المعاهدات الثقافية المعقودة بين العالم العربى والبلاد الأخرى ما يعزز ذلك ويؤكده . وبدأنا فعلا نلاحظ شيئا من هذا فيمن يفدون إلى المعاهد والجامعات العربية من طلاب اللغة والفكر الإسلامى بين شرقيين وغربيين ، ويزداد عددهم باطراد ، وتتأهب البلاد العربية لاستقبالهم . وفى انتشار التعليم فى العالم العربى ما يقرب لغة الخطاب من لغة الكتابة ، ويضيق مسافة الخلف بين الفصحى والدارجة ، على نحو ما حدث فى الإنجليزية أو الفرنسية ، ولا نزاع فى أن عامية القاهرة اليوم مثلا أرق وأسمى من عامية الأمس . وفى المسرح والسينما والإذاعة والصحافة ، وتبادل المعلمين والفنيين ما يقرب اللهجات العربية بعضها من بعض ، وما قد يؤدى إلى قيام لهجة واحدة مشتركة وسائدة .

وفى ثقافة اليوم تفتح وانطلاق ، فهى سائرة ومتقدمة لا تخشى الجديد ولا تنفر منه ، وما أشبهها فى تفتحها بتلك الثقافة التى قامت عليها النهضة الإسلامية الكبرى . ترعى للدين حقوقه ، ولكن فى غير جمود أو تزمت ، وترى أن ليس فى تعاليمه ما يسد الطريق أو يضيق الآفاق وأن العلم قدتآخى مع الإيمان قديماً ، ولا يعز عليه أن يتآخى معه إلى النهاية . فلن تتوقف النهضة العربية فى طريقها ، ولن تبالى بتلك الأصوات الهدامة أو التى تدعو إلى التراجع والجمود . ولا نظنها أيضاً تستجيب لدعوات التحرر الخالص والإباحية المطلقة ، برغم ما تعتمد عليه هذه الدعوات من وسائل خفية وقوى دولية ، وستبقى الثقافة العربية دائماً واقفة عند حدودها ، مؤمنة بقيمها مستمسكة بمعالمها مقتنعة بأنه لا تعارض بين الدين والدنيا .

وكشفت ثقافة اليوم عن الإنسان العربى فى حقوقه وواجباته ، فقدرت هذه الحقوق قدرها ، ونادت بالعدالة والمساواة ، ودعت إلى محاربة الجهل والفقر والمرض ، وخطت فى ذلك خطوات فسيحة ، وستستمر فى طريقها دون تردد . وأكد هذا ضرورة أداء الواجبات ، لأن المواطن الحق هو من يعطى بقدر ما يأخذ ، ومن يسهم بقسط فى بنيان مجتمعه . فشعر الفرد العربى بوجوده ، واسترد اعتباره ، وتخلص من عقدة الأجنبى الأوربى ، وامتلأ ثقة بنفسه . وبدأ ينتج وهو مؤمن بكفاءته وقدرته على الإتقان والتجديد . واشترك مع غيره فى الإنتاج ، فلم يتخلف عن السير ، وربما برز على بعض أقرانه من الأوربيين والأمريكيين . وهو طموح إلى أن يكون لثقافته شأن يذكر بين الثقافات العالمية الكبرى ، وإنه لواصل إن شاء الله .

اللغة المثالية

معالى الرئيس ، سادتى :

إن هذه المؤسسة التى ترعونها وليدة حاجة شعر بها العامة ولمسها الخاصة ، ومبعث أمل ترجيه مصر والشرق معاً ، بل والبلاد الإسلامية على اختلافها ، وسبيل نهوض وتجديد يفتح على الناطقين بالضاد ألواناً من الألفاظ المستساغة والعبارات السليمة ، وييسر لهم وسائل التفاهم فى حياتهم العملية والعلمية ، ومنار هداية يجمع الناس على اصطلاحات مشتركة ، ودوال متفق عليها وليس شىء أبعث على الاضطراب فى أمة من أن تضطرب فيها الألسنة والأقلام ورمز خلود وأبدية ، فهى ليست مؤسسة الأمس واليوم فحسب ، بل ومؤسسة الغد المتكرر المستمر ، تعملون فيها باسم الزمن وتحت سلطانه ، ولكنكم كثيراً ما خرجتم على حدوده ومعالمه ، تلائمون بين الحاضر والماضى لتعدوا عدة صالحة للمستقبل البعيد .

ولقد قمتم عليها ثلاث عشرة سنة أو يزيد فى رعاية خالصة وحدب دائم ، واعتنقتم مبدأها فى إيمان راسخ وشغف عظيم ، فلم يقعد بكم عن السير أعاصير الحرب ولا هوجاء السياسة ، ولم يصرفكم عن غرضكم اعتراض جامح ولا نقد غير برىء . واستطعتم فى هذه الفترة القصيرة أن تذللوا كثيراً من الصعاب وترسموا المعالم وتحددوا المناهج ، وأصبحتم ولكم تقاليد ليس لنا إلا أن نسير عليها ونهتدى بهديها .

وإنا لنشكركم أصدق الشكر على تلك الكلمات الطيبة التى تفضل بها معالى الرئيس وحضرة الأستاذ أحمد أمين بك فشرفانا بها ، وتلك الصفات الكريمة التى

أسبغاها علينا . وهذه حفاوة بالغة لا أظن أن هناك ما يبررها اللهم إلا كرمكم ، وتشجيع مثير للهمم نعتز به وننتظره منكم .

وكيف لا وقد تتلمذنا جميعاً لكم مباشرة أو بالواسطة ، وليس شيء أحب إلى الأستاذ من أن يشجع تلاميذه ويأخذ بيدهم ، وكم يسعدنا أن نستأنف هذه التلمذة ، ونستعيد معكم عن قرب عهد البحث والطلب ، لا سيما وفي معهدكم دروس ما أنفعها وما أحوجنا إليها ، وأخصها بالذكر ثلاثة : عمل صامت ، وتعاون صادق ، واعتدال وحكمة .

فأما صمتكم في عملكم فنغمة مريحة في موسيقانا اليومية الملأى بالجلبة والضوضاء ، وإنتاجكم الهادىء نسمة وحيدة في جونا الذى أفسدته الدعاية والإعلان . ولا أدل على هذا الهدوء وذلك الصمت من محاضر جلساتكم ، فإن من يطلع عليها يرى فيها نفائس آثرتم أن تخفوها زمناً وإن كانت قد استوفت بحثاً ، وثماراً طيبة شئتم أن تحتفظوا بها حينا وإن كانت قد اكتملت نضجاً وعبثاً حاول الجمهور أن يستثيركم وأن يستعجل نتائجكم ، بل قد يكون في بعض التعديلات التى أدخلت على قانون إنشاء المجمع ما ينزع إلى الخروج بكم إلى الحياة كما يقولون — ولكنكم أبيتم إلا أن تعودوا إلى سنتكم وتركنوا إلى صمتكم وهدوئكم .

وأما تعاونكم فصادق وأكيد ، لأن مبعثه خير وأساسه حق ، التقيتم باسم الخير العام ، وتضافرتم في سبيل البحث عن الحقيقة . وكم يبهرنا منظركم في مؤتمراتكم وأنتم جلوس : المصرى إلى جانب العراقى ، والسورى يفسح للفرنسى ، والألمانى يؤازر الفرنسى ، لا يباعد بينكم تعدد الوطن ولا يفرقكم اختلاف الدين ما دامت الفصحى قد ربطتكم برباطها الوثيق . ولقد تخلف عن المصريين إخوانهم المشارقة والمستشرقون عام ١٩٣٩ ، فرأوا أن يؤجلوا دورتهم وأن يوقفوا العمل من أجلهم . تتعدد لجانكم وتتشعب أبحاثكم ، ثم لا تلبثون في برلمانكم هذا أن تلتقوا عند رأى واحد ، ولا شيء أعون على عظائم الأمور من تعاون صادق وتضافر أكيد .

وأما حكمتكم فواضحة تمام الوضوح فى آرائكم . واعتدالكم تشهد به قراراتكم .. تتباينون وتتعارضون ، ويدافع كل عن وجهة نظره ، وإن أنس لا أنسى ذلك النضال الرهيب والأخاذ الذى تابعناه فى حماس وتشوق والذى عقدتم بسببه جلسات عدة لتفصلوا فى متن اللغة ضيقاً وسعة ، وفى الكتابة العربية ووسائل تيسيرها ، صراع عنيف يؤذن بالحيوية ويترجم عما يصادفكم من صعاب . ولكم يخيل للبعيدين عنكم أن مسافة الخلف بينكم عظيمة ، ثم يدهشهم أن يجدوكم أخيراً قد انتهيتم إلى رأى جامع وكلمة سواء . تواجهون القديم بالجديد ، وتقابلون بين ما أحله اللغويون وما حرموه ، ثم تخرجون من هذا بحلول معقولة وأحكام سليمة . فقلتم بالتعريب إلى جانب البحث عن نفائس الماضى واستخراج كنوزه ، وأجزتم النسب إلى جمع التكسير كما ينسب إلى المفرد . كل ذلك لإيمانكم بأن اللغات فى حركة دائمة وتطور مستمر ، وشعوركم بواجبكم نحو تيسير هذه الحركة وحماية هذا التطور .

* * *

أيها السادة :

لئن كان بعلم اللغات المقارن قوانين ، فمن أعمها وأصدقها أن اللغات جميعها تخضع لقانون السير والحركة والتغير والتحول ، شأنها فى ذلك شأن كل كائن حى ، فمن إعداد ونشأة ، إلى تشخص وتكوّن ، ثم إلى كمال ونضج . وقد يدور بها الزمن دورة معاكسة ، فتتضاءل وتتراجع وتضمر وتنكمش ، وتتفرق وتتشعب . فهل لها فى هذا السير أغراض تصوب إليها ومثل عليا تنشدها ؟ أم الأمر مجرد حركة عمياء لا هدف لها ولا غاية ؟ .

أما أن اللغات متحركة ومتغيرة فهذا ما لا يعز إثباته ، ذلك لأن طبيعتها تقتضى الحركة والتغيير ، والواقع يؤيدها . ولقد اختلف الباحثون فى طبيعة اللغة ، ففريق عدها ظاهرة نفسية خالصة ، وآخرون رأوها مجرد ظاهرة اجتماعية ولعلنا نكون أقرب إلى الصواب إن قلنا : « إنها تعبير عن انفعالات ووجدانات وأفكار وآراء بواسطة دوال وأصوات أقرها المجتمع وأخذ بها » . فللوجدان والفكر نصيب فى حياة اللغة إلى جانب نصيب البيئة والمجتمع .

ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر ما للانفعالات من أثر فى نشأة اللغة . بل وفى نموها وكمالها ؟ فلغة الأطفال — أو اللغة الطبيعية — تكاد تكون مجموعة انفعالات متلاحقة تعبر عنها إشارات وحركات خاصة ، وهناك شعوب وقبائل بدائية لا تستطيع أن تتفاهم ليلا إلا إذا أشعلت النار كى تظهر إشارات الأيدى وحركاتها . ولا تزال حتى اليوم تستعين ، لإبراز معنى أو توضيح شعور بحركة اليد ونبرة الصوت ، وكم أملت العواطف والوجدانات على كبار الكتاب والشعراء صوراً ساحرة وتشبيهات بديعة .

والتفكير ينتهى دائما إلى لغة ، بل لا سبيل إلى المنطق والسامى منه بدونها ، وقديماً قال أفلاطون جملة بقيت خالدة ، ألا وهى « إن التفكير كلام نفسى » ولعل هذا يلتقى مع ما جاء على لسان شاعرنا العربى :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ولئن كان علماء اللغة لم يأبهوا كثيراً للصلة بين الفكر واللغة ، فقد تنبه لها الفلاسفة وعلماء النفس ، وشاءوا أن يجعلوا من الفكر لغة ومن اللغة فكراً . لهذا لم يكن غريباً أن تعرف « اللغة العالمية » لدى الفلاسفة والمناطقة قبل أن تعرف لدى اللغويين . من « ليبنتز » إلى « كوتورا » هناك مجهود متصل يرمى إلى حصر الأفكار الإنسانية وتحديد الألفاظ الدالة عليها بحيث نستطيع أن نخلق من ذلك لغة « عالمية » ليست « الإسبرنتو » إلا صدى لها .

وإذا كانت الوجدانات والعواطف والأفكار والآراء هى المدلولات ، فلابد لها من دوال تبرزها وتعبر عنها . وإذا ما جاوزت هذه الدوال والحركات الفطرية استلزمت عرفاً واتفاقاً لا قيمة له إلى أن أقره المجتمع ورضى به . على أنه لابد للحركات نفسها من اصطلاح وتفاهم مشترك وإلا أصبحت مقصورة على صاحبها ولا مدلول لها ، فكيف بنا إذا انتقلنا إلى الأصوات والعبارات . ومن هنا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية ونظاماً عاماً يخضع له الأفراد وإن حاولوا تغييره وتبديله ، وتبقى محاولاتهم جزئية وفردية إلى أن يقرها المجتمع ويمنحها نفوذه وسلطانه ، فلا وجود للغة بمعزل عن مجتمع يتكلم بها ويتفاهم فى ضوئها .

هذه هى عناصر اللغة : وجدان وعاطفة وفكر ورأى ، وبيئة ومجتمع أو إن شئت مدلولات ودوال . وكلها بلا شك متغيرة ومتحولة ، فالوجدانات والعواطف فى نشوء وارتقاء لدى الأفراد والجماعات ، وكم من عواطف إنسانية كحب الغير واحترامه لا تكاد تعرف لدى بعض القبائل الهمجية ، واليونان الذين خلفوا على الدهر فلسفة خالدة كانوا يعدون كل من وراء أثينا برابرة .

والأفكار تنمو بنمو العلم والدراسة ، وتعمق بطول البحث والتأمل ، وتتجدد بتجدد الكشف والاختراع ، وفى ذلك نمو اللغة وتقدمها وقد أثبت الرحالة وعلماء الشعوب أن هناك قبائل لا تعرف الكليات والمعانى العامة ، وكل ما لديها من ألفاظ إنما يدل على المحسات والجزئيات ، بينما التفكير الراقى إنما يعنى بالمبادىء والقضايا الكلية .

والحياة الجمعية فى تبدل وتغير ، فمن همجية إلى آخذة فى التحضر ، ومن نصف متحضرة إلى موغلة فى الحضارة والمدنية ، وكلما اكتملت حضارة أمة تعددت مرافقها وتنوعت اتجاهاتها وكثرت حاجاتها وأضحى لزاماً أن تسايرها فى كل ذلك لغتها ، فيتسع متنها وتزيد مفرداتها بالوضع أو الاشتقاق أو الاقتباس ، وتسمو أساليبها وتتباين فنون القول فيها ، فاللغة تولد فى المجتمع وتتغذى منه .

* * *

وليس بعزيز علينا أيضاً أن نلحظ حركة اللغات وتطورها فى ضوء الواقع والتاريخ ، فالإغريقية التى تعد من أجمل اللغات الإنسانية بدأت أول ما بدأت فى صورة لهجات عدة ورطانات متباينة ، تلاقت بحكم الجوار والاختلاط ، وتنافست فيما بينها واحتكك بعضها ببعض ، ووقعت فى صراع عنيف تولدت عنه اللغة الإغريقية الحقة الغزيرة المادة الواضحة المنطق السهلة التركيب وقد بلغت هذه اللغة قمتها فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد فى العصر الذهبى للأدب اليونانى ، عصر تراجيديا سوفوكل وكوميديا أرستوفان وفلسفة أفلاطون وأرسطو . ثم أخذت تضعف وتتضاءل إلى أن دهمتها اللاتينية وطغت عليها ، وانمحت تقريباً فى ظلمات القرون الوسطى . وها هى ذى تستعيد حياة أخرى تختلف دون نزاع عن حياتها القديمة ، وتظهر فى ثوب الإغريقية الحديثة التى يعالجها اليونانيون اليوم .

ولغتنا العربية لم تصل إلى ما وصلت إليه فى عصر المعلقات ، من غزل امرىء القيس ، وحماس مهلهل . وفخر ابن كلثوم إلا بعد أن مرت بأدوار ومراحل إعداد وتكوين طويل ثم جاء الإسلام فهذب حواشيها ورقق عباراتها وصقل ألفاظها ، واستمرت تنمو وتغزر لفظاً ومعنى فى عهد الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية . ولكن الزمن يهدم ما بنى ، فدخلها الغريب والفاسد ، وأخذت تركد ركود المتخاطبين بها ، وما إن حل النصف الأخير من القرن الماضى حتى عادت تنشط وتنهض ، وتسلك سبل الحياة فى حماس وقوة .

والفرنسية لغة الوضوح والدقة ليست فى أصلها إلا ضرباً من اللاتينية الدارجة ، اختلط بعناصر جرمانية ، وتأثر ببيئة وظروف خاصة ، ثم أخذ ينشأ و يتكون على مر الزمن ، وقد قضى العشرة قرون الأولى للميلاد فى مرحلة هذه النشأة . وكان لا بد أن ننتظر إلى القرن الحادى عشر لنرى الفرنسية القديمة فى صفاتها وخصائصها ، وكأنما كانت تنمو بنمو الأمة الفرنسية نفسها واتساع مجدها . وقد وصلت إلى قمتها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حين ظهر كبار الفلاسفة والكتاب والشعراء ، أمثال ديكارت وراسين ، وروسو ، وفولتير . وفى القرن التاسع عشر ظهرت فيها ألوان جديدة من النظم والنثر ، ومذاهب مستحدثة فى الأدب كالمذهب الرومانطيقى والمذهب الرمزى ، وها هى ذى تسير فى طريقها إلى اليوم بين تنوع وتجدد وتحول وتغير .

الآن وقد وضحت أمامنا حركة اللغات فى عنفها وضعفها ، فى سرعتها وبطئها فإنه يحق لنا أن نتساءل إلام ترمى هذه الحركة ، وهل لها غايات تهدف إليها ومثل عليا تريد تحقيقها ؟ وإن كانت فما هى ؟ .

يظهر أن المذهب المثالى قد وجد سبيله إلى العلوم الإنسانية على اختلافها فللأخلاق مثلها كما أن للفنون والآداب مثلا من نوعها . وأخذ الباحثون فى هذه النواحى يقابلون ما هو كائن بما ينبغى أن يكون ، وليتهم رسموا مثلهم العليا فى ضوء الواقع والواقع وحده ، إذن لبدت عملية يسيرة المنال ، ولكنهم أبوا إلا أن يرسلوا فيها خيالهم ويمنعوا تفكيرهم فأخذ الناس يتعشقونها ، ولكن

هيهات أن يصلوا إليها . وإذا كان « أفلاطون » قد بذر بذور المثالية فى التاريخ القديم ، فإن « كنت » غذا ها ونماها فى التاريخ الحديث .

ولهذه المثالية شأنها لدى علماء اللغات فقد كان معظمهم يعتقد حتى خمسين سنة مضت أن لكل لغة مثلا أعلى تصل إليه أو تقاربه يوماً ما ، وهذا المثل وحده هو الذى يجب أن يحاكى ويحتذى ، بل هو اللغة بمعناها الكامل ، وهو فى الغالب وقف على اللغات القديمة ، أو إن شئت عبارة أدق على عصور سبقتنا وللقديم دائماً حرمته وقداسته ، فليس ثمت إغريقية إلا تلك التى جرت على لسان أفلاطون وأرستوفان ، ولا عربية إلا تلك التى عرفت فى الجاهلية والإسلام إلى صدر الدولة العباسية ، ولا فرنسية إلا تلك التى دونتها مؤلفات القرنين السابع عشر والثامن عشر . وإذا لم يراع المصرى اليوم — وفى القرن العشرين — أوصاف طرفة وتشبيهات بشار بن برد ، فهو ليس بفصيح ، بل ولا بعربى

ويخيل إلى أن هذا الفريق يخلط بين اللغة والأدب ، ويتجاهل طبائع اللغات والمجتمع معاً ، فاللغة شئ والأدب شئ آخر ، فقد يضعف الأدب فى أمة ، ولكن تبقى لغتها وسيلة للتعبير والتفاهم بقدر ما يتيسر لها . على أن اللغة نفسها فى حركة دائمة وتاريخها مجموعة أحوال متعاقبة ، وليس ثمت كمال مطلق فى عالم اللغات ، ولا تقديس لعصر بعينه ، وكل ما فى الأمر رقى وكمال نسبى ، وأكمل اللغات وأمثلها ما حاكى العصر وتلاقى معه فى يسر كل حاجات المجتمع العملية والعلمية .

* * *

أيها السادة :

إن اللغات فى حركة مستمرة فمن العبث أن نعترضها ونقف فى طريقها ، أو أن نفرض عليها قوالب جامدة لا تلبث أن تخرج عليها ، وإن الصورة المثالية القديمة التى كانت تفرض للغات لا يقرها العلم المعاصر ولا يقول بها ، فقد أصبح يدعو إلى مثالية أخرى عملية ونافعة فاللغة المثالية هى تلك التى تصدر عن روح العصر وتتمشى مع حاجاته ومطالبه على أخصر صورة وأوضح مظهر ، ذلك لأنا فى جيل ينشد الاقتصاد والسرعة فى كل شئ

وينفر من تلك الألفاظ والعبارات التى تعوق تفكيرنا وحركتنا ، هذا إلى أننا نتعشق الوضوح الذى تمليه الديمقراطية وتقضى به الحياة الحرة الصريحة .

أيها السادة :

لقد شاء زملائى فيما يظهر أن ينيبوا عنهم أصغرهم ، كى يستدروا عطفكم ويطمئنوا إلى سعة صدوركم ، فمعذرة إن كنت قد أطلت فأمللت ، أو عبرت فأخطأت ، والسلام عليكم ورحمة الله .

مدى حق العلماء في التصرف في اللغة

سيدى الرئيس ، سادتى [١] :

انا شاكر كل الشكر على تلك الكلمات الطيبة التى تفضل السيد رئيس الجلسة ووجهها إلىّ ، وأرى واجباً علىّ قبل أن أبدأ الحديث أن أتقدم بوافر الشكر باسم مجمع اللغة العربية إلى جمعية الاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع التى قدمت هذه القاعة لجلستين من جلسات المجمع العلنية ، وشاءت بذلك — مشكورة — أن تيسر للمجمع اتصاله بجمهور المعنيين بدراسة اللغة العربية ، وتلك سنة شاء المجمع أن يستنها هذا العام ، ولعل مما أخذ بيده فى سبيل ذلك الزميل والرئيس الدكتور عبد الحميد بدوى ، فقد ضم إلى رياسة هـذه الجمعية عضوية المجمع فكان هذا منه تعاوناً وتشجيعاً كريماً .

والواقع أنه انقضى على إنشاء المجمع اللغوى ما يقرب من ربع قرن آثر فيه أن يعمل فى صومعته ، وربما كانت طبيعة عمله تقضى بذلك ، ولكنه فى الحقيقة إنما يعمل باسم اللغة والمشتغلين بها وأى ثمرة ينتهى إليها إنما يعدها لهم وقد شاء المجمع أن يعقد هذا العام جلستين علنيتين فى مؤتمره : أولاهما فى الأسبوع الماضى وقد عرض فيها الأستاذ الدكتور طه حسين مشكلة «الإعراب فى اللغة العربية» وثانيتهما جلسة الليلة ، ويراد بى أن أعالج فيها «مدى حق العلماء فى التصرف فى وضع المصطلحات العلمية» .

---

(١) ألقى هذا البحث فى جلسة علنية عقدها المجمع بدار جمعية الاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع. وذلك مساء الخميس ١٣ من يناير سنة ١٩٥٥ م .
وقد دعى إلى شهود هذه الجلسة — مع أعضاء المجمع — طائفة من العلماء والأدباء وأساتذة الجامعات .
وبعد الانتهاء من إلقاء البحث عقب عليه بعض الحاضرين بما عنّ لهم .

وشاء المجمع أن يدعو المشتغلين بهذه النواحى ليدلوا برأيهم ، وكأنى بهذه السنة وهى جديدة لم تؤت ثمارها بعد فلم تتحقق تلك المساهمة المرجوة على النحو الذى قصدناه .

غير أنى أرجو ألا يحول هذا دوننا ومتابعة هذه السنة فى مؤتمرات المجمع القادمة .

ولست أدرى لماذا أراد لى المجمع أو أردت لنفسى أن أتحدث عن حق العلماء فى وضع المصطلحات العلمية ، وأنا ليس لى من هذا الحق شئ .

وليس لى أن أتكلم باسم العلم والعلماء اللهم إلا أنى شغلت زمنا ببعض الدراسات المنهجية والفلسفية وهى وثيقة الصلة بالمصطلحات العلمية .

ولست فى حاجة أن أشير إلى أن الدراسات الإنسانية كانت متشابكة متصلة وجاء عليها وقت التقت فيه كلها تحت عنوان الحكمة والفلسفة . فكانت الفلسفة فى التاريخ القديم والمتوسط تجمع تحت كنفها كل الدراسات العقلية المختلفة فكانت العلوم من طبيعة وكيمياء وطب ورياضة وفلك جزءاً من الفلسفة . إلا أن النزعة الاستقلالية — فى بيئة العلم — كبيئة الإنسان تغلبت وأخذت تلك الدراسات التى كانت مجتمعة تحت إسم الفلسفة تستقل الواحدة منها تلو الأخرى وتكون لها مسرحاً خاصاً بها . ومن هنا نشأت حياة العلوم .

١ — العلم

دون أن نعرض لخصائص البحث العلمى المختلفة نكتفى بأن نشير إلى ثلاث منها رئيسية وهى : موضوع محدد يراد بحثه ، وطريقة واضحة يعالج بها ، ونتيجة ينتهى إليها . فلا يسمو بحث إلى مرتبة العلم إلا إذا انصب على مسائل معينة ، والدراسات غير المحدودة الموضوع ليست من العلم فى شئ . وهكذا كان شأن الدراسات الإنسانية فى بدايتها : اختلطت فيها مسائل متنوعة وموضوعات مختلفة ونشأة العلم وتكونه تتلخص فى تحديد موضوعه وحصر مسائله والمتتبع لتاريخ العلوم يدرك هذا التطور بوضوح .

والموضوع المحدود ينبغى أن يعالج على نحو خاص ، وهذا النحو هو ما يسمى الطريقة أو المنهج والمناهج العلمية بوجه عام استقرائية ينتقل فيها من الجزئى إلى الكلى ، وقياسية تسير من الكلى إلى الجزئى ، ومن هنا كانت العلوم ضربين علوم استقرائية دعامتها المشاهدة والتجربة والملاحظة كالطبيعة والكيمياء ، وأخرى قياسية تقوم على طائفة من المبادئ والفروض المسلمة كالحساب والهندسة وإلى جانب هذه المناهج العامة هنالك مناهج خاصة ، فالعلوم التجريبية وإن التقت كلها فى المنهج الاستقرائى يتميز كل واحد منها بمنهجه الخاص ، فلعلم الحيوان منهج يميزه عن علم النبات وهكذا .

وأخيرا من الموضوع المحدد وبالمنهج الخاص ينتهى البحث إلى طائفة من النتائج هى ثمرة العلم وغايته . وكلما كانت هذه النتائج أعم وأشمل كان البحث أدق وأكمل . والعلوم الكاملة هى تلك التى انتهت إلى طائفة من القواعد العامة والقضايا الكلية التى تصدق اليوم صدقها بالأمس وفى الغد . وهذه هى القوانين العلمية التى من أخص خصائصها العموم والشمول وإذا كان العلم قد حارب الخرافة والعرافة من ناحية فإنه فتح من ناحية أخرى بابا يبيح للعالم أن يتوقع ويتنبأ فى ضوء قوانينه التى تسمو على الزمان والمكان .

٢ ــ المصطلح والعلم

ولا شك فى أن المصطلحات العلمية جزء وجزء هام من المنهج العلمى ، ولن يستقيم منهج إلا إن قام على مصطلحات خاصة يؤدى بها العالم الحقائق التى يعالجها ، وقديماً قالوا : العلم لغة أحكم وضعها .

فالمصطلحات العلمية ضرورة من ضرورات العلم لأنها تستحضر المعنى بأيسر وسيلة ، وإذا كانت اللغة أداة من الأدوات البشرية المتقنة المحكمة التى تربط بنى البشر بعضهم ببعض ربطاً سريعاً وثيقاً ، فإن هذا يبدو أوضح ما يبدو فى اللغة العلمية ، ويكفى حرفان مربوطان « يد » « كم » ليستحضر العلماء حقائق ونظريات واسعة طويلة ، قد يطول شرحها لو حاولوا معرفة مدلولاتها ، ويوفر عليهم ذلك أن يتخيروا لفظاً معينا هو المصطلح العلمى .

وكلما كان المصطلح دقيقاً محكماً كانت الصلة بين العلماء أوثق وأقرب وكان مجال الخلاف أقل ، ولذلك يقول « ليبنتز » الفيلسوف الألمانى المشهور : إن معظم الخلافات العلمية يرجع إلى خلاف على معنى الألفاظ ودلالاتها ويوم يصطلح العلماء على دوال معينة تضيق مسافات الخلف كثيراً وليست قيمة المصطلح العلمى بمقصورة على العلماء وحدهم بل تتعداهم إلى المعلمين فإن المصطلح العلمى وسيلة إلى من يريدون العلم فيستعان به على تقديم الأفكار للمتعلمين وإذا كان هذا شأن المتعلمين فإنه أولى بمن يرغبون فى دراسة علمية معينة ، إذ يعز عليهم تتبع هذه الدراسات إلا إذا ألموا — ولو بقدر ما — بما اصطلح عليه العلماء أنفسهم فى لغتهم .

ولعل هذا هو السبب فى تلك النزعة العامة التى تدفع بعض العلماء والمختصين اليوم أن يقدموا العلم فى لغة بسطت فيها هذه المصطلحات ما أمكن كى يجد المثقف العادى سبيلا إليه .

وعلى هذا النحو جاءت السلطة العلمية [1] التى اضطلع بها عالم فاضل ومجمعى قديم .

وواضح أن المصطلحات العلمية تنمو بنمو العلم : تبدأ — أولا — محدودة قليلة ومترددة ، إذ يوضع لفظ لمعنى ما ، ولا يلبث أن يعدل عنه إلى لفظ آخر ومع الزمن ومع نمو العلم واكتماله أخذت هذه الاصطلاحات فى التنوع والتعدد والاستقرار وتاريخ العلوم تاريخ لمصطلحاتها . والمتتبع لتاريخها يلحظ هذا التطور فى المصطلحات وحلولها محل أخرى ثم توسعها بعد ذلك .

٣ — المصطلح واللغة

إذا كانت المصطلحات لغة العلماء فلا ننسى أن هذه اللغة جزء من اللغة العامة ، ومن هنا كانت المصطلحات وثيقة الصلة باللغة وأظنكم تعرفون ذلك الخلاف المشهور من صلة اللغة بالمجتمع أو صلتها بالتفكير الفردى ففريق يقول : إن اللغة مجرد آراء وأفكار أو عواطف ووجدانات وفريق آخر يرى أنها ظاهرة اجتماعية تتأثر بالمجتمع وتخضع لحكمه . وليس

---

(١) اسم كتاب فيه مقالات علمية مبسطة ، كتبها الدكتور أحمد زكى .

العامل الجوهرى فيها تلك العواطف والوجدانات ، وإنما هو المجتمع وسلطانه وحكمه وقيوده وتقاليده .

وأظننا نكون أقرب إلى الصواب إن قلنا إن اللغة فى حقيقتها تعبير عن أفكار وآراء أو انفعالات ووجدانات بواسطة دوال وأصوات أقرها المجتمع وأخذ بها فاللغة صنيع الفرد والمجتمع معاً ، ولا قيمة لأصوات لا دلالة لها ، وقيمة هذه الدلالة فى أن يفهمها مستمعو هذه الأصوات ويتفقوا عليها .

وإذا ما تركنا اللغة الوجدانية والعاطفية جانباً ، وعرضنا لناحية الفكر فى اللغة ، وهى وثيقة الصلة بالبحث والدراسة والعلم وجدنا أن التفكير لا يكاد ينفصل عن اللغة ، ولاسيما إذا صعد إلى درجاته العليا وأضحى ما يسمونه التفكير المنطق ، ولذا قيل : التفكير كلام نفسى وقال الشاعر العربى :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنمـــا جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فعلاقة الفكر باللغة وثيقة ، والمفكر نفسه يعز عليه أن يطمئن إلى فكرته إلا إن وجد اللفظ الذى يؤديها أداء يريحه وكثيراً ما بقيت الفكرة حائرة لأن صاحبها لم يجد بعد الوعاء اللفظى المناسب لها ، وقد نلجأ إلى أيدينا فنشير بها وإلى رؤوسنا فنحركها حين نحس بأن الألفاظ لا تعبر تماماً عما نريد .

والمعنى الدقيق يحتاج إلى لفظ دقيق ، ولولا تجدد المعانى ما تجددت الألفاظ ولا تباينت التراكيب . وازدهار الآداب المختلفة مقترن عادة بازدهار العلوم ، ففى «أثينا» فى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد ازدهرت اللغة اليونانية ، وفى بغداد فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة كان الأدب العباسى متشبعاً ذا ألوان عدة وصور مختلفة ، لأنه كان هناك علم ودرس واسع متشعب متعدد وأخيراً فى باريس فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وصل الأدب الفرنسى إلى قمته يوم أن اتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية ، ولايزال الأدب الفرنسى سائراً فى طريقه لأن باب البحث العلمى مستمر فى سيره إلى اليوم .

ويقولون : إن الجماعات البدائية لا تعرف كثيرا عن الألفاظ التى تؤدى المعانى الكلية أو المجردة . وما زال إلى الآن عالمها أقرب إلى المحسوسات ولذا —

اقتصرت ألفاظها تقريباً على الدلالة على جزئيات وباختصار ، اللغة مدلول ودال ، ولا وجود لأحدهما بدون الآخر ، والمدلول الذى لا لفظ يدل عليه سر خفى كامن فى صدر صاحبه ، والدال الذى لا يحمل فى ثناياه معنى ، صوت فارغ ولا قيمة له . وتبادل العلوم والأفكار بين الناس لا يتم لو لم تكن هناك ألفاظ يؤدونها . ومن أهم مزايا اللغة قدرتها على أداء المعانى المختلفة ، واللغة الحية هى تلك التى تجارى العصر وتقدم لكل معنى جديد وسائل الدلالة عليه .

٤ — المصطلح والعلماء

قد يلجأ العلماء إلى وسائل أخرى للتعبير عن أفكارهم ، ولكن هذه الوسائل نفسها لغة ، فالرموز والأرقام التى يستعملها العالم لغة وإن تكن لغة خاصة به . ومهما حاول العلماء أن يتخصصوا بلغتهم فهم مضطرون أن يربطوها باللغة العامة ولا يلجأ العلماء عادة إلى هذه الوسائل إلا رغبة فى التحديد والاختصار وأداء المعنى العلمى على أدق الوجوه وأسرعها ، ومن هناك كانت رموز الجبر والكيمياء والهندسة ، إلا أن هذه الرموز قد اشتقت من اللغة العادية .

٥ — حق العلماء فى وضع المصطلح

والعالم وهو الباحث عن الفكرة لابد له أن يبحث أيضاً عن الوعاء الذى يؤديها فيه . وإذا كنا ندعو إلى حرية الفكر والبحث العلمى فمن مستلزمات ذلك أن ندعو أيضاً إلى حرية التعبير عن هذا الفكر ، فيكون العالم حراً طليقاً فى أداء المعنى على النحو الذى يروقه ، ولا يستطيع أحد أن يعبر عنه تعبيراً أصدق منه وإذا كان عنوان حديث الليلة «مدى حق العلماء فى وضع المصطلحات العلمية» فإنكم تتفقون معى على أن هذا الحق فى أساسه مطلق ، والعالم حر فى اختيار اللفظ الذى يؤدى المعنى المراد .

والذى حدث فعلا قديماً وحديثاً هو أن العلماء لم يكشفوا الحقائق وحدها بل قدموا لها ما استطاعوا وسائل التعبير عنها وقد لا يجد المخترع الأول اللفظ الملائم فيأتى تلاميذه من بعده ويتداركون ما فاته . وهكذا يسير العلماء الواحد منهم تلو الآخر فى ضبط المعانى وتحديد الألفاظ المعبرة عنها . وتطور العلم تطور لمصطلحاته بقدر ما هو تطور لآرائه ونظرياته . وفى تاريخ العلوم ما يوضح هذا التطور تمام التوضيح .

وكثيراً ما شكا العلماء من قصور الألفاظ عن أداء الحقائق العلمية ، فقد تعجز عن أدائها أو تؤديها على وجه غير دقيق . ولذا لجأوا إلى الرموز كما صنع الكيميائيون والمناطقة فى المنطق الرياضى (اللوجستيك) . وذهب « ليبنتز » إلى أنه يمكن أن تحصر الأفكار جميعاً فيما يسميه ألف باء الفكر الإنسانى ، ثم يوضع لكل فكرة رمز خاص ، وبهذا تتكون اللغة العالمية . وليس بغريب أن يقول « ليبنتز » بهذا ، وقد عاش فى بيئة كانت اللاتينية فيها لغة العلماء .

ومحاولته هذه دون نزاع أساس لكل المحاولات التالية التى ترمى إلى تكوين لغة تجتمع عليها الإنسانية كالاسبرنتو ولست أدرى إن كان هذا ممكنا أم لا ، لأن الأفكار الإنسانية أشبه ما تكون بنهر جار يتجدد ماؤه فى كل لحظة ودون انقطاع ، ولا سبيل إلى حصرها هذا الحصر المنشود .

ومهما يكن من أمر هذه المحاولة التى لا تخلو من خيال وجرأة فإن المصطلحات العلمية كانت ولا تزال وثيقة الصلة باللغة التى وضعت فيها . ولكل علم مصطلحاته بل ولكل مدرسة ، وكلٌّ عالم بالأمر الذى دفع إلى وضع المعاجم فى مصطلحات العلوم المختلفة . ودون أن أعرض لأمثلة من المعاجم الأجنبية أكتفى بأن أشير إلى معاجمنا العربية القديمة كمفاتيح العلوم للخوارزمى وتعريفات الجرجانى ، وكشاف اصطلاحات العلوم للتهانوى .

ولا أكتمكم أن متن اللغة عزيز دائماً على اللغويين فيغفرون خطأ نحوياً ويتسامحون فى أسلوب غير صاف ، أما أن يستعمل لفظ دخيل فهذا ما لا يقبل بحال ، وكم ثاروا من أجل ذلك وبالغوا فى الثورة أحيانا . غير أن مبدأ الحرية العلمية الذى قررناه من قبل يحملنا على أن نسلم بأن قداسة متن اللغة لا يصح أن تقف عثرة فى سبيل البحث والتقدم العلمى .

ومن حسن حظ الباحثين أن اللغات فصائل ومن الممكن أن يعاون أفراد الفصيلة الواحدة بعضها بعضاً . فاللغات الأوربية التى ترجع إلى اللاتينية تستطيع أن تستعين بها فيما تحتاج إلى وضعه من ألفاظ جديدة ، بل وباليونانية أيضاً التى غذت اللاتينية من قبل . وكلنا يعرف الصدور والكواسع اليونانية وما أعانت عليه من وضع مصطلحات علمية فى اللغات الأوربية .

ولم يفت المعنيون بالمصطلحات العلمية فى الإسلام أن يستعيروا من اللغات السامية كالسريانية والعبرية ألفاظاً يؤدون بها المعانى الجديدة . والمعنى المنقول يحمل معه أحيانا اللفظ الذى كان يؤدى به فى الأصل المنقول عنه . ولعل فى هذا ما يفسر الألفاظ الفارسية التى أخذ بها المسلمون فى النواحى الإدارية ونظم الدواوين وبعض مظاهر الحضارة ، وما يفسر أيضاً شيوع الألفاظ اليونانية فى الفلسفة والعلوم الإسلامية . وفى « مفاتيح العلوم » للخوارزمى ما يوضح ذلك تمام التوضيح .

والعالم قد تحرر – وينبغى أن يكون كذلك – يستمد مصطلحاته من الفصحى كما يستمدها من اللغة الدارجة . وفى أخذه عن الفصحى يشتق وينحت ويلجأ إلى المجاز فيستعير الكلمة من دلالتها اللغوية العامة ليستعملها فى دلالة علمية خاصة وكل تلك وسائل لجأ إليها علماء الإسلام إبان ازدهار العلم واللغة . وله أيضاً أن يأخذ عن اللغة العامية إن كان أداؤها للمعنى أدق وأكمل ، ولست فى حاجة أن أشير إلى أن الصلة بين العامية والفصحى أكيدة ، وأن قواميسنا اللغوية لم تستوعب كل المفردات العربية ، وربما كان الفارق بين العامية والفصحى مجرد اللهجة ونطق الحروف .

والمفردات العامية التى لا ترجع إلى أصل عربى أولى من غيرها فى الاستعارة لأنها أقامت بيننا زمناً وألفنا استعمالها طويلا . وللعالم أن يأخذ أيضاً عن لغة أجنبية فيعرب إن دعا الأمر إلى تعريب وقد عربت ألفاظ أعجمية فى الجاهلية والإسلام ولم ير العرب أية غضاضة فى أن يضموها إلى ألفاظهم . وليس بلازم أن يكون التعريب على أبنية العرب ، وعربت فعلا ألفاظ على نحو ما كانت تنطق به فى اللغة الأصلية . والعلم وهو تراث الإنسانية جمعاء يجب أن يفسح مجال التبادل فيه ، وأن تيسر سبله . ومن وسائل التيسير أن يسمح بتبادل الألفاظ كما تتبادل الأفكار والمعانى .

وللعالم أخيراً أن يخترع بعض الألفاظ اختراعاً ويخلقها خلقاً ، فيبتكر اللفظ كما يبتكر المعنى أو الحقيقة التى يكشفها بتجربته وملاحظاته . والألفاظ الجديدة غريبة وغير مألوفة ، ولكن الزمن كفيل باستساغتها وسينتهى بها الأمر متى استقرت بأن تضاف إلى الثروة اللغوية .

٦ ـ مدى هذا الحق

فى كل هذا ما يكفل حق حرية البحث المقدسة ، ولكن ليس ثمة حق إلا ويقابله واجب. والحرية الصحيحة هى التى تعرف لنفسها حدوداً تقف عندها دون أن يعدو عليها عاد أو يرغمها أحد ، ولذا ينبغى أن تقيد حرية العالم فى وضع المصطلحات بقيود أخصها :

(أ) الحرص ما أمكن على أن يؤدى المعنى الواحد بلفظ واحد . لأن فى تعدد الألفاظ إسرافاً وارتباكاً وبلبلة . فيه إسراف ما أغنانا عنه خصوصاً والأفكار والحقائق العلمية كثيرة ومتجددة ، ونعجز أحيانا أن نجد لكل واحد منها لفظاً يلائمه . وفيه ارتباك لأنه يؤذن بعدم الدقة فى أداء المعنى الواحد . وفيه بلبلة لأن الترادف المطلق لا يكاد يوجد ، واللفظان وإن أديا معنى واحداً يتفاوتان من بعض النواحى .

(ب) يجدر بالعالم أن يعرف جيداً لغته وما اشتملت عليه من مصطلحات قديمة وحديثة ويتمكن منها كل التمكن ، وبذا يستطيع أن يلجأ إليها أولا ويستمد منها ما هو فى حاجة إليه من ألفاظ قبل أن يلجأ إلى لغة أجنبية ، وفى وسعه أن يشتق من لغته وينحت ويضمن ويلجأ إلى المجاز – وبابه فسيح – كى يؤدى المعنى العلمى الجديد فلا يلجأ إلى التعريب إلا فى حالات خاصة وعند الضرورة القصوى والتعريب نفسه كلما أخذ عن الأصل اليونانى أو اللاتينى كان أولى .

(ج) لا تترك المصطلحات العلمية لهوى المصطلح وحده بل لابد أن يقره عليها أهل العلم والمختصون وإذا كانت المصطلحات هى لغة العلماء فمن حقهم أن يقولوا كلمتهم فيها . وهنا تبدو أهمية الجماعات والهيئات العلمية فى تكوين المصطلحات واستقرارها .

ومما يؤسف له أن المصطلحات العلمية ليست من وضع العالم وحده بل يشاركه فيها أحيانا الناقل والمترجم ومن المترجمين من لم يتخصص فيما يترجمه

ويكتفى بمعرفته للغة المنقول عنها والمنقول إليها وقد تكون هذه المعرفة نفسها محدودة فيسئ إلى العلم والترجمة معاً . وواجب العلماء أن يرعوا هذه الترجمات ويتداركوا أخطاءها .

٧ ــ المجمع والمصطلحات العلمية

هذه هى المصطلحات وهذا هو حق العالم فى وضعها . ولا يفوتنى قبل نهاية هذه الكلمة أن أشير إلى موقف المجمع اللغوى منها ، وقد نص مرسوم إنشائه صراحة على أن من أغراضه « المحافظة على سلامة اللغة وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون وتقدمها » ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر

وكان طبيعياً أن يعنى المجمع بالمصطلحات العلمية ، وفى أضابيره ألوف من المصطلحات فى الطب والأحياء والقانون والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والرياضة والإحصاء والكيمياء والطبيعة والفلسفة والاجتماع ، وألوف من ألفاظ الحضارة الحديثة وقد حاول نشر قسط منها فأخرج منذ بضع سنين مجموعة خاصة تضم نحو أربعة آلاف مصطلح . ويحاول عن طريق مجلته ومحاضره أن ينشر أجزاء أخرى ، ولا يزال لديه قسم كبير لم ينشر بعد.

ومنهج المجمع فى معالجة المصطلحات واضح ويسير ، فهو يستمدها من المختصين أنفسهم ويحرص على أن يسجل ما استقر عليه رأيهم . وسبيله إلى ذلك لجانه التى تعول على الخبراء من أساتذة الجامعة وغيرهم ، وهؤلاء أن يقترحوا اللفظ الذى يرونه عن طريق البحث والاشتقاق أو النقل والتعريب ، وما ترتضيه اللجان يعرض على مجلس المجمع ثم مؤتمره ، فإذا ما أقر بلغ للهيئات العلمية المختلفة لينال حظه من النقد والملاحظة أو التأييد والموافقة .

ولكى ييسر المجمع على العلماء مهمتهم أقر طائفة من المبادئ فيها كثير من التسامح والتجديد ولا أظنها ذاعت بين الناس بدرجة وافية ، واكتفى بأن أشير إلى أمثلة منها :

١ ــ فأجاز المجمع الاشتقاق من أسماء الأعيان وفتح بذلك بابا أريد به أن يغلق يوم أن قررت تلك القاعدة المشهورة من أنه لا يشتق من لفظ جامد .

٢ - وقبل المصدر الصناعي ورسم السبيل لتكوينه . وهو أن يزاد على الكلمة ياء النسب والتاء . والمشتغلون بوضع المصطلحات يدركون ما لهذا المصدر من شأن في أداء بعض الحقائق العلمية والفلسفية وخاصة أسماء النظريات والمذاهب المنتهية بـ ISM .

٣ - سمح بالتعريب واستعمال الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب وتعريبهم . وقد أقر فيما عرض عليه من مصطلحات عدداً غير قليل من الألفاظ المعربة . وعن طريق التعريب يجيء المولد ولا يرى المجمع ما يمنع من قبوله سواء أجاء على أقيسة العرب أم خرج عليها .

٤ - حاول أيضاً أن يقيس فيما لم يقل بالقياس فيه ، فصاغ اسم الآلة من الثلاثي قياسا على وزن مفعل ومفعال ومفعلة ، واتخذ وزن فعالة للدلالة على الحرفة وما أشبهها من أي باب من أبواب الثلاثي . ووافق على النسب بالألف والنون والياء إلا إن تجافى مع الذوق العربي كروحاني ونفساني ، وعلى دخول « أل » على حرف النفي كاللاهوائي واللامائي .

٥ - ولم يفته أن يرسم طريقاً لكتابة الأعلام الأجنبية مقرراً أنه ينبغي أن تكون بوجه عام على حسب ما تنطق به في اللغة الأصلية . اللهم إلا إن كان قد نطقها العرب قديماً على نحو خاص ، فيلتزم هذا النطق .

ولست في حاجة أن أشير إلى أن هذه المبادئ تيسر كثيراً من أمر المصطلحات ووضعها ، وأخشى ما أخشاه أنها غير معروفة معرفة تامة لأن نشرها لا يزال محدوداً حتى اليوم . وعسى أن ينشر المجمع قراراته العلمية كلها في استقلال فيتيح للباحثين مراجعتها والإفادة منها .

* * *

شغل المجمع اللغوي إذن بالمصطلحات العلمية تسجيلا وضبطاً وإن كان قد أصابه منها بعض العنت فكانت أحيانا مثار التندر والفكاهة . وليس حديث الأرزيز « والشاطر والمشطور وبينهما طازج » عنكم ببعيد وقد حاولت عبثاً أن أعثر لها على أصل في سجلات المجمع ، ويظهر أن واضعي بعض المصطلحات وألفاظ الحضارة يحاولون أن يعزوها إلى الخالدين رجاء أن يكسبوها شيئاً من التأييد والقداسة .

ومع هذا لم يتردد المجمع فى أن يعيد النظر فى مصطلحات سبق له أن أقرها لأن العلم فى حركة مستمرة . وحرص على أن يقرن المصطلح بتعريف يوضحه ويحدد معناه ما أمكن ، ولا يتردد فى أن يرسل إلى الهيئات العلمية فى الداخل والخارج ما يقره من مصطلحات ويرحب بما تبديه من ملاحظات . وفى توفر هذه الهيئات ونشاطها ما يعينه على أداء رسالته .

وإذا كانت المجامع اللغوية فى بلاد أخرى لم تشعر بعبء المصطلحات العلمية شعور مجمعكم فما ذاك إلا لأنه قامت بجانبها مجامع علمية تستعرض المصطلحات وتمحصها بحيث لا يبقى لرجل اللغة إزاءها إلا تحكيم ذوقه ثم تسجيلها . وهذا نقص لمسناه من قديم ، وفى أضابير وزارة التربية والتعليم مشروع قانون بتكوين المجامع العلمية إلى جانب المجمع اللغوى ، وقد يأخذ طريقه يوماً إلى عالم النور . وإذا كانت المصطلحات الطبية تكون قسطاً كبيراً مما أقره المجمع فإن فضل هذا يرجع خاصة إلى جهود الجمعية الطبية التى تعد نواة صالحة لمجمع العلوم الطبية .

قد يقال : وما قيمة مصطلحات يقرها المجمع ثم تبقى فى أضابيره أو تنشر فى مجلته ومحاضره ؟ ألا يصح أن نفكر فى طريقة للإلزام وأخذ الناس بها ؟ ولا أخفيكم أن هذه المسألة أثيرت من قبل . ومن حسن الحظ أنه لم يؤخذ بها لا داخل المجمع ولا خارجه ، وعندى أن من يؤمن بالحرية يفضلها على كل نجاح يستطيع أن يحرزه من طريق غير طريقها ، وهو على كل حال نجاح موقت وسريع الزوال .

ويكفى المجمع أن يفتح الباب للدارسين وأن يسجل ما يقرون ، فهم الذين يأخذون بيد العلم وهم الذين يستطيعون أن يعدلوا مصطلحاته أو يضيفوا إليها الجديد .

———

المجمع فى خدمة اللغة العربية

المجامع الأدبية والعلمية قديمة قدم الحضارة والثقافة ، عرفت فى التاريخ القديم والمتوسط ، وتتابعت إلى اليوم ، وأغلب الظن أن المجامع اللغوية بمعناها الدقيق من صنع التاريخ الحديث ، وأول ما عرف عنها الأكاديمية الفرنسية التى ظهرت فى أول الثلث الثانى من القرن السابع عشر ، وكان هدفها « أن تجعل اللغة رشيقة وافية بأغراض العلوم والفنون » وعلى غرارها أنشئت عدة مجامع لغوية فى الغرب والشرق .

بيد أن المجامع اللغوية – كغيرها – تخضع لسنة التطور ، وتسير بسير الزمن ومجمع القرن العشرين لا يستطيع أن يقف عند أوضاع مجمع القرن السابع عشر ويكفى أن نشير إلى أن الأكاديمية الفرنسية هدفت إلى عدة أمور ، ولم تحقق منها إلا القليل . فعنيت بوضع معجم شامل لم تخرجه إلا بعد ستين سنة وترددت طويلا فى أن تضمنه شيئاً من المصطلحات العلمية والفنية ، برغم ما لها من صلة بالحياة واللغة ، ولم تأخذ بذلك إلا فى الطبعة الرابعة ، واستبعدت منه أسماء الأعلام استبعاداً تاماً ، ولم تجار حتى الآن الاتجاه الموسوعى الذى ساد التأليف المعجمى فى القرنين الأخيرين . وفيما عدا هذا لم تعرض لأصول البلاغة والبيان ولا لقواعد العروض والشعر ، واكتفت فى الإملاء ورسم الحروف بما ارتآه أحد أعضائها من تعديل كتابة بعض الكلمات على حسب نطقها ، دون مراعاة لأصولها اليونانية أو اللاتينية ، وكأنما كانت تعد ذلك خارجاً عن مهمتها . ووضعت فى النحو أخيراً كتاب « الأجرومية الفرنسية » وهو أقرب إلى المحافظة منه إلى التجديد .

ومجمع اللغة العربية ، وهو ابن القرن العشرين ، كان لابد له أن يعمل

ويتحرك ، ويطور ويجدد ، ويطوع اللغة لمقتضيات العصر وحاجاته . وعلى صغر سنه نسبياً درس وبحث ، وأنتج وألف ، وامتد إنتاجه إلى نواح متعددة ونكتفى بأن نشير إلى ثلاث منها ، هى

١ – تيسير متن اللغة .

٢ – المصطلحات العلمية والفنية .

٣ – المعجمات الخاصة واللغوية .

متن اللغة :

المفردات اللغوية أشبه ما تكون بنقد متداول ، يبقى منه فى السوق ما يبقى وينقرض ما ينقرض ، والعربية لغة ذات ماض طويل ، استعملت فيه ألفاظ ثم حلت محلها أخرى ، واستخدم فى كل عصر ما يلائمه من وسائل التبادل الفكرى . ولم يتردد العرب فى أن يضعوا ألفاظاً جديدة ، فقاسوا واشتقوا كلما دعت الحاجة ، وعربوا ما بدا لهم تعريبه . ولم يضيقوا ذرعا بما نقل إليهم من ألفاظ أجنبية ، أثبتوها على صيغتها الأصلية أحياناً ، وحرفوها قليلا أحياناأخرى ولم يخشوا يوما على لغتهم بأسا ، اللهم إلا حين تفشت العجمة وكثر الدخيل ، فقاموا بجمع مفرداتها وسجلوا ألفاظها . وبذل الرواة فى ذلك جهودا طائلة ولم يعن قط بجمع لغة قديمة ، مثلما عنى بجمع العربية .

وحرص أصحاب المعجمات على أن يسجلوا كل ما سمعوا ، وإن لم يخل من شئ من التعارض والتكرار ، واللغويون أميل عادة إلى السماع ، وأرغب فى الحفظ والنقل وبدت اللغة فى ثنايا المعاجم واسعة المادة غزيرة الألفاظ ، وهى نسبية فى الواقع لأن من هذه الألفاظ ما هو غريب وحوشى ، ومنها ما هو مهمل ومشترك ومع هذا تعبد به أهل العصور المتأخرة ، ووقفوا عنده ، ورددوا كلمة ابن فارس المعروفة : « ليس لنا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوا ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه » .

ويوم أن بزغ عصر النهضة العربية الحديثة ، أخذ العرب يتساءلون : هل لهم أن يجددوا فى لغتهم ، وأن يضيفوا إليها ألفاظا مبتكرة ! وبقوا مترددين فى ذلك إلى عهد غير بعيد . ولم يكن بد لمجمع اللغة العربية أن يواجه هذه المشكلة فقرر فى وضوح أن اللغة ملك للمتخاطبين بها ، ولهم أن يتصرفوا فيها بقدر

حاجتهم ، وما هى إلا ظاهرة اجتماعية تخضع لسنة النشوء والارتقاء . وأطلق القياس ليشمل ما قيس وما لم يقس من قبل ، وتوسع فى الاشتقاق ما أمكن . فأجاز مثلا الاشتقاق من أسماء الأعيان ، فيقال مغنط من المغناطيس ، وقصدر من القصدير ، كما قيل قديما ذهب من الذهب وكبر من الكبريت ، وكان هذا تصورا على السماع . وتوسع فى المصدر الصناعى ، وعده قياساً مطرداً ، فيقال: المثالية السيادية، كما قيل من قبل : القدرية والجبرية . وأقر وضع صيغ جديدة للدلالة على المرض أو الحرفة أو الآلة ، وقال بقياسية أفعال المطاوعة جميعها ، وأجاز أن يعدى الثلاثى قياساً بالهمزة أو التضعيف . وأخرج منذ ثلاث سنوات « مجموعة القرارات العلمية » التى تشتمل على كثير من أبواب التفسير هذه — وأصبح مقررا لديه فى اختصار «أن ما قيس على كلام العرب فهو منه » .

واستوقف التعريب الباحثين فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن وأنكره قوم ، وسلم به آخرون ويظهر أن هذه المشكلة هالت المجمعيين فى البداية ، فلم يجيزوا « استعمال بعض الألفاظ الأجنبية إلا عند الضرورة » . ولكنهم ما لبثوا أن أقروا معربات كثيرة فى العلوم والفنون ، وقبلوا مااشتق منها من أفعال وأسماء وأخذوا يضعون للتعريب بعض القيود والضوابط ، فرأوا أن الأولى أن يعرب ما يدل على أسماء الأعيان وأعلام الأجناس، مثل أكسجين ، وأنزيم ، وأيون ، وإلكترون ، ومايدل على تصنيف عام من أنواع النبات والحيوان ، أو على سلسلة متشابهة فى الكيمياء ، أو ماينسب إلى علم من اسم شخص أو مكان . وأصبح التعريب لا ينظر إليه فى توجس وخيفة ، كما كان الشأن من قبل ، وإن كان لا يلجأ إليه إلا عند الحاجة .

ولا نزاع فى أن العربية استعادت نفسها بنفسها ، وبدأت تتقبل الألفاظ الجديدة غير هيابة ولا وجلة . ولا يستنكر علماء اللغة اليوم أن من حقهم أن يقترحوا ما من شأنه أن ييسر اللغة وينهض بها ، وفتح باب الاجتهاد فى اللغة كما فتح فى الفقه والتشريع ، على أنه ينبغى ألا يفتح على مصراعيه ، لأن لكل لغة أصولا ومعالم لا يجوز أن تمس ، وإلا فقدت كيانها ومقوماتها . وكان لتيسير المجمع واجتهاده شأنه ، فقد بعث روحاً وأحيا سنة ، وساهم الكتاب والأدباء فى تطوير اللغة وإمدادها بالجديد والطريف .

المصطلحات العلمية والفنية :

للعلم لغة أحكم وضعها ، ولا حياة له بدونها ، وهى كاللغة العامية متجددة ومتطورة ، وتزيد حركتها بتقدم العلم ونهوضه . وقوامها مصطلحات ذات دلالات خاصة تختلف عن المدلول اللغوى المألوف . وللعالم أن يختار اللفظ الذى يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية ، ولا يستطيع أحد أن يعبر عنها أصدق منه وقد يلجأ إلى الرموز والإشارات للتعبير عما يريد ، وهى ضرب من اللغة .

ولم تنشأ لغة العلم فى الإسلام دفعة واحدة ، بل نمت وتنوعت بنمو العلوم وتقدمها . ولم يكد يحل القرن الرابع الهجرى حتى اكتملت ، واستقرت مصطلحاتها وتداولها الباحثون فى المشرق والمغرب ، ولم تختلف من قطر إلى قطر . وبدئ تسجيلها فى معجمات خاصة ، تحت اسم : (مفردات) أو (تعريفات) ، أو (كشاف) ، ومن أوائلها (مفاتيح العلوم للخوارزمى) . ويوم أن ركد البحث العلمى ، ركدت لغته معه ، وكان هم الخلف أن يردد ألفاظاً وصيغاً قال بها السلف .

ثم جاءت النهضة العلمية الحديثة ، وشاء رجالها أن يتداركوا بعض مافات وأن يتابعوا سير العلم فى العصر الحاضر ، ولم تستحث خطاه قط بقدر ماتستحث اليوم ، وكان لابد للمجمع أن يساهم فى هذا المضمار ، لأن من أهم أغراضه « أن يجعل اللغة وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها » . وقد اضطلع بالعبء فى البداية وحده ، ثم ندب له الخبراء والمتخصصين ، ووقف عليه جل جهوده فى لجانه ومجلسه . ودعا إلى جمع المصطلحات العربية القديمة ، وشجع عليها بجوائز خاصة ، وإن كان يرى أنها أضحت لا تفى بحاجة البحث العلمى الحديث ولجأ إلى الاشتقاق والمجاز والنقل والنحت والتعريب لوضع المصطلحات الجديدة .

ويحرص على ان يؤدى المعنى الواحد بلفظ واحد ، وأن يكون هذا اللفظ صالحاً للاشتقاق منه والنسبة إليه ، ولا يقبل أداء المصطلح الأجنبى بجملة أو بلفظين مترادفين ويشترط فى المصطلح العلمى أن يكون واضحاً ودقيقاً ، بحيث يكون نصاً فى معناه ، لأن لغة العلم تتنافى مع الغموض والإبهام . ويدعو إلى تجنب الغرابة والابتذال ، وإن كان لا يرفض تخير بعض الألفاظ النادرة والعامية السايرة . ويلتزم بأن يعرف المصطلح ، ليفهم على وجهه وتتبين دقته .

وقيمة المصطلح فى أن يؤخذ به ، وأن يجمع أهل العلم عليه ، ويهدف إلى هذا الإجماع ما وسعه . فلوحظ فى تكوينه أن تمثل فيه البلاد العربية ما أمكن ومؤتمره السنوى مجال لتعاون عربى دائم ، ومن مبادئه ألا يصبح المصطلح نهائياً إلا إذا أقره المؤتمر وقد درج من قديم على أن ينشر فى مجلته المصطلحات بعد إقرارها ، وأضاف فى السنوات الأخيرة نشراً آخر عن طريق مجموعات خاصة ويحرص على أن يبلغ ذلك كله إلى الهيئات العلمية المختلفة . ويرحب دائماً بكل ما يوجه من نقد أو ملاحظة ، ولا يتردد فى أن يعيد النظر فيما قد يعترض عليه ويشترك فى المؤتمرات العلمية العربية ، ويتابع كل ما يجرى فيها من بحوث حول المصطلحات ووضعها ، ويستجيب لرغباتها ما وسعه. ويعول بوجه خاص على الجامعة العربية ، ويسهم فيما تكونه من لجان وما تعقده من مؤتمرات لتوحيد المصطلح العربى .

وألفاظ الحضارة ضرب من المصطلحات ، وباب من أبواب تنمية اللغة وتطويرها . فلأصحاب المهن والحرف وسائلهم اللغوية ، وللحقل مفردات تختلف عن مفردات المصنع والمتجر ، وألزم شئ للغة أن تفى بحاجات الحياة العامة . ولا تخضع ألفاظ الحضارة لما تخضع له المصطلحات العلمية من قيود فى الوضع والاستعمال ، لأنها ملك العامة الذين يعبرون فى طلاقة ، وينفرون من التحكم فيما جرت به ألسنتهم . ومعالجتها ليست يسيرة ، لأنها تتغير من قطر إلى قطر ، بل من مدينة إلى أخرى . واللغويون إزاءها فريقان : فريق يلجأ إلى بطون كتب اللغة ليستخرج منها ألفاظاً مهملة يؤدى بها مسميات الحضارة الحاضرة ، ولعل هذا هو الذى عزا إلى ما ليس من عملهم ،فنسب إليهم أنهم قالوا بالعرعور للوزير ، وبالأرزيز للتليفون ، وبالشاطر والمشطور بينهما كامخ للساندوتش ، وفريق يذهب إلى أن الأولى بالمجمع أن يسجل ، فيجمع ألفاظ الحضارة من مظانها ، ثم يهذبها ويقر منها ما يرتضيه ، وما لاسبيل إلى إقراره يدعه للزمن ، وهو كفيل بأن يصلح من شأنه ويقوم عوجه . وقد التزم المجمع الفرنسى التسجيل ، ويعد من الأحداث اللغوية فى فرنسا أن يقر لفظاً أو عبارة من اللغة الدارجة . ولم يحاول أن يشرع ، ولا أن يحلل أو يحرم ، والاستعمال عنده هو الفيصل فى الرفض والقبول .

وينشد المجمع ما أمكن توحيد ألفاظ الحضارة ، كما ينشد توحيد المصطلحات العلمية ، والأمر هنا جد عسير ، لتعدد الاستعمال ، وتباين العرف والتقاليد من بلد عربي إلى آخر . ولذلك يعنى بألّا يقر منها إلّا ما استقر وشاع ، ويلجأ إلى ضرب من التقريب والملاءمة . وقد يغلب لديه الاستعمال المصرى ؛ ولكنه لا يتردد فى أن يحل محله استعمالا آخر ، متى كان أكثر استقراراً وأعظم شيوعا . ومادته على كل حال فى هذا الميدان أقل من مادته فى ميدان المصطلحات العلمية . والزمن كفيل بتدارك مالا سبيل إلى تداركه اليوم ، وفى سائل الإعلام من إذاعة وصحافة ما يضيق مسافة الخلف ، ويقرب ألفاظ الحضارة بعضها من بعض فى البلاد العربية .

ونستطيع أن نقول إن للمجمع تجربة طويلة فى وضع المصطلحات ، وهو دون نزاع أكبر هيئة علمية تضطلع بذلك فى العالم العربى . وقد أخرج منها عشرات الآلاف فى كتب وكراسات ، ووقف عليها أخيراً مجموعات ، يخرج منها واحدة كل عام ،وفيما أخرجه مادة صالحة للمعجمات العلمية والفنية ويسعده أن مصطلحاته تجد سبيلها إلى الاستعمال والتداول وتشيع عاماً بعد عام فى المشرق والمغرب . وكثيراً ما طلبت منه استشارات ، أو بعث إليه بمقترحات فى أبواب البحوث الجديدة ، كالبترو ليات ولغة المسرح والسينما . وهو يعير ذلك كله ما يستحق من عناية ، ويأمل أن تسانده الصحافة فى هذه المهمة الدقيقة وفى تجربته الطويلة ما يثبت أن العربية ليست أقل استجابة لمقتضيات العلم من اللغات الأخرى ، وكم من مصطلح عربى يبدو ألصق بمعناه وأدق فى دلالته من مصطلح أجنبى .

المعجمات :

قد لا يكون ثمة لغة قديمة أو حديثة ــ فيما عدا الصينية ــ أتيح لها ما أتيح للعربية من كتب لغوية ومعجمات ، بدئ فى وضعها منذ عهد مبكر ، وتوالت العناية بها إلى اليوم . سنّ الخليل بن أحمد سنتها فى القرن الثانى للهجرة ، وتنافس من بعده النحاة واللغويون فى التأليف المعجمى ، ولا يكاد يخلو قرن من معجم عربى جديد ، وربما ظهر فى القرن الواحد عدة معاجم . ومن حسن

الحظ أنه وصل إلينا معظم هذا التراث ، وبين أيدينا قدر كبير منه نصدر عنه ونعول عليه .

ولا شك فى أن المعاجم القديمة غزيرة المادة ، مليئة بالمعلومات ، ولها قيمة تاريخية كبرى ، فقد حفظت اللغة ، وأعانت على توضيح العبارات والشواهد الغامضة ؛ ولكنها لا تواجه تماما حاجات العصر ومقتضياته ، ففى شرحها غموض ، وفى بعض تعاريفها خطأ ، وفى تبويبها لبس . وأبى أصحابها إلاَّ أن يقفوا بها عند حدود زمانية ومكانية ضيقة ، ففقدت كثيراً من معالم الحياة والتطور ، ولم تمثل العصر الذى ظهرت فيه . وقد وجه إليها كثير من النقد منذ أخريات القرن الماضى ، ووضعت معجمات جديدة لتدارك هذا النقص .

وللمعجمات فن لا يقل عن الفنون الأخرى فى قيوده وأوضاعه ، وقد خطا فيه العرب خطوات فسيحة فاقت ما عرف لدى الإغريق والرومان ، وأثرت فى معجمات عصر النهضة الأوربية ، إلَّا أن هذا الفن لم يتوقف ، واستمر ينمو حتى بلغ قمته فى القرن التاسع عشر ، وظهرت آثاره فى بعض المعجمات الأوربية الحديثة ، « كأكسفورد »و«وبيستر» فى الإنجليزية ،و« لاروس» فى الفرنسية . ويراد بالمعجم العربى أن ينحو هذا النحو ، فيصبح مرجعا سهل المأخذ ، واضحا ، دقيقا ، محكم الترتيب ، مصورا ما أمكن ، هذا إلى أن المعجم اللغوى وثيق الصلة بأبواب المعرفة الإنسانية ، وقد أصبحنا أمام علم حديث يختلف فى نواح كثيرة عن علوم القرون الوسطى والتاريخ القديم ، ولا بد لمعاجمنا المعاصرة أن تأخذ عنه وتساير نهوضه .

وقد نص مرسوم إنشاء المجمع على أن من أغراضه « أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية» ويظهر أن فكرة المعجم التاريخى هذه متأثرة فى الغالب بمعجم أكسفورد . ومنذ السنة الأولى شغل المجمعيون بهذا المعجم ، فحددوا خطته، ورسموا معالمه ، واستأنسوا ببعض المعجمات الأوربية الكبرى ، وانتهوا إلى طائفة من المبادئ لها شأنها فى التأليف المعجمى . فرأوا أولا أن العربية ليست مقصورة على ما ورد فى المعجمات وحدها ، بل لها مظان أخرى — يجب تتبعها والأخذ عنها ، وفى مقدمتها كتب الأدب والعلم ، وما يجرى على ألسنة الناس من حوار ونقاش . ومن الخطأ رفض لفظ ، لا لسبب اللهم إلَّا أنه لم يرد فى معجم لغوى . وقرروا ثانيا أن اللغة كل متصل الأجزاء ، يرتبط حاضره بماضيه

وهما معا يعدان لمستقبله . والعربية لغة قديمة وحديثة ، ومن الظلم أن نقف بها عند زمن معين ، لأنا إن فعلنا حكمنا عليها بالفناء . ومعجم القرن العشرين يجب أن يعبر عن اللغة فى مختلف عصورها . وذهبوا كما أشرنا من قبل إلى أن من حقنا أن نقيس كما قاس القدماء ، وأن نشتق ونصرف كما اشتقوا وصرفوا .

وشاءت الأقدار أن يكون بين المجمعيين الأول مستشرق ألمانى عنى بالمعجمات العربية منذ أخريات القرن الماضى ، وهو الدكتور فيشر الذى رغب فى أن يتوج جهوده بإخراجها تحت كنف المجمع ، وكانت تقوم فى جملتها على أساس فكرة المعجم التاريخى . فهيأ له المجمع الأسباب ، وقضى نحو أربع سنوات فى الجمع والتنسيق ، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ففرقت الشمل ، واعترضت سير العمل ، ولحق فيشر بربه قبل أن يعود إلى المجمع ، ولم يخلف لنا إلا جذاذات فى أغلبها غير مستوفاة .

ولم يقف المجمع عند هذا ، بل عنى فى أوائل سنيه بوضع معجم مدرسى طلبته وزارة المعارف حين ذاك ، ورغبت فى ألا يقل فى نظامه عن أحدث المعجمات الأدبية ، فشاءت له أن يكون محكم الترتيب ، وأن يشتمل على مصطلحات العلوم ، وملحق للمشهور من أعلام الأشخاص والأماكن ، وكأنما كانت تصوب إلى شئ شبيه بالمعجم الفرنسى المعروف باسم « لاروس الصغير » وهذه هى نواة « المعجم الوسيط » الذى ظهر فى عام ١٩٦٠ ، وأخرج منه عشرة الاف نسخة أوشكت على النفاد ، ويعد المجمع العدة لإخراج الطبعة الثانية .

وفى هذا المعجم تجديد من نواح شتى ، فقد رسم فى العربية فنا للتأليف المعجمى الحديث ، أساسه الترتيب والتبويب ، فأوردت الكلمات فى المادة الواحدة على حسب نطقها لا على حسب تصريفها ، وتفادى المجمع بذلك صعوبة البحث عن أصول الكلمات واشتقاقها ولم يعدل عن المواد فى تعاقبها كى لا يقع فى تكرار لا داعى إليه ، ووقوفا عند طبيعة العربية وهى لغة اشتقاقية وفى المعجم الوسيط تطوير واضح للغة ؛ فيقيس فيما قصر أمره على السماع ويدخل فى متنها ما دعت إليه الضرورة من الألفاظ المولدة أو المحدثة أو المعربة

ويفسح مجالا لألفاظ الحضارة والحياة العامة . وهذا مما يختلف فيه الرأى ودار حوله كثير مما وجه إلى هذا المعجم من نقد . ولا نظن أحدًا يعارض اليوم فى أن يشتمل معجم القرن العشرين على قدر من ألفاظ الحضارة والحياة العامة ولكن ينبغى أن يتفق على هذا القدر ، وأن يبنى اختياره على أسس واضحة . وفى المعجم الوسيط أخيرا قدر من المصطلحات العلمية الشائعة . فحقق ما لم يقم به معجم الأكاديمية الفرنسية إلَّا بعد مرور مائة سنة على نشره .

ويوم أن يئس المجمع من إخراج معجم فيشر ، اتجه نحو المعجم الكبير ، ليضيف حلقة إلى سلسلة معاجمه ، وقد سبق له أن فكر فى تكوينها من حلقات ثلاث : صغير ، ووسيط ، وكبير ، ولأمر ما بدأ بالحلقة الوسطى . والتأليف المعجمى يستلزم أجهزة ووسائل خاصة ، فلا بد له من مكتبة حافلة بالمصادر بين مخطوط ومطبوع ، وأماكن مهيأة للحفظ والتسجيل ، ولا بد له إلى جانب ذلك من إعداد محررين مدربين ، والاستعانة بخبراء متخصصين فى نواح متعددة . وبرغم نقص الموارد وقلة الوسائل ، اضطلع المجمع بالعبء ، وبدأ السير عام ١٩٤٦ ، واستطاع أن ينشر فى عام ١٩٥٦ جزءا من معجمه الكبير فى ٥٠٠ صفحة ، ولم يعده إلَّا مجرد تجربة دعا المتخصصين إلى قراءتها ، وتسجيل ما يمكن أن يلاحظوه عليها ، وموافاته بملاحظاتهم . ثم استمر يراجع عمله ، وينقحه ويهذبه ما وسعه وقد آن الأوان لأن يخرج الجزء الأول فى صورته النهائية ، ويأمل أن يقدمه للمطبعة قريبا وفى إخراجه ما يرسم المعالم ويحدد الطريق ، وما يحفز إلى تجنيد عدد أكبر من الباحثين والدارسين للوصول إلى الغاية وإدراك الهدف .

وإلى جانب المعجمات اللغوية أسهم المجمع فى ميدان المعاجم الخاصة ، وكان « معجم ألفاظ القرآن الكريم » أول ما اتجه إليه ، وقد نبتت فكرته عام ١٩٤١ ، ولم يبدأ فيه إلَّا عام ١٩٤٦ وأريد به أن يشرح الكلمات شرحا لغويا ، وأن يرتب معانيها بحسب أهميتها وكثرة ورودها فى القرآن ، ويقرن كل معنى بالآيات المتصلة به . فهو معجم لغوى مفهرس ، تحاشى خلافات المفسرين وتأويلات الفقهاء والمتكلمين ولم يعرض لشئ من الألفاظ الدخيلة ، ولا لتحقيق الأعلام

التاريخية والجغرافية . وقد نشر منه ثلاثة أجزاء على التوالى فى عام ١٩٥٣ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦١ . والأجزاء الثلاثة الباقية معدة للنشر ، ويرجى أن يظهر أولها قريبا .

واتجه المجمع أيضا نحو إخراج معجم فلسفى وآخر فى الجغرافيا ، وظهر الجزء الأول منهما ، والجزء الثانى تحت الطبع ونشر فى العام الماضى معجما فى الجيولوجيا مشتملا على كل ما سبق أن أقره فى هذه المادة من مصطلحات وهو الآن بصدد وضع معجمين : أحدهما فى العلوم الاجتماعية بالاشتراك مع اليونسكو ، والآخر فى الطب تحت إشراف لجنته الطبية ؛

والتأليف المعجمى شاق وطويل المدى . وفى وسع المجمع أن يقول إنه قطع فيه شوطا كبيرا ، وتوافرت لديه خبرات وأجهزة متخصصة . غير أن دور المعاجم العالمية تحظى بموارد طائلة ، وتعتمد على خبرات ممتازة وتخصصات دقيقة . وما أجدرنا أن نعزز قسم المعاجم فى المجمع وندعمه ، كى يصبح بحق دار المعجم العربى .

هذه صورة مجملة لما قام به المجمع خدمة للغة فى اثنتين وثلاثين سنة . اقتطعت منها الحرب العالمية الثانية خمساً أو يزيد ، وبرغم قلة الموارد وعجز الوسائل . وله جهود أخرى كان يود أن يرى ثمارها يانعة . فقد شغل بتيسير النحو زمناً ، ورسم له منهجاً كاملا ، وأعد فيه أجرومية شبيهة بأجرومية بعض اللغات الحية . ودعا وزارة المعارف إلى أن تؤلف كتباً فى ضوئها ، ولم يستجب لدعوته ، وبقى الأمر فى طى النسيان عشر سنين ، وأخيراً رأت وزارة التربية والتعليم أن تبعثه من مرقده ، وألفت فيه كتباً لم تعرض على المجمع ، وبدأ التلاميذ يتعلمون النحو الميسر ، وقضوا فى ذلك عامين ، ثم عدل عن المشروع جملة . ولا نظننا فى حاجة أن نشير إلى أن تيسير النحو على المتعلمين سائر فى طريقه ، وأصبحنا نؤمن بأن النحو لغير المتخصصين ليس علماً يقصد لذاته وإنما هو وسيلة من وسائل تقويم اللسان والقلم ، وشأن الوسيلة أن نقف بها عند أضيق الحدود الممكنة .

وعنى المجمع أيضا بتيسير الكتابة العربية ، فعالجتها لجانه علاجاً متصلا ووقف على مناقشتها دورة كاملة من دوراته ، وأعلن عن جائزة لأحسن

اقتراح فى تيسيرها ، واشترك فى لجنة كونتها الجامعة العربية لبحثها . وانتهى إلى مشروعين ؛ ينصب أحدهما على الضبط والشكل فى كتب مراحل التعليم العام ، وأخذت به وزارة التربية والتعليم . ويعالج الثانى صندوق الطباعة العربية فاختصر صوره وهذبها حتى هبطت إلى ١٣٥ صورة ، واقتربت كل القرب من صندوق الطباعة اللاتينية ، وهى صالحة للآلات الكاتبة صلاحيتها لأنواع الجمع المختلفة ، (كالمونوتيب) ، و (اللينوتيب) ، ولا يزال هذا المشروع فى انتظار التنفيذ وإن كان قد قدم منه نموذج عملى .

ولا يزال المجمع على الطريق ، وعلى عاتقه أعباء ثقيلة ، وأمامه مشروعات مختلفة . وما أحوجه إلى دار فسيحة يتسع صدرها لمجلسه ومؤتمره ، وأعضائه وضيوفه ، وخبرائه ، ومحرريه . ومجمع القرن العشرين لابد له أن يبسط صلاته فى الخارج والداخل ، ويوثق علاقاته بجمهور القراء والباحثين ، ويتبادل مطبوعاته مع الهيئات العلمية شرقاً وغرباً ، ويشترك فى المؤتمرات الأدبية والعلمية . والعربية لغة عالمية تستعيد اليوم مكانتها بين اللغات الكبرى وهى ولا شك لغة مطواعة لا عقم فيها ولا جمود ، تلبى دعوة العلم وتستجيب لمقتضيات الحضارة ، ولا ضير أن تسعى إليها ألفاظ مولدة أو دخيلة ، فإنها كفيلة بأن تصهرها وتتبناها ، ويقيننا أن فى محو الأمية ونشر الثقافة العامة ما يجمع العالم العربى كله على لغة موحدة ، سهلة وميسرة نامية ومتطورة .

نشأة المصطلحات الفلسفية فى الإسلام (*)

يقوم العلم على دعائم ثلاث: موضوع ينحصر فيه ، ومنهج يدور البحث على أساسه ، وطائفة من القوانين والقواعد يصوب إليها ويرتكز عليها . فالبحوث غير المحدودة الموضوع ليست من العلم وإن مهدت له ، والتى لا منهج لها لا تمت إلى العلم الحقيقى بصلة . وقيمة كل علم فيما يشتمل عليه من قواعد ، وما ينتهى إليه من قوانين ونظريات ، وأسمى العلوم وأرسخها أدقها قوانين وأثبتها قواعد ويمكن أن نلخص نشأة العلوم فى جهود متلاحقة ومحاولات مستمرة ترمى إلى تحديد موضوعاتها ورسم مناهجها .

والمصطلحات والصيغ جزء من المنهج العلمى تساعد على التخصص وتعين على حسن الأداء وإذا كان للجماهير لغتها فإن العلماء يحرصون على أن يتميزوا بألفاظ خاصة بهم . خصوصاً وهذه الألفاظ ترمز لمدلولات دقيقة ومتشعبة وفى ذكرها ما يكفى لاستحضارها ، وإن لم يتفق عليها أضحى المجهود العلمى مجرد مناقشة لفظية قد لا يكون وراءها طائل فالمصطلحات العلمية تقرب المسافة بين الباحثين ، وتوفر المجهود ، وتصرفه كله إلى صميم البحث بدل أن يضيع فى حواشيه ، وتزيل كثيراً من أسباب الخلاف ، وقد لاحظ ليبنتز — بحق — أن كثيراً من الخلافات العلمية يرجع إلى سوء فهم للمدلول اللفظى .

وللمصطلح أيضاً قيمته من الناحية التعليمية فهو يجمع المتعلمين على دلالات واضحة ، وييسر لهم استساغة الحقائق العلمية فى قوالبها اللفظية الثابتة وكم يلاقى النشء وشباب المتعلمين من بلبلة واضطراب حينما يجدون أنفسهم

(*) بحث ألقى فى مؤتمر المجمع (الجلسة السابعة ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٤٨) .

امام مصطلحات متناقضة أو متعارضة تتغير من كتاب إلى كتاب أو من أستاذ إلى أستاذ .

فالمصطلحات ضرورة علمية ، ووسيلة هامة من وسائل التعليم ونقل المعلومات .

* * *

ولم تتكون المصطلحات الفلسفية الإسلامية دفعة واحدة ، بل مرت بأدوار عدة ونشأت نشأة الفلسفة نفسها . فبدت أول الأمر محدودة ضعيفة مترددة ، فكادت تقتصر على ألفاظ قليلة يؤخذ بها حيناً ثم يعدل عنها حينا آخر ولكنها ما لبثت أن نمت وترعرعت وتعددت وتعقدت واختلفت مدلولاتها باختلاف الفلسفات والفلاسفة . وإذا شئنا أن نعرف مصادرها وكيفية تكوينها ، فجدير بنا أن نتجه إلى ناحيتين هامتين : المعتزلة من جانب وجماعة المترجمين من جانب آخر .

ويعتبر المعتزلة دون نزاع المؤسسين للمدرسة العقلية الأولى فى الإسلام . بدءوا بدءاً دينياً ، ولكنهم — وقد حكموا عقولهم وغلبوا حرية الرأى على التسليم والتقليد — انتهوا إلى بحوث عقلية خالصة ، وأضحوا مفكرى الإسلام الأحرار فلاءموا بين العقل والنقل ، وفلسفوا الدين قبل أن يُعرف الفلاسفة ووضعوا دعائم علم الكلام ، أو فلسفة الإسلام الإلهية . على أنهم لم يقفوا عند الإلهيات ، بل كانت لهم نظريات فى الطبيعة والسيكلوجيا والأخلاق وقضوا نحو مائة وخمسين سنة ، من أخريات القرن الأول الهجرى إلى أوائل الربع الثانى من القرن الثالث ، يدافعون عن الدين ويردون شبه الزنادقة والملحدين ، وينهجون نهجاً عالياً فى الجدل والمناظرة ، ويقدمون آيات بينات فى الإفحام أو الإقناع .

وليتهم استمروا جميعاً يناضلون باسم العقل وفى سبيل الدين كما صنع معتزلة البصرة ولكن معتزلة بغداد أبوا إلّا أن يخلطوا الدين بالسياسة فاقتربوا من المأمون كل القرب ، وشاءوا باسمه أن يفرضوا على الناس آراءهم وتعاليمهم وتحولت حرية الرأى فى أيديهم إلى تحكم واستبداد ومحنة خلق القرآن أصدق شاهد على ذلك ، وقد لاقى بعض المسلمين — وعلى رأسهم أحمد بن حنبل — ما لاقى بسببها من عنت وإرهاق .

بيد ان السياسة لا تكاد تعطى حتى تأخذ ولا تكاد تؤيد حتى تخذل ، وما إن جاء المتوكل حتى أخذ مجد المعتزلة فى الأفول ، وحل الجمود والمحافظة محل اليسر والطلاقة ، ولم يقف الأمر عند هذا ، بل حمل الناس على آرائهم فحاربوها وعلى آثارهم فأبادوها ، وبذا قضوا على معظم مؤلفات مدرسة تعد من أكثر مدارس الإسلام إنتاجاً .

وهذا فى أغلب الظن من أهم الأسباب لنقص مادتنا أحيانا فى الاعتزال والمعتزلة ، وسر ما يلحظ من قلة المصادر المباشرة فى هذه الناحية . إلّا أنا نعتقد أن هناك كتابين نشرا أخيراً يمكناننا من تدارك كثير من هذا النقص ، ونعنى بهما « مقالات الإسلاميين » للأشعرى و« نهاية الإقدام » للشهرستانى . وفى ضمهما إلى كتاب « الانتصار » للخياط ، وبعض كتب القرون الأخرى ما يسمح بإعطاء فكرة واضحة عن كبار المعتزلة واحداً واحداً .

وفى ضوء هذه المصادر نستطيع أن نقف على كثير من المصطلحات التى لجأ إليها المعتزلة وكان طبيعياً أن يصطلحوا ، فقد بحثوا وأثاروا مشكلات عدة كان لابد لهم أن يعبروا عنها ويختاروا للدلالة عليها الألفاظ الملائمة . ولا نشير هنا إلى اصطلاحاتهم الخاصة كالعدل والتوحيد والصلاح والأصلح ، والحسن والقبيح العقليين والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنما نشير إلى تلك المصطلحات التى تبناها الفلاسفة من بعدهم ، وبقيت تردد فى المدارس المختلفة كالجزء الذى لا يتجزأ أو الجوهر الفرد والجسم والروح ، والجوهر والعرض والحركة والسكون ولهم تعبيرات تحمل صدى أرسطو وتردد آراءه ، كذلك الذى يعزى إلى أبى الهذيل العلاف فى قوله : « الله عالم وعلمه ذاته » .

فلدى المعتزلة إذن مصطلحات فلسفية كما أن لديهم فلسفة ، وإذا كان التفكير الفلسفى الإسلامى قد نبت على أيديهم ، فليس غريباً أن تنبت معه الألفاظ والعبارات التى تؤديه . ما يلحظ على هذه الألفاظ أنها عربية خالصة ، ذلك لأن واضعيها تمكنوا من اللغة تمكنا تاماً ، فاستطاعوا أن يتخيروا لكل معنى أحسن لفظ يلائمه . وبلاغة واصل وأبى الهذيل والنظام والجاحظ كانت مضرب المثل ومبعث الإعجاب .

وأما المترجمون فقد بدءوا أيضاً مهمتهم قبل أن يظهر الفلاسفة ، واستمروا يعالجونها بعد ظهورهم وعلى مقربة منهم . وإنا لندع جانباً ما حوّل من ترجمات فى أخريات القرن الأول الهجرى على يدى خالد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز ، وبعبارة أخرى ما ترجم فى عهد بنى أمية ، فقد كان محدوداً للغاية . والعباسيون هم الذين دفعوا الترجمة الإسلامية دفعة قوية وشاركهم فى ذلك العظماء والوجهاء ، ومضت تسير فى طريقها نحو قرنين أو يزيد . فاختاروا المترجمين الأكفاء وبذلوا جهوداً كبيرة فى البحث عن الكتب القيمة ، وأنشأوا بيت الحكمة ليقيم فيه المترجمون وتحفظ آثارهم .

وقد استوعبت الترجمة الإسلامية ألواناً شتى من الثقافة والمعرفة فترجمت كتب علمية وفلسفية ، وأخرى أدبية ودينية . وأفاد المسلمون من الثقافات الكبرى التى سبقتهم – شرقية كانت أو غربية – ونقلوا عن اللغات الآتية : العبرية والسريانية والفارسية ، والهندية واللاتينية ، واليونانية . ولم يكتفوا بأصل ولا ترجمة واحدة للمؤلف الواحد ، بل حاولوا أن يجمعوا له عدة أصول وأن يترجموه غير مرة كى ينقلوا إلى العربية فى أدق صورة ممكنة أفكار الأمم الأخرى .

ولسنا فى حاجة أن نعرض لما نعم به هؤلاء المترجمون من حظوة لدى الخلفاء والأمراء ، فقد بعث فى طلبهم إلى جهات عدة ، وأغدقت عليهم النعم من كل جانب ويكفى أن نشير إلى أن الرشيد أعلن فى حاشيته يوماً ، أن من أراد منه شيئاً فليسأل جبريل بن بختيشوع الذى لا يرد له طلباً . ويحكى أن حنين بن إسحق كان يبيع مترجماته للمأمون بما يعادل وزنها ذهباً ، ولئن كان فى هذه الرواية ضرب من المبالغة ، فإنها تدل قطعاً على مدى عناية الخلفاء بالمترجمات والمترجمين .

لم يقف المسلمون فى البحث عن المترجمين عند جنس ولا عقيدة معينة ، فكان منهم الفرس والهنود ، والصابئة واليهود والمسيحيون . غير أن هناك جهات ثلاثاً لها شأنها ، قد غذت المسلمين بكبار المترجمين وأقوم الكتب العلمية والفلسفية وأنفعها ، ونعنى بها الإسكندرية وجنديسابور وحرّان . ففى الإسكندرية

بدئت أول ترجمة فى الكيمياء والطب دعا إليها خالد بن يزيد ، والكيمياء الإسلامية مستمدة فى أغلبها من الإسكندرية ، والطب الإسلامى فى أساسه جالينوسى أو بعبارة أخرى إسكندرى ذلك لأن الإسكندرية قد احتفظت بمعظم مخلفات جالينوس . ومدرسة الإسكندرية أو الأفلاطونية الحديثة ذات أثر واضح فى مختلف المدارس العقلية الإسلامية . وباختصار تعتبر الإسكندرية همزة الوصل بين أثينا وبغداد .

وأما جنديسابور فكانت مقر تلك المدرسة الطبية المشهورة التى أسسها كسرى الأول ، ومنها استمد المسلمون الكثير من أطبائهم ومترجميهم ، وخاصة آل بختيشوع الذين كان لهم شأن يذكر فى تاريخ الترجمة والطب العربى .

وأما حرّان فكانت ملجأ الوثنية اليونانية بعد أن أغلق جوستينيان المدارس الفلسفية فى الغرب . وقد أمدت المسلمين بطائفة من العلماء والمترجمين على رأسهم ثابت بن قرة ، والبنانى الفلكى والرياضى ، وابن وحشية صاحب الفلاحة النبطية .

فعن هذه المدن الثلاث صدر معظم المترجمين وخاصة جماعة النساطرة واليعاقبة الذين أبقوا على الدراسات الفلسفية فى الشرق . ودون أن نسترسل فى الحديث عن هؤلاء المترجمين وما أكثرهم نخص بالذكر مدرسة لها خطرها ، وهى مدرسة حنين بن إسحق التى قضت نحو قرن فى جمع المؤلفات القيمة المكتوبة باليونانية والسريانية ، وترجمتها ترجمة دقيقة . فقد ضمت حنيفاً ، وابنه إسحق ، وابن أخته حبيشاً ، والحجاج بن مطر ، ويحيى بن البطريق ، وقسطا بن لوقا ، وفى هذه المدرسة كانت تترجم الكتب القديمة ، وتعلم اللاتينية والسريانية لتلاميذ أتموا ما بدأ أساتذتهم ، فكان يترجم من اليونانية إلى العربية رأساً ، أو منها إلى السريانية ، ومن هذه إلى العربية .

وقد كان حنين وابنه إسحق يعرفان الفارسية واليونانية والسريانية والعربية وقد رحل حنين إلى القسطنطينية للبحث عن الكتب القديمة ، وقضى هناك عامين للتمكن من اللغة اليونانية ، ويصرح بأنه أعاد فى شيخوخته ترجمة ما سبق له أن ترجمه فى شبابه ، أو ما ترجمه سابقوه ومعاصروه ترجمة ناقصة

وأنه كان يحرص الحرص كله على أن يقيم ترجمته على أصول يونانية . وإذا كان قد عني بالترجمات الطبية ومؤلفات جالينوس خاصة ، فإن ابنه إسحق قد أوقف معظم جهوده على الترجمات الفلسفية وكتب أرسطو وشروحها بوجه خاص ، فترجم ما يزيد على نصف ما عرف منها فى العربية وحرر ما سبق ترجمته منها . ولا أدل على هذا من أن الأب ألف الأسلوب الجالينوسى ، بحيث كان يستطيع الحكم على مخطوط طبي ما بمجرد قراءته إذا كان من وضع جالينوس أم لا . أما الابن فقد أضحى حجة فى الترجمات الفلسفية ، ويشهد لذلك ما ورد فى مخطوط ترجمة « الأورجانون » الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ، والذى أخذنا عنه صورتين فوتوغرافيتين محفوظتين بمكتبة جامعة فؤاد الأول إذ يشار فيه إلى أن لإسحق ترجمة أخرى سابقة لمنطق أرسطو تسمى « الدستور » ، وهى بهذا تعتبر حجة المترجمين ويمكننا أن نقرر بوجه عام أن إسحق وأباه هما أكبر مترجمى الإسلام .

وما دمنا بصدد الترجمات الفلسفية فإنه ينبغى أن نشير إلى شخصيتين أخريين لهما أيضاً شأنهما وهما أبو بشر متّى ، ويحيى بن عدى اللذان عاصرا الفارابى ، بل لقد تتلمذ لأولهما وكان أستاذاً للثانى . وقد ساهم هذان العالمان مساهمة واضحة فى ترجمة الكتب الفلسفية ، وإتمام ما قام به إسحق بن حنين وكانت لهما قدم راسخة فى ترجمة الكتب المنطقية ، وكثيراً ما أشير إليهما فى مخطوط « الأورجانون » الذى تحدثنا عنه من قبل .

ولقد عرف المسلمون الفلاسفة السابقين لسقراط ، وأنصاف السقراطيين والسوفسطائيين والشكاك ، والرواقيين ، والأبيقوريين ، إلَّا أنهم لم يترجموا لهؤلاء جميعاً شيئاً يذكر ، ولم يستوقفهم إلَّا مؤلفات أفلاطون وأرسطو وما عليها من شروح . فترجم من محاورات أفلاطون بيقين الجمهورية ، والنواميس ، وطيماوس ، والسوفيسط ، والسياسى ، وفيدون ، ودفاع سقراط . وعربت كتب أرسطو كلها تقريباً . ولكى يُفهم أرسطو جيداً كان لابد من ترجمة كتب شراحه ، فبدئ بثيوفرسطس ، وعنى عناية خاصة بالإسكندر الأفروديسى أو فاضل المتأخرين كما كان يسميه ابن سينا .

ولم يقف المسلمون عند مؤلفات جالينوس الطبية ، بل ضموا إليها كتبه الفلسفية لما لها من صلة بأفلاطون وأرسطو معا . وكان لشراح الإسكندرية أثر فى تفهم النظريات الأرسطية ، بل ربما كانوا أقرب إلى المسلمين وأكثر قبولا من الشراح القدامى وخاصة فورفوريوس ، وثامسطيوس ، وسمبليقوس ، ويحيي النحوى .

وإذا ما شئنا أن نحكم على هذا المجهود العظيم ،وجدنا أن هؤلاء المترجمين قد ضموا إلى الدقة والنزاهة المقدرة العلمية واللغوية فكانوا أمناء فى نقلهم دقيقين فى عملهم ، يتحرون المصادر ويتثبتون منها كل التثبت ، وإذا كانوا قد أخطأوا فى نسبة مؤلف إلى غير واضعه فتلك أحوال نادرة على أنهم ربما انساقوا إليها تحت تأثير من سبقوهم ، كما حدث فى كتاب « الربوبية » الذى أثبت البحث أخيراً أنه إنما عزى إلى أرسطو خطأ قبل الإسلام وعلى أيدى السريان الأول .

وأما كفايتهم العلمية فيشهد لها أنهم لم يكونوا مجرد نقلة ،وإنما كانوا يعملون بالنواحى التى يترجمون فيها . وقديماً سماهم ابن النديم العلماء المترجمين وعد الشهرستانى كثيرين منهم بين الفلاسفة.وحديثاً أطلق عليهم البارون كارا دى‌فو لقب الموسوعيين أو أصحاب دوائر المعارف Encyclopèd - istes ويظهر أنهم لم يكتفوا بهذه الثقافة الواسعة المتشعبة ، بل شاءوا أن يضيفوا إليها تخصصاً فى بعض المواد وبعض المترجمات . فحنين بن إسحق طبيب تفرغ للطب وتخصص تقريباً فى المترجمات الطبية ، وبوجه أخص فى مؤلفات جالينوس . وابنه إسحق فيلسوف عنى بالمترجمات الفلسفية وكان له فى ترجمة كتب أرسطو منزلة ممتازة . وثابت بن قرة رياضى اتجه خاصة نحو المترجمات الرياضية ، وترجمته « لعناصر » إقليدس معروفة مشهورة .

وقد ترك هؤلاء المترجمون من المؤلفات ما يبين نواحى ثقافتهم ، ويبرز فى وضوح مستواهم العلمى . وكان لهم شغف خاص بما سموه « المداخل » فمدخل فى الطب وآخر فى الرياضة وثالث فى الموسيقى ، و هكذا . وكأنهم بذلك يجارون فورفوريوس فى مدخله الذى شاء أن يقدم به « لمقولات » أرسطو .

ومهما يكن من أمر هذه المداخل ، فإنها مضمومة إلى مؤلفاتهم الأخرى تعتبر إحدى نقط البدء الهامة فى الحركة العلمية والفلسفية فى الإسلام .

وأما مقدرتهم اللغوية فتبدو فيما وصلنا من مترجماتهم ومؤلفاتهم . حقاً أنهم لم يتمكنوا من اللغة تمكن المعتزلة ولكن فى أسلوبهم وضوح وبساطة تعين على فهم المعنى المراد . وعبارة مخطوط « الأورجانون » الذى أشرنا إليه من قبل سهلة مستساغة وإن لم تخل من ركاكة أحياناً . والمهم أنها ترجمة صادقة لما كتبه أرسطو ، فقد قورنت بالأصل اليونانى وثبتت سلامتها ودقتها . ولقد قام برجشير بدراسات مقارنة من هذا النوع فيما ترجمه حنين ابن إسحق ، وانتهى إلى أن هذا المترجم كان حريصاً كل الحرص على أن يؤدى الأصل الذى يترجمه أصدق أداء فى اللغة العربية ولو أساء إلى جمال أسلوبه بعض الإساءة ، فالدقة مستوفاة بحيث تشعر القارئ بأن المترجم متمكن من ألفاظه وتعبيراته كل التمكن وما قيل عن حنين يمكن أن يقال عن مترجمين آخرين .

على أن هؤلاء المترجمين – كما أسلفنا – ما كانوا يعملون فى انفراد ، بل كانوا متضافرين متعاونين ويمكن أن يقال أكثر من هذا إنهم كانوا متنافسين متسابقين يرمى كل واحد منهم ، إلى أن يسبق أقرانه ويقدم أصدق ترجمة ممكنة لما يوكل إليه ، فإن لم يوفق أعيدت ترجمته أو صححت ونقحت . وإحصائية واحدة كافية فى توضيح ذلك ، فثلاثة وعشرون شخصاً اشتركوا فى ترجمة كتب أرسطو ، وكان نصفهم أو يزيد يجيد اليونانية والعربية وقد ترجموا له عشرين مؤلفاً ، وقدموا لها ٨٨ نصاً أى بمعدل أربعة نصوص أو يزيد للمؤلف الواحد ، وفى هذا ما يسمح بمقارنة وموازنة كافية .

* * *

وقد ساهم هؤلاء المترجمون مساهمة فعالة فى تكوين المصطلحات الفلسفية إلى حد أن قسطاً كبيرا مما تخيروه من الألفاظ لا يزال مستعملا إلى اليوم. ومخطوط « الأورجانون » وهو من أقدم المترجمات الفلسفية التى وصلتنا يشتمل على مصطلحات منطقية لا تكاد تختلف عن المصطلحات التى استعملها الفلاسفة والمناطقة اللاحقون ولقد حرص المترجمون على أن يستمدوا مصطلحاتهم من

العربية أولا ، فاستعاروا ألفاظاً ذات دلالات لغوية معروفة وشاءوا لها أن تؤدى معانى جديدة على طريق المجاز العربى . وقد يلجأون إلى مصطلحات العلوم الأسبق تكويناً فيستعملون بعضها للتعبير عن بعض المعانى الفلسفية ، فلفظة « الحكم » و« القضية » مثلا عرفتا لدى الفقهاء قبل أن تعرفا لدى المناطقة .

واشتراك مصطلحات بين علوم مختلفة أمر ملحوظ فى اللغة العربية ، وقد أشار إليه الخوارزمى قديما فى « مفاتيح العلوم » فلاحظ أن هذه الاصطلاحات والمواضعات تؤدى معانى مختلفة على حسب العلوم التى تستعمل فيها ، فالرجعة لغة المرة من الرجوع وعند الفقهاء الرجوع فى الطلاق وعند المتكلمين ما يزعمه الشيعة من رجوع الإمام بعد غيبته أو موته ، ولهذا اللفظ دلالات أخرى عند الكتاب والمنجمين . وليس بلازم أن تكون هناك صلة وثيقة بين المدلول اللغوى والمدلول الاصطلاحى وإن تلمست بعض الملابسات أحياناً .

وإذا لم يجد المترجمون فى العربية اللفظ الملائم مباشرة استعانوا بالنحت والاشتقاق لخلق ألفاظ تؤدى المعانى الجديدة ، وكان لهم فى المصادر الصناعية فسحة كبيرة كالهوية والماهية . وقد يضمون لا النافية إلى كلمة ما ليكونوا منهما لفظاً جديداً كاللاأدرية واللانهائية . وهذا تركيب غير مألوف فى اللغة العربية .

فإن أعوزتهم الألفاظ العربية لجأوا إلى اللغات الأجنبية فعربوا بعض كلماتها وكان نصيب الفلسفة من هذه الألفاظ غير قليل فعن اليونانية أخذ مثلا هيولى ، أسطقس ، فنطاسيا ، ناموس . ومن السريانية استعيرت كلمة « ميمر » بمعنى باب أو فصل ، وسمع الكيان أو « شمعاً كيانا » ترجمة لعنوان كتاب الطبيعة لأرسطو . وأما الألفاظ الفارسية المعربة فقد استعمل منها قسط كبير كالهندسة والجوهر . يقول الخوارزمى : « إن أكثر هذه الأوضاع (المصطلحات) أسام وألقاب اخترعت أو ألفاظ من كلام العجم عربت » .

وهذه الألفاظ الدخيلة تحمل ولا شك تارة الأصل الذى صدرت عنه ولذلك استعين بها أحياناً على كشف بعض الحقائق وتحقيق بعض المسائل . ومن ذلك ما حاوله بومشترك من التدليل على أن كتاب « الربوبية » قد نسب إلى أرسطو خطأ فى السريانية قبل أن تعرف هذه النسبة فى العربية .

ولم يكن المترجمون موفقين دائماً فيما تخيروا من ألفاظ أخرى ، لهذا عدل عن بعضها إلى ألفاظ أخرى ، والمصطلحات العلمية فى حركة مستمرة تبعاً لتحرك العلوم أنفسها ومن أمثلة ذلك لفظ « أوسيا » (Ousia) اليونانية فقد ترجمت أولا بكلمة « عين » العربية واستمرت هذه الكلمة الأخيرة مستعملة إلى عهد الأشعرى إلَّا أنها من الألفاظ المشتركة التى لاتدل نصاً على معنى معين ، لذلك عدل عنها إلى كلمة « جوهر » الفارسية التى قدر لها أن تقضى على الأولى وتحل محلها نهائياً .

* * *

تلك فى اختصار بعض جهود المعتزلة والمترجمين فى تكوين المصطلحات الفلسفية وإذا كنا نرجع إلى هذا الماضى لننقب عنه ، فما ذاك إلَّا لنعرفه على وجهه ونستعين به على تجاربنا الحاضرة . وفى نشأة المصطلحات الفلسفية الإسلامية دروس ما أجدرنا أن نفيد منها ، وفى مقدمتها أمور ثلاثة :

أولها — أن للترجمة شأناً أى شأن فى وضع المصطلحات الجديدة واختيارها فكلما كان المترجم متمكنا من اللغة التى ينقل عنها واللغة التى ينقل إليها كان أقدر على تخيل اللفظ الملائم وكلما خضعت الترجمة لإشراف ومراجعة من أطراف عدة كانت أعون على نقل الأفكار الأجنبية نقلا محكما . وكذلك كان الشأن فى الترجمة الإسلامية . فقد كانت وليدة تضافر وتعاون ونتيجة مجهود مشترك لم يخل من تنافس وتسابق ونقد وملاحظة . وإذا كانت ترجماتنا الحديثة فى أغلبها ثمرة أعمال فردية فإن فى النشر ما يضعها موضع النقد والملاحظة ، وفى استعمال مصطلحاتها فى التأليف والدراسة ما يصفها وينقيها . لهذا ينبغى أن نلاحظ هنا جهود المؤلفين والمترجمين المعاصرين قبل أن نقر مصطلحاً من المصطلحات الجديدة . وإذا كانت مهمة المجمع فى أساسها التسجيل فواجبنا وواجب الخبراء معنا أن يتتبعوا جهود المعاصرين أولا إن فى مصر أو فى البلاد العربية ففى هذه الجهود ما يذلل بعض الصعاب التى تعرض لنا . ورب مصطلح مشهور يؤدى المعنى المراد منه بوجه ما ، خير من مصطلح جديد يخلق خلقاً وإن كان أدق فى الدلالة على معناه .

وإذا كنا ندعو إلى تسجيل المصطلحات المعاصرة فنحن فى حاجة أمس إلى حصر المصطلحات القديمة. والعلوم العربية ملأى بالمصطلحات التى لم تنشر ولم تعرف بعد على وجهها، وهذا تراث لا يصح أن نهمله أو نضيعه، وقد نحوا فيه ما يغنينا عن نحت أو اشتقاق أو تعريب وما أجدر أن نحيي هذه المصطلحات القديمة ونخرجها إلى سوق التداول العلمى الحاضر.

فعند دراسة عالم أو فيلسوف إسلامى نعنى بمصطلحاته بقدر ما نعنى بآرائه ونظرياته، وعند نشر مخطوط أو إعادة طبع كتاب قديم نأخذ أنفسنا بإبراز ما فيه من ألفاظ فنية ومصطلحات إنا إن فعلنا أحيينا معالم تراثنا القديم وكشفنا عما فيه من ثروة، ويسرنا على المشتغلين بالعلوم الحديثة تخير ما يلائمها من اصطلاحات.

وأخيرا رسم لنا مترجمو الإسلام سنّة صالحة فى الأخذ بها توفير للجهد وقضاء على بعض أسباب التعارض والاضطراب وذلك أنهم اتقوا ما استطاعوا الإسراف فى وضع المصطلحات الجديدة، فكلما وجدوا اللغة العادية قادرة على أداء معنى من المعانى اكتفوا بها، ولم يبحثوا عن مصطلح خاص وبذا وقفت اصطلاحاتهم عند النظريات الكبرى والقضايا الثابتة فقدر لها أن تحيا (ويؤخذ بها إلى اليوم) أما أن يوضع لكل فكرة لفظ جديد ولكل معنى مصطلح خاص ففى هذا ما فيه من الأثقال والبلبلة خصوصاً إذا كان من اليسير أداء هذا المعنى باللغة العادية وهذه ملاحظة لها شأنها فيما نعانيه من آراء ونظريات حديثة، إن فى الكيمياء والطبيعة أو فى علم النفس مثلا. فمن بين هذه النظريات ما لم يستقر بعد، ومن هذه الآراء ما لايزال موضع خلاف بين الباحثين، وقد لا يلتزم أصحاب هذه الآراء التعبير عنها بألفاظ ثابتة بل يغيرونها بتغير المواطن والكتب فمن العبث إذن أن نتعجل نحن فنقف على أمثال هذه الآراء ألفاظاً خاصة مع أنه قد يقضى عليها بعد حين. وما أشبه هذا بالبحث عن الكمال فى الوقت الذى لا نجد فيه السبيل إلى الضرورى.

ومن الإسراف أن نأخذ عالما أو فيسلوفاً ما ، فنحاول أن نغلب مصطلحاته على الآخرين مع أنه لا يمثل إلّا حلقة واحدة من حلقات التفكير العديدة فى مادة ما . وقد لا يكون رأيه المعتد به اليوم ، وفى هذا ما فيه من التعصب وضيق الأفق . فلنضع مصطلحاتنا بقدر ولنقف عند الآراء الثابتة والنظريات المستقرة خشية أن ننغمس فى ترف لا جدوى لنا منه الآن .

المصطلحات العلمية المعاصرة

١ — المصطلح جزء من المنهج العلمى ، ولا يستقيم منهج إلاّ إذا قام على مصطلحات دقيقة تؤدى الحقائق العلمية أداء صادقاً . وقديما قالوا : « للعلم لغة أحكم وضعها » . وبالمصطلح يستحضر المعنى بأيسر وسيلة ، ويقرب إلى الأذهان وبه يستعان على التعلم ، ويتفاهم العلماء . وقد لاحظ ليبنتز بحق أن اختلاف العلماء يرجع فى قدر كبير منه إلى خلاف على مدلول الألفاظ .

والمصطلح لغة خاصة ، تسير بسير العلم ، وتقف بوقوفه . ولم تنشط هذه اللغة قط نشاطها اليوم ، ذلك لأن العلوم فى حركة دائبة . وتاريخ العلوم إلى حد ما تاريخ لمصطلحاتها ، وهو وثيق الصلة بتاريخ الأدب واللغة . ويوم أن ازدهر العلم اليونانى ، ازدهرت معه اللغة والأدب ، ورأينا فى أثينا لغة علمية إلى جانب اللغة الأدبية فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . وفى بغداد اقترنت النهضة الأدبية بنهضة علمية فى القرنين الرابع والخامس للهجرة . وفى باريس وصل الأدب الفرنسى إلى قمته فى القرنين السادس عشر والسابع عشر يوم أن اتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية .

وللعالم كامل الحرية فى اختيار اللفظ الذى يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية . فيستمده من الفصحى أو من العامية ، ويستعين عليه باللغات الحية أو الميتة . وقد يشكو من قصور اللغة وعجزها عن أداء ما يريد ، ويلجأ إلى الأرقام أو الرموز كما صنع فى الرياضة والكيمياء وكثيرا ما شكا اللغويون من تهجم العلماء على اللغة ، وعابوا عليهم الاشتقاق على غير قاعدة ، والنحت بلا داع ، والتعريب

(*) بحث بالإنجليزية أرسل إلى مؤتمر المستشرقين الذى عقد بنيودلهى فى يناير سنة ١٩٦٤ .

دون حاجة ومتن اللغة عزيز على أهله دائماً ، وقد يتسامحون فى خطأ نحوى أحياناً وقل أن يغفروا لفظاً دخيلا . وربما كانت آفة اللغة من النقلة والمترجمين أكثر مما هى من العلماء والمخترعين .

٢ — وقد نشأ العلم فى الإسلام منذ عهد مبكر ، فكان الصحابة يتعلمون الكتاب والسنة ، وجدوا فى جمعهما وتدوينهما ، ودرسوهما من نواح مختلفة ، وحولهما قامت علوم الدين واللغة . وما إن حل القرن الرابع الهجرى حتى تحدد موضوعها ، واتضح منهجها ، وتكونت مصطلحاتها ، وأضحى لكل علم مصطلحاته الخاصة ، كمصطلحات الكلام والفقه والنحو .

وإلى جانب العلوم النقلية قامت علوم عقلية ، ازدهرت بدورها فى القرنين الرابع والخامس للهجرة . فتدارس المسلمون الطب والكيمياء ، والفلك والطبيعة وأقاموا المعامل والمراصد ، وانتهوا إلى كشوف لم يسبقوا إليها . وكانت لهم لغة علمية متجددة ومتنوعة ، وإذا لم يؤد مصطلح معناه أداء كاملا عدل عنه إلى ما هو أدق وأضبط ، ومما يؤسف له أن هذه اللغة كثيراً ما غابت عن بعض الباحثين المعاصرين .

لم يتكون المصطلح العربى القديم دفعة واحدة ، بل قضى زمناً ينمو ويتطور ولم يبال واضعوه بأن يكون المصطلح عربيا أصيلا أو معربا دخيلا ، وربما آثروا اللفظ الأجنبى إذا كان أدخل فى المعنى وأكمل فى الأداء . فترجمت مثلا كلمة Ousia اليونانية فى البداية بلفظ « عين » بالعربية ، ثم عدل عن هذه لشيوعها إلى كلمة «جوهر» الفارسية الأصل . وكثيراً ما يحمل التعريب شارة المصدر الذى نقل عنه ، فتلحظ الألفاظ الفارسية فى مستحدثات الإدارة والحضارة ، واليونانية والسوريانية فى العلوم الفلسفية والطبيعية . وقد ثبت المصطلح العلمى واستقر بحيث تنوسى معناه الأول ، ولم يفهم إلّا فى مدلوله الجديد . وسجلت المصطلحات فى معجمات خاصة وتوفر للعرب منها عدد غير قليل ويكفى أن نشير إلى « مفاتيح العلوم » للخوارزمى (٩٩٧م) ، و« كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى (١٧٤٥م) .

وأبى المصطلح العربى إلّا أن يغزو ثقافات أخرى ، فنقلت منه ألفاظ إلى اللاتينية حين أخذ المدرسيون ينقلون عن العربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وغمر الفارسية والتركية والأردية بسيل منه ، ولا تزال هذه اللغات

تردد مصطلحات عربية خالصة ، وربما استطاعت أن تفيد من المصطلح العربى الحديث ، كما أفادت من المصطلح القديم .

٣ — ويوم أن ركد البحث العلمى ركدت لغته معه ، فأهملت المراصد فى العالم العربى ، وجمدت المصطلحات ، فلا تجديد فيها ولا ابتكار ، ولا حياة ولا قوة . وردد الخلف ألفاظاً وصيغاً قال بها السلف ، وأضحت اللغة العلمية ركيكة معقدة .

ثم جاءت النهضة العربية الحديثة على فترة من البحث والدراسة ، ويظهر أن رجالها الأول فى القرن التاسع عشر لم يكونوا على علم بماضيهم ، ولا على صلة بعلومهم ومصطلحاتهم القديمة فلم يستفيدوا كثيرا من هذا التراث ، وأخذوا يؤدون الحقائق العلمية أداء لا يخلو من تعجل وخطأ . وقد وضعوا فى آخريات القرن الماضى بعض المعجمات العلمية التى تحمل طابعاً عامياً وأجنبياً واضحاً .

وكان على أبناء القرن العشرين أن يتداركوا هذا النقص ، وينهضوا باللغة العلمية نهوضهم باللغة الأدبية . وكان عليهم خاصة أن يتابعوا سير العلم فى العصر الحاضر ، ولم تستحث خطاه قط بقدر ما تستحث اليوم . وأضحت المصطلحات العلمية فى نمو مطرد وتجديد لا ينقطع ، ولها فى اللغات الأوربية معاجم تزاد وتستكمل عاما بعد عام . وفكر فى إنشاء المجامع اللغوية ، وأريد بها أن تساهم بنصيب فى إحياء المصطلح العربى ونهوضه .

٤ — لمجمع اللغة العربية ، الذى أنشئ بالقاهرة فى أول العقد الرابع من هذا القرن ، شأن فى نهضة المصطلحات العربية المعاصرة ، ومن أهم أغراضه « أن يجعل اللغة وافية بمطالب العلوم والفنون » . وقد شغل بذلك منذ قيامه ، محاولا إحياء المصطلح القديم إن كان ثمة سبيل إلى إحيائه ، أو البحث عن مصطلح جديد ، وحرص على أن يتأنى فى الدرس والمراجعة فيعرض للمصطلح فى لجانه ، ثم فى مجلسه ومؤتمره ، ولا يتردد فى أن يعيد النظر فيه إن دعا الأمر .

ويؤمن بأن مهمته الأولى أن يسجل ما اصطلح عليه المختصون ما دام لا يتعارض مع أصل من أصول اللغة ، ويدعو إلى جمع المصطلحات العربية

القديمة ، وإن كان يرى أنها أصبحت لا تفى بالحاجة . ولا يتردد فى أن يعرب كما عرب قديماً ، فأخذ عن اليونانية والهندية ، والسوريانية والعبرية ، والفارسية والتركية ، وكما عرب حديثاً عن الأسبانية والإيطالية ، والإنجليزية والفرنسية والعامية فى قسط كبير منها فصيحة الأصل ، ولا ضير أن نستعين بها فى صوغ المصطلح الجديد .

وتوسع فى الاشتقاق والقياس ، فأجاز مثلا الاشتقاق من أسماء الأعيان والجواهر ، فيقال مكهرب وممغنط من الكهرباء والمغنطيس ، كما قيل قديماً مفضض ومذهب وقال بقياسية المصدر الصناعى ، وكان مقصوراً من قبل على السماع ، فيقال المثالية والكانطية كما قيل قديما الجبرية والقدرية. وحاول أن يقيس أوزاناً فيما لم يقل بالقياس فيه لأداء دلالات خاصة ، كالحرفة والداء والصوت . وأجاز النسب إلى جمع التكسير وكان مقررا ألا ينسب إلا إلى مفرد ، ودخول « ال » على « لا » النافية كاللاهوائى واللامائى .

ورسم للتعريب ضوابط تنظمه فيعرب خاصة ما يدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس كأكسجين وإلكترون ، وما يدل على تصنيف عام من أجناس وأنواع فى النبات والحيوان أو سلسلة مواد متشابهة فى الكيمياء ، وما ينسب إلى علم من اسم شخص أو اسم مكان ، وينبغى ترجمة ماوراء ذلك من الكلمات التى أخذت من اللغة العادية لأداء معان علمية . ويحتفظ فى التعريب بالأصل ما أمكن ، ويؤخذ بأقرب نطق إلى العربية ويشكل المصطلح المعرب ضبطاً لنطقه .

ويرى أن يؤدى المعنى الواحد بلفظ واحد ، وأن يكون هذا اللفظ واضحاً دقيقاً ، صالحا للاشتقاق والنسبة إليه ، مع تجنب الغرابة والابتذال . ويختص كل علم بمصطلحاته ، وقد يستعمل اللفظ الواحد فى معان مختلفة باختلاف العلوم ، على أن توحد المصطلحات المشتركة التى لا تتغير دلالاتها من علم إلى علم .

واستطاع بهذا أن يقر آلاف المصطلحات فى العلوم المختلفة ، وأخرج منها كراسات ومجموعات متلاحقة ، ويحرص فى السنوات الأخيرة على أن يخرج

كل عام مجموعة تشتمل على ما يقره مؤتمره السنوى ، وتبلغ فى المتوسط نحو ألفى مصطلح ، وفى هذه المجموعات عون للدارسين والباحثين ، وفيها نواة صالحة للمعجمات العلمية المتخصصة .

٥ — وتحظى المصطلحات العلمية اليوم بعناية خاصة من المؤلفين المترجمين وفى ربع القرن الأخير نشاط ملحوظ فى التأليف والترجمة العلمية . دعت إليه حاجة التعليم العام والجامعى ، والرغبة الأكيدة فى نشر الثقافة . وفى العربية اليوم مؤلفات علمية حديثة متعددة ومتنوعة ، وربما ألحق بالمؤلف ثبت بما ورد فيه من مصطلحات ومقابلها الأجنبي . وبدئت محاولات فى وضع معجمات عربية فى بعض العلوم .

ولا نزاع فى أن الدراسة الجامعية ، وهى تنتشر وتتوطد فى العالم العربى عاما بعد عام ، ستدفع هذا التأليف قدما وتوفر كتباً علمية للخاصة ، وأخرى للثقافة العامة . وللدراسة الابتدائية والثانوية كتبها العلمية التى يرجى أن توحد فى البلاد العربية . وهناك مؤسسات للنشر والتأليف والترجمة ، وهى تغذى القارئ العربى بغذاء لا ينقطع من العلم والفن .

٦ — وبرغم هذا ، لا يزال المصطلح العلمى المعاصر قلقاً ودون الحاجة . فيه بلبلة واضطراب فى الحديث والكتابة ، فيختلف من بلد إلى بلد ، بل ومن مؤلف إلى آخر . يصطلح العلماء أحياناً كل كما يرى ، ويترجم المترجمون على أنحاء مختلفة . وتباينت النهضة العلمية ، بدءاً ومؤثرات ، من بلد إلى بلد فبينما يلحظ مثلاً أن العراق والسودان أكثر تأثراً بالثقافة الإنجليزية ، إذا بشمال إفريقية تغلب عليه الثقافة الفرنسية ، وربما اجتمع فى بلد واحد أكثر من تيار ثقافى ، كما هو الشأن فى مصر .

وتبذل جهود شتى لتوحيد المصطلح فى البلاد العربية ، عن طريق المجامع اللغوية تارة والمؤتمرات العلمية تارة أخرى . وتساهم الجامعة العربية فى ذلك مساهمة فعالة ، فتعقد لجاناً للمصطلحات تمثل فيها البلاد المختلفة ، وتنظم المؤتمرات وتشجع الاتحادات العلمية . وفى وسعها أن تقود حركة ثقافية عربية شاملة ،

وربما كانت أعمق وأنجع مما يعالجه اليونسكو فى النطاق الدولى . والعالم العربى فى اتصاله الفكرى والثقافى لا بد ملتق عند مصطلحات علمية وفنية واحدة ، وقد خطا بالفعل خطوات فسيحة فى سبيل توحيد المصطلح العلمى ، وبرهنت العربية على أنها ليست أقل استجابة لمقتضيات العلم من أية لغة أخرى ، وكم من مصطلح عربى ألصق بمعناه وأدق فى دلالته من مصطلح أجنبى .

مجمع القاهرة والمصطلح العلمى

ترجع فكرة هذا المجمع إلى القرن الماضى ، دعا إليه الأستاذ الإمام محاكاة لما عرفه عن الأكاديمية الفرنسية أثناء إقامته فى باريس وحقق الفكرة بالفعل فى صورة متواضعة فى نهاية هذا القرن ، فيما سمى « بمجمع البكرى » ولم يقدر لهذا المجمع أن يعمر طويلا . ثم أثير الموضوع فى قوة فى أوائل القرن العشرين وبخاصة فى « نادى دار العلوم » وأعيدت التجربة مرة أخرى فى العقد الثانى من هذا القرن فيما سمى « مجمع دار الكتب » وكان هو الآخر مجمعاً أهلياً متواضعاً ، عمر بضع سنوات ، ولم يلبث أن توقف نشاطه . وكان لابد لنا أن ننتظر إلى العقد الرابع من هذا القرن ، لكى نشهد ميلاد مجمع القاهرة الحالى (١٩٣٢) وقد أريد به أن يأخذ فى تكوينه شكلا يختلف عن المجامع والأكاديميات اللغوية الأخرى ، فلم تقصر عضويته العاملة على الأعضاء المصريين وحدهم بل امتدت إلى غيرهم من العرب والمستعربين وكان عدد أعضائه عند تكوينه عشرين ، نصفهم من المصريين ، والنصف الآخر من العرب والمستعربين ، ولم يراع فى اختيار هؤلاء جميعاً أى اعتبار لتمثيل سياسى أو إقليمى ، بل بنى هذا الاختيار على أساس خدمة العربية والاشتغال بعلومها . وبقى هذا محترماً ومعمولا به بنسب متفاوتة حتى عام ١٩٦١ ، ثم أريد أن تقصر هذه العضوية على المصريين وعلماء العرب ، وفى تعديل أخير لقانون المجمع حرص المجمعيون على أن يعودوا إلى تقليدهم القديم ، وفتحوا باب العضوية العاملة للمستعربين مرة أخرى . أما العضوية المراسلة فكانت ولا تزال تغذى بخدام اللغة والثقافة الإسلامية شرقا وغرباً ، من آسيويين وأفريقيين وأوربيين وأمريكيين وكان لهذا التعاون شأن فى وضع قواعد العمل المجمعى ، ورسم خطة واضحة لخدمة اللغة .

(أ) اللغة بين الحاضر والماضى :

حياة كل لغة فى أمرين هامين : ماض له قداسته ، وحاضر له متطلباته واللغات الحية هى تلك التى تعتز بماضيها وحاضرها معاً . وتكاد تتلخص مهمة المجامع اللغوية فى الملاءمة بين هذين الجانبين ، فتستبقى من الماضى أسلسه وأنفسه وتتقبل من الحاضر أحكمه وأدقه ، وماضى اللغة تراث أدبى من نثر ونظم ، وتراث فكرى من علم وفلسفة . وعلى المجامع أن ترعى هذا التراث ، وتدعو إلى إحيائه ، وعبثاً تحاول إن شاءت أن تحيى الألفاظ الغريبة والمهملة . وفى الماضى اللغوى عصور ازدهار وعصور ركود . وكثيراً ما طال الحديث حول عصر الاحتجاج اللغوى : أنقف به عند القرن الثانى للهجرة أو نمده إلى القرون التالية ؟ ولعل من الخير ألّا نقف طويلا اليوم عند هذا الخلاف ، لأن فى عصور الركود الأدبى درراً لا يصح أن نهملها .

وحاضر اللغة ما تعيش فيه من مستحدثات العمران والمدنية ، ومبتكرات العلم والتكنولوجيا . وما تواجهه من مشاكل الفرد والمجتمع ، وما تضطلع به من أعباء السلم والحرب ، وما تعبر عنه من شؤون المال والاقتصاد والسياسة وحاضر اللغة باختصار هو المجتمع فى شتى مظاهره ، وقد عدت بحق ظاهرة اجتماعية تسير بسير المجتمع ، وتقف بوقوفه . وتمتاز العربية — بين اللغات العالمية الكبرى — بأنها قديمة وحديثة فى آن واحد ، واستطاعت أن تسد فى الماضى حاجة العلم والحضارة الإسلامية الكبرى ، وها هى ذى تواجه متطلبات النهضة العربية المعاصرة . وفى حاضرها ما يملؤنا ثقة بأنفسنا ، وما يشعرنا بأنا نملك حقاً لغتنا ونستطيع أن نتصرف فيها .

(ب) العمل المجمعى :

إنه لطويل وشاق ، يتطلب صبراً وأناة ، وعلماً ودراية ، وذوقاً وحسن تقدير ويعيش المجمعيون — كغيرهم — بين تيارين متقابلين : محافظة وتجديد ، ويكاد يدور حوارهم وجدلهم حول هذين الاتجاهين ، وفى هذا التقابل ما يضمن قسطاً غير قليل من الاتزان فى الحكم وسلامة التقدير . وقد تكتب الغلبة أحيانا لأنصار القديم ، ولكن الزمن فى سيره يفرض سلطانه على أشد

الناس محافظة . وفى تاريخ مجامعنا اللغوية العربية المعاصرة — على قصره — ما يشهد بتطورها ، ويبرهن على تلاقى المحافظين والمجددين على كلمة سواء .

ونخطىء إن زعمنا أن المجامع تستأثر وحدها بخدمة اللغة . لأن لكل لغة حياة أطول وأعرض ، وأقوى وأنشط مما يجرى بين جدران مجمع لغوى . لها حياتها فى البيت والمدرسة ، فى الحقل والمصنع ، فى السوق والمتجر ، فى المكتب والديوان ، فى الصحف والمجلات ، فى المسرح والسينما ، فى الكتب والمؤلفات فى المعاهد والجامعات وهنا تحيا اللغة وتتطور ، تخلق وتبتكر . تسير مع الزمن وعلى المجامع اللغوية ، أن تتابع هذا السير ، وتراقب خطاه ، فتلاحظ وتسجل وتقر ما استقام وشاع ، وترفض ما أعوج أو خرج على الأصول الثابتة . توحى ولا تأمر ، ولوحيها أثره ، ولتوجيهها فعله ، وعليها أن تعول دائماً على الخبراء والمتخصصين .

ويدور العمل المجمعى حول أبواب مختلفة أخصها تيسير اللغة فى متنها وقواعدها وكتابتها ، وتهذيب المعجم اللغوى وتطويره بحيث يتمشى والمنهج العلمى الحديث ، وإمداد لغة العلم والحضارة بما تحتاج إليه من مصطلحات وألفاظ ، ووضع معجمات علمية متخصصة وإحياء التراث اللغوى ، وتشجيع الإنتاج الأدبى .

ويعنينا أن نقف قليلا عند المصطلح العلمى ، ونبين مدى إسهام مجمع القاهرة فيه .

(ج) المصطلح العلمى :

لكل علم لغة خاصة تعتمد على مصطلحاته وتعبيراته ، وبها يتم الفهم والتفاهم بين طلابه والمشتغلين به . وكم من مصطلحات ماتت فى مهدها ، لأنها لم تؤد وظيفتها على وجهها الصحيح وحياة المصطلح فى استعماله وشيوعه بين أخص المختصين به ، وإن لم يقبله هؤلاء فمن العسير أن يقبله الآخرون . وفى توحيده تثبيت له وتعزيز وتحيا اللغة العلمية كلها بحياة العلم نفسه ، وحيث لا علم لا سبيل إلى التحدث عن لغة علمية .

وحظيت العربية قديما بعلم أصيل ، أخذت وأعطت ، وكان لعلمها شأن فى النهضة الأوربية الحديثة . ولهذا العلم لغته ومصطلحاته. وقد عول واضعوها على النقل والاشتقاق ، ولم يبالوا بأن يكون المصطلح عربياً أو معرباً وربما آثروا المعرب إن كان أدل على المعنى وأكمل فى الأداء . وما إن حل القرن الرابع الهجرى حتى اكتملت لغة العلوم الإسلامية ، واستقرت مصطلحاتها ، وتداولها الباحثون فى العالم الإسلامى جميعه ، وانتقل قدر منها إلى اللغات الأجنبية .. ويوم أن ركد البحث العلمى فى العالم العربى ، ركدت لغته معه . ثم جاءت النهضة العربية الحديثة فى القرن الماضى ، فحاولت أن تحيي علومها . وقد نشطت الحركة العلمية العربية فى القرن الحاضر ، وأخذت تكون من جديد لغتها ، مستعينة بالدراسات العالية والجامعية ، ومعولة على الهيئات العلمية بوجه عام ، وعلى المجامع اللغوية بوجه خاص .

(د) عناية مجمع القاهرة به :

لا شك فى أن لغة العلم ومستحدثات الحضارة كانت من أهم البواعث التى دفعت إلى قيام المجامع العربية . ويكفى أن نشير إلى أن « مجمع البكرى » شغل ببعض ألفاظ حضارية « كالمدرة » للأفوكاتو ، « والمسرة » للتليفون ، واقترح « مجمع دار الكتب » : « المليل » للفول المدمس ، « والوثل » للسلب . ولمجمع القاهرة شأن كبير فى وضع المصطلح العلمى ونشره ، والدعوة إلى توحيده . وقد أعد للأمر عدته ، فكوّن منذ نشأته لجاناً متخصصة لتحرير لغة العلوم المختلفة ، ورسم على مرّ الزمن منهجاً واضحاً لوضع المصطلح والتعريف به ، وحرص على نشر مقرراته فى هذا الباب بشتى الوسائل ، وآمن بضرورة توحيد المصطلح العلمى والأخذ به .

وسنعرض لهذه الجوانب فى الفصول التالية ، إن شاء الله .

المصطلح النحوى

النحو بين علوم اللغة من أولها ظهوراً ، وحديث أبى الأسود الدؤلى (٦٧هـ) خير شاهد على ذلك ، وإن كنا لانسلم بأنه وضع شيئا فى علم النحو ، وكل ماحدث أنه شعر باللحن فى قراءة القرآن ، فاقترح أسلوبا لشكله ، واللحن مدعاة للبحث عن قواعد الإعراب . ولا غرابة فى أن تكون البصرة أول مدينة إسلامية قامت فيها مدرسة نحوية ، فقد اختلطت فيها الأجناس والثقافات ، وفشا اللحن وحاول اللغويون أن يجدوا سبيلا لدرئه وتخفيفه ، وكانت إلى جانبهم نماذج من أجروميات أخرى بين سريانية ويونانية . ومن الثابت أن النحو السريانى ، وهو متأثر بالنحو اليونانى ، قد وضع بنصيبين ، وهى على اتصال بالبصرة ، فى القرن السادس الميلادى قبل الإسلام بقليل . وكان من بين المشتغلين به يعقوب الرهاوى (٦٨هـ) الذى عرفه العالم العربى .

وفى البصرة قام الرعيل الأول من النحاة ، وكانوا لغويين وأدباء قبل أن يكونوا نحاة ، وعلى رأسهم ابن أبى اسحق الحضرمى (١١٧هـ) الذى وضع كتابا فى «الهمز» ، وكان قياسا يحاول أن يجمع الأشباه والنظائر فى ضوابط محددة ، وتتلمذ له عيسى بن عمر الثقفى (١٤٩ هـ) الذى ألف كتابى « الجامع » و« الإكمال» ، وتوسع فى القياس كما صنع أستاذه . ثم جاء الخليل بن أحمد (١٧٥ هـ) شيخ البصريين وواضع أول معجم لغوى كبير فى العربية ، ومؤسس علم العروض . وقد أحل الشكل بالحركات محل الشكل بالنقط ، وضيق دائرة القياس على عكس ما صنع عيسى بن عمر ، ولم يقس إلّا على الأشيع والأعم . وليس ببعيد أن يكون قد وقع بصره على شىء من قواعد الأجرومية فى اللغة السنسكريتية ، ولم تعرف له كتب نحوية ، ويظهر أنه استودع سره فى هذا لدى تلميذه سيبويه (١٨٠هـ) أكبر نحاة البصرة ، وقد خلف لنا التلميذ الذائع الصيت « الكتاب » ، وهو أكبر أثر باق من نحو البصريين الأول . وعليه اعتمد أنصاره فيما بعد ، فبسطوا فيه ما بسطوا ، وشرحوا ما شرحوا ، ونقدوا ،

واستدركوا ، وهو مؤلف جامع ، يمزج بين النحو واللغة والأدب ، ويشتمل على العناصر الأساسية لعلم النحو العربي . أخذ فيه سيبويه عن الخليل خاصة ، وعن بعض اللغويين والنحاة السابقين كأبي عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) ويونس بن حبيب (١٨٢ هـ) ولكن نخطئ إن زعمنا أنه قعد قواعد النحو على الصورة التي ظهرت بها فيما بعد . وقد قام على أمرها شيوخ البصريين كالمبرد في القرن الثالث ، وأبي على الفارسي وابن جني في القرن الرابع ، ولهما في القياس باع طويل ، والزمخشري في القرن السادس وابن يعيش في القرن السابع .

وقد أخذ الكوفيون عن البصريين ومدرستهم متأخره عنهم بنحو مائة سنة وهي إلى السماع أميل ، وهذه هي النقطة الجوهرية التي تفصل بين المدرستين وللمدرسة الكوفة أعلام لا يقلون شأنا عن أعلام البصرة ، وعلى رأسهم الكسائي (١٨٩ هـ) مؤسس المدرسة ، ومنافس سيبويه ، وتلميذه الفراء (٢٠٧ هـ) الذي توسع في التفريعات ، والجزئيات . وتلاه ثعلب (٢٩١ هـ) ، وهو من أنجب تلاميذ المدرسة الكوفية . ويظهر أن السياسة عززت جانب الكوفيين بعض الشيء ، لأنه كان من كبارهم مربو الخلفاء والأمراء ، فكان الكسائي معلم الأمين والمأمون ، والفراء معلم أولاد المأمون ، وابن السكيت (٢٤٥ هـ) معلم أولاد المتوكل ، و مع هذا لم يمتد نشاطهم في المشرق أكثر من قرنين ، وقدر للمذهب البصري الغلبة عليهم .

وأدى التقاء البصريين مع الكوفيين في بغداد وحوارهم معهم إلى قيام مدرسة نحوية ثالثة هي مدرسة البغداديين ، ومن أشهر رجالها ابن قتيبة (٢٧٦ هـ)، وأبو حنيفة الدينوري (٢٩٢ هـ) . وقد أخذوا بطرف من المذهب البصري وآخر من المذهب الكوفي ، ولكنهم لم يتركوا نظرية واضحة المعالم ، وما وصلنا عنهم قليل ، وينصب على مسائل فرعية ، ومدرستهم دون نزاع أقل شأنا من المدرستين السابقتين .

وللأندلس وبلاد المغرب يد في تاريخ الدراسات النحوية ، قامت فيها مدرسة رابعة على رأسها ابن مضاء القرطبي (٥٩٠ هـ) الذي حمل على نظرية العامل البصرية حملة عنيفة ، وآثر السماع على القياس في اللغة ، وأهل شمال

أفريقيا والأندلس أميل إلى الأثر والسماع فى الفقه والنحو على السواء . ومن رجال هذه المدرسة ابن معطى (٥٦٣ هـ) الذى استن سنة كتابة النحو شعراً فى قصيد طويل، وجاراه ابن مالك (٦٧١هـ) فى صنيعه وبزّه فيه . والمدرسة الأندلسية مدرسة موفقة كمدرسة بغداد ، وإن تكن أعمق بحثا ، وأميل إلى المذهب الكوفى الذى وجد طريقه إلى الأندلس قبل المذهب البصرى فعززته وردت إليه ما فقده فى الشرق . واستطاع ابن مالك أن يكوّن نحواً يلائم بين الطرفين ويأخذ فى الاعتبار بعض الآراء الكوفية ، وإن اعتمد أساسا على المذهب البصرى ، وهذا النحو هو الذى قدر له أن يسود فى القرون الأخيرة وعرف ابن هشام المصرى (٧٦٠ هـ) كيف يعرضه عرضا دقيقا منسقا فى كتبه المختلفة وخاصة فى كتابه « مغنى اللبيب » .

تلك هى المدارس التى عنيت بعلم النحو ، وصاحبته فى نشأته ونموه . وقد اصطلحت على لغة موحدة تداولتها فيما بينها، استمدت مصطلحاتها من علوم سابقة ، أو أنشأتها إنشاء . ومن أمثلة هذه المصطلحات الحرف والحركة ، الاسم والفعل والجملة ، المقصور والممدود ، المنصرف وغير المنصرف ، الإعراب والبناء ، ولم تتكون هذه المصطلحات لأول وهلة ، بل عدلت وهذبت ، نمت وتطورت . ثم استقرت منذ القرن الثالث للهجرة ، وأصبحت مألوفة للنحاة على اختلافهم ، ولا يزال درس النحو يعتمد عليها إلى اليوم . واستوعبت الدراسات النحوية معظم نشاط المثقفين فى القرون الستة الأخيرة . وكثيراً ما يلاقى شبابنا اليوم عنتا فى تعلمها والوقوف على تفاصيلها ، وقد دعى إلى تيسير النحو على الناشئين منذ أخريات القرن الماضى ، ولا تزال هذه الدعوة قائمة . وخطونا فيها خطوات لا بأس بها ، وجدير بنا أن نتابعها أسوة بنحو الإنجليزية بين اللغات الحية .

ولا شك فى أن النحو العربى فى مادته ومصطلحه ثروة طائلة قد يقوى عليها الباحثون والمتخصصون ، ولكنها دون نزاع عبء ثقيل على جماهير الناشئين ولذلك دُعى إلى تيسير تعليمه منذ أخريات القرن الماضى ، وخطا فى سبيل ذلك خطوات بعض المشتغلين به والقائمين على تعليمه ويكفى أن نشير من بينهم إلى حفنى ناصف صاحب« قواعد اللغة العربية »، وهو أول كتاب معاصر قصد به تيسير

هذه القواعد وعرضها فى صورة مركزة مختصرة . وسار على نهجه على الجارم فى « النحو الواضح» ، الذى عول فيه كثيراً على المثال والعبارة لاستخلاص القاعدة . وفى أول العقد الرابع من هذا القرن اضطلع الدكتور بهى الدين بركات بأعباء وزارة المعارف ، ولمس خطر هذه المشكلة فى بلد ينادى بنشر الفصحى وتعميم التعليم ، وقصد إلى مواجهتها ،وكون لذلك لجنة من رجال اللغة العربية فى الوزارة وكبار أساتذة كلية الآداب بالجامعة . وانتهت هذه اللجنة إلى مشروع مكتمل عرض على مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٥ ، وقد درسه طويلا ، ثم انتهى إلى إقراره بتعديل يسير ، وطالب خاصة بأن توضع على أساسه كتب نحوية جديدة ،ولم ير بأسا من أن يتولى وضعها ، وإلا فإنه يطلب أن يراجعها قبل نشرها ، وقبل وضعها فى أيدى التلاميذ .

وأريد فى عام ١٩٦١ تنفيذ هذا المشروع فوضعت فيه على عجل كتب مدرسية لاعلم للمجمع بها ، ولم يلبث التنفيذ أن توقف لشكوى بعض المدرسين فى الغالب ، وبخاصة مدرسى اللغة العربية فى سوريا ، وعبثا حاولت الوزارة تدارك الأمر دون جدوى. ولا تزال المشكلة قائمة ، وزاد أبنائنا من العربية قليل ، وإقبالهم عليها ضعيف. وما أجدرنا أن نواجه هذا الموقف مواجهة صادقة ، أسوة بما اتبع فى تعلم الأجرومية فى بعض اللغات الحية ، وبخاصة الإنجليزية ولا يشك أحد أن المقصود هو تعلم اللغة ذاتها ، وسبيل ذلك القراءة السليمة السهلة الملائمة ، والمتدرجة مع أعمار التلاميذ ، أما الإعراب والقاعدة فلا يلجأ إليها عادة إلا عند الغموض وتعذر الفهم .

منطق أرسطو والنحو العربى

لم يصادف نحو من العناية ما صادفه النحو العربى . نشأ فى الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة ، وبقى ينمو ويتكون خلال القرون التسعة التالية . فبحث عن الرواة ورجال البادية لتؤخذ عنهم الأساليب الصحيحة والتعبيرات المستقيمة ويستشهد بنقلهم ورواياتهم . وتوالت المدارس بعضها على أثر بعض : بين بصرية وكوفية أو بغدادية وأندلسية ، تتلاقى أحياناً وتتعارض أخرى ، أو تتوسط ، فتسلك مسلك الجمع والتوفيق . ووضعت الرسائل الصغيرة فى بعض الموضوعات الفرعية ، كالمقصور والممدود والمذكر والمؤنث ، أو الكتب الجامعة ، نثراً أو نظماً ، كالكتاب لسيبويه والمفصل للزمخشرى والكافية لابن الحاجب والألفية لابن مالك والمغنى لابن هشام . وخلط النحو باللغة والأدب ، ثم فصل عنهما ليصطبغ بصبغة معينة ويعتمد على مصطلحاته الخاصة . وشرحت النصوص والشواهد ، وجمعت الشواذ والغرائب ، وأحصيت أوجه الخلاف بين نحوى ونحوى ، أو بين مدرسة وأخرى . وترجم للنحاة ورتبوا طبقة بعد طبقة . وقد تشعبت الدراسات النحوية بحيث استوعبت معظم نشاط المثقفين فى القرون الستة الأخيرة . وفى اختصار يمكننا أن نقول مع دى بور « إن علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربى لما فيه من دقة فى الملاحظة ونشاط فى جمع ما تفرق ، وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره ، ويحق للعرب أن يفخروا به » .

وإذا قارنا النحو العربى بعلوم النحو القديمة والحديثة وجدنا أن أحداً منها لم يصادف ما صادفه من درس وعناية ؛ فللإغريقية واللاتينية نحوهما ، ولبعض

(*) بحث ألقى فى مؤتمر المجمع (الجلسة السابعة ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٤٨) .

اللغات الشرقية القديمة نحو معروف كالسريانية والعبرية ، غير أنه لم يصل نحو من هذه إلى ما وصل إليه النحو العربي من عمق البحث وسعة الدراسة وتشعب الآراء . أما اللغات الحديثة فقد اختزلت – فى كثير منها – نحوها واختصرته فى أضيق الحدود الممكنة .

ولم يكن غريباً أن يعنى المسلمون بالنحو هذه العناية ، فهو أداة من أدوات فهم الكتاب والسنة ، ووسيلة ضرورية لمن شاء أن يعالج العلوم الدينية ،وخاصة من الموالى والأعاجم الذين ليست العربية فطرتهم ولا الفصحى سليقتهم . وقد جاء فى مقدمة ابن خلدون أن من أراد الشريعة فلابد له من معرفة علوم اللسان العربى ، وهى أربعة : لغة ونحو وبيان وأدب ، وأهمها النحو لأنه يبين أصول المقاصد بالدلالات ، ولولاه لجهل أصل الإفادة واختل التفاهم جملة .

بيد أنه لايزال فى النحو العربى جوانب غامضة ، أخصها ما اتصل بنشأته والعوامل التى أثرت فى تكوينه . وعندى أن هذه العوامل كثيرة ومتنوعة ، بين داخلية وخارجية وعربية وأجنبية . وسأقصر كلمتى هذه على منطق أرسطو وأثره فى النحو العربى .

ولاشك فى أن المنطق الأرسطى قد صادف فى القرون الوسطى المسيحية والإسلامية نجاحاً لم يصادفه أى جزء آخر من فلسفة المعلم الأول فعرف أرسطو المنطقى قبل أن يعرف أرسطو الميتافيزيقى ، وترجم الأرجانون قبل أن يترجم كتاب الطبيعة أو كتاب الحيوان . وللأرجانون فى العالم العربى منزلة خاصة ، فكانت أجزاؤه الأولى أول ما ترجم من الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية ، ثم ألحقت بها الأجزاء الأخرى فترجمت وشرحت واختصرت . وتوالى البحث فى المنطق لدى المدارس الإسلامية المختلفة عند الفلاسفة والمتكلمين ، بل وعند الفقهاء .

والغزالى فى حملته على الفلسفة والفلاسفة يضع المنطق جانباً لأنه إنما ينصب على قوانين الاستدلال العقلى بصرف النظر عن موضوعه ، ويذهب إلى أبعد من هذا مقرراً أن المنطق ليس خاصاً بالفلاسفة وحدهم ، بل هو متصل أيضاً بالمتكلمين الذين يسمونه علم الجدل أو علم النظر . وقد استخدم الفقهاء كثيراً من المصطلحات

المنطقية فى بحوثهم الأصولية ، فتحدثوا عن الجنس والنوع ، والكلى والجزئى والعام والخاص . واعتبروا القياس أصلا من أصول التشريع الأربعة ،ورسموا قواعده ونظموا طرقه محاكين صنيع أرسطو فى قياسه المنطقى . ونعود مرة أخرى إلى الغزالى فنجده يقول فى مقدمة كتابه معيار العلم « إن النظر فى الفقهيات لا يباين النظر فى العقليات فى ترتيبه وشروطه وعياره » ويضيف إلى هذا أنه ما دامت الهمم فى عصره متجهة نحو البحث الفقهى فإنه سيقدم فى هذا الكتاب المنطقى أمثلة فقهية كى يعم النفع . وفى كتاب آخر له أصولى – وهو المستصفى يرى لزاماً عليه أن يقدم له بمقدمة منطقية خالصة يعتبرها ضرورية ومتممة لعلم أصول الفقه .

***

ولم يقف الأمر – فيما نعتقد – عند الفقه والكلام والفلسفة ، بل امتد إلى دراسات أخرى من بينها النحو ، وقد أثر فيه المنطق الأرسطى من جانبين : أحدهما موضوعى ، والآخر منهجى . فتأثر النحو العربى عن قرب أو عن بعد بما ورد على لسان أرسطو فى كتبه المنطقية من قواعد نحوية ، وأريد بالقياس النحوى أن يحدد ويوضع على نحو ما حدد القياس المنطقى .

وقد يقال : ما للنحو والمنطق ، واللغة فى أساسها اصطلاح كثيراً ما يعصى قوانين العقل والمنطق ؟ ولكن لا نزاع فى أن منطق أرسطو قد اشتمل على مبادئ نحوية ، ففى المقولات وهو الجزء الأول من كتبه المنطقية يعرض للألفاظ ، ثم يتناول فى الجزء الثانى – كتاب العبارة – الجمل ويفصل القول فيها ، وهذه أمور فى ظاهرها نحوية . ولم تخل كتبه المنطقية الأخرى من قواعد الأجرومية اليونانيــة .

ونود أن نلقى نظرة عاجلة على بعض هذه القواعد لنتبين ما يمكن أن يلحظ من شبه بينها وبين أول ما عرف من قواعد النحو العربى ، ورائدنا فى هذا الأرجانون من جانب وكتاب سيبويه من جانب آخر. ففى مقدمة كتاب العبارة يقسم أرسطو الكلمة إلى اسم وفعل معرفاً الأول بأنه مادل على معنى وليس الزمن جزءاً منه ، ومعرفاً الثانى بأنه ما دل على معنى وعلى زمن . ثم يشير فى كتاب

منطق آخر — هو طوبيقا أو الجدل — إلى قسم ثالث من أقسام الكلمة يسميه الأداة . وهنا ننتقل إلى كتاب سيبويه فنجده يبدأ بتقسيم الكلم إلى اسم وفعل وحرف ويعرفها الواحد تلو الآخر تعريفاً يحاكى من بعض النواحى التعريف الأرسطى . ومن الغريب أن ما يسميه سيبويه حرفاً يسميه الكوفيون الأداة ؛ وكأنهم شاءوا أن يحتفظوا بالمصطلحات المنطقية احتفاظاً تاماً .

وندع جانباً ما ورد على لسان أرسطو من حديث عن النوع والكم ، أو بعبارة أخرى عن التذكير والتأنيث والإفراد والجمع ، وما عرض له من توضيح الإثبات والنفى ، والطلب والاستفهام مما له بالنحو صلة وثيقة . ونكتفى بأن نشير إلى مثل آخر له شأنه ، وهو أساس تكوين الجمل فعلية كانت أو اسمية ، ونعنى به الإسناد . ذلك أن أرسطو عرض بإسهاب لنظرية الإسناد فى كتابى المقولات والعبارة ، ففى الأول يحاول أن يحصر أنواع المحمولات العامة الممكنة ، وفى الثانى يوضح الصلة بين المحمول والموضوع ويعرف الجملة التعريف النحوى الصحيح . وهنا نعود إلى سيبويه ، فنجده يتحدث فى « الكتاب » عن المسند والمسند إليه ، وفى مكان آخر يعقد الفصل الآتى : « المبتدأ والمبنى عليه » وكأنه يريد أن يقول الموضوع والمحمول عليه . وواضح أن الإسناد دعامة كل نحو عربياً كان أو غير عربى .

وقد يتساءل : ما لسيبويه الفارسى أصلا العربى تربية ولمنطق أرسطو ولم يعرف له ولوع بالفلسفة والمنطق ؟ وما أحوجنا إن شئنا أن نجيب على هذا السؤال إجابة واضحة أن نعرض لشىء من تاريخ الترجمة فى الإسلام . وقد سبق أن حدثتكم عن أثر الترجمة والمترجمين فى نشأة المصطلحات العلمية والفلسفية ، وأعتقد أن نشأة كثير من العلوم الإسلامية تتصل بهؤلاء المترجمين . ومن الثابت أن كتب أرسطو المنطقية الثلاثة الأولى (المقولات ، والعبارة ، وأنالوطيقا الأولى أو التحاليل الأولى) كانت معروفة لدى السريان وقد ترجمت إلى لغتهم الأولى قبل الإسلام ، ويقال أيضاً إنها نقلت إلى الفارسية . والمهم أنها ترجمت إلى اللغة العربية منذ النصف الأول للقرن الثانى الهجرى ، ترجمها عبد الله بن المقفع عن الفارسية أو ابنه محمد عن السريانية على خلاف فى ذلك . فهى إذن ثروة جديدة نقلت إلى العالم العربى ، ولا بد أنها قوبلت بما تستحق

من تقدير ، إن من سيبويه أو من سبقه ممن اشتغلوا بالمسائل النحوية ، وقد كان النحاة يحاولون ـ شأن كل باحث ـ أن يستعينوا على ماهم بصدده بما يعرفون من لغات أو دراسات أخرى .

على أن هناك عملا مشابهاً تم على مقربة من نحاة العرب الأول ، وهو وضع النحو السريانى بمدرسة نصيبين فى القرن السادس الميلادى ولا شك فى أن هذا النحو قد تأثر بالنحو اليونانى ومنطق أرسطو ، ومن بين واضعيه والمشتغلين با مترجمون اتصلوا بالعرب ونحاتهم وعاشوا معهم . فيعقوب الرهاوى له شأنه فى وضع النحو السريانى وهو معروف فى الأوساط العربية ، وحنين ابن إسحق مترجم آخر معاصر للخليل وسيبويه ، بل وصديق للخليل[1] ، وقد تعلم العربية فى سنّ متقدمة وعانى منها ما عانى ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية ، خصوصاً وهو يعزى إليه أنه ترجم بعض كتب الأجرومية اليونانية وأتم مع ابنه إسحق البقية الباقية من كتب أرسطو المنطقية .

وفى وسعنا أن نقرر بعد كل هذا أن المترجمين فى تعلمهم للعربية وفيما نقلوا من كتب أجنبية قد بدأوا فى القرن الثانى للهجرة فأثاروا جواً حول المشاكل النحوية ولأرسطو فى هذا الجو نصيب ملحوظ ولا يصح أن نغفل ما لهذا الجو من أثر على نحاة العرب الذين عاشوا فيه وتغذوا بغذائه المادى والمعنوى . ووجه الشبه بين المنطق والنحو قديم . فصناعة المنطق من العقل والمعقولات كصناعة النحو من اللسان والألفاظ ، وهذا ما أشار إليه الشاعر بقوله :

فالمنطق للجنـــان نسبته كالنحو للسان

ولأمر ما سمى نحاة البصرة بأهل المنطق ، ولهذه التسمية ما لهـا من دلالة .

ولعل فى هذا ما يفسر تلك المفاجأة التى أحدثها كتاب سيبويه ، بظهوره فى تلك الصورة الجامعة ، دون أن تصل إلينا سوابق ممهدة له الأمر الذى دفع صاحب « طبقات الأمم » أن يقول إنه لا يعرف كتاباً ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بدقائقه ، غير كتب ثلاثة : المجسطى فى الفلك ، والأرجانون فى المنطق ، وكتاب سيبويه فى النحو . وفى

هذه الدعوى تسامح ظاهر وجهل بالتاريخ . وإذا تركنا الفلك والمنطق جانباً ، وجدنا أنه عرفت مؤلفات فى النحو العربى قبل كتاب سيبويه ، وإن كانت لم تصلنا . وقد مهدت له دون شك ، وإن كانت أقل منه مستوى ، كما مهدت له البحوث الأدبية واللغوية السابقة والمعاصرة التى اضطلع بها أمثال عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء . ولسنا فى حاجة أن نلاحظ أنه مزيج من الأدب والنحو واللغة . هذا إلى أنه أشبه ما يكون بتوجيه لبعض التعبيرات والاستعمالات منه بتقنين القوانين ووضع المبادئ ، فهو لم يقعّد قطعاً قواعد النحو على الصورة التى قعدت بها فيما بعد . وقد مهد له أخيراً تلك البحوث النحوية التى نقلها المترجمون عن نحو السريانية أو عن منطق أرسطو ، ويبدو على سيبويه نفسه أنه لم يكن مغمض العينين عن أمثال تلك المؤثرات ، ويكفى أن نشير إلى ذلك الفصل الذى عقده فى الجزء الثانى من الكتاب وعنوانه « باب اطراد الإبدال فى الفارسية » .

ولقد سبق لبعض المستشرقين أن أثاروا هذه النقطة ، وإن كانوا لم يقفوا عندها طويلا ، ونذكر من بينهم بروكلمان ودى بور وزميلنا الأستاذ ليتمان . ولا يضير النحو العربى فى شئ أن تتضافر عوامل شتى على تكوينه ، أو أن يساهم منطق أرسطو فى التوجيه إليه . وهناك ناحية أخرى من نواحى الصلة بين هذا المنطق والنحو العربى ونعنى بها تلك الناحية المنهجية التى أشرنا إليها من قبل ، والتى لم توضح بعد التوضيح الكافى .

***

وكلنا يعلم ما للقياس من أهمية فى نشأة النحو العربى وغزارة مادته واستخلاص قواعده وضبط أحكامه . ذهب إليه النحاة الأول بحكم فطرتهم وسجيتهم ، مقارنين بين الأشباه والنظائر ومستنبطين منها الأوصاف المشتركة التى تلتقى فيها . وتوسع فيه من جاءوا بعدهم ، فجعلوه منهجاً ذا قواعد ثابتة ومعالم محدودة واعتبروه منبعاً رئيسياً تستمد منه القواعد النحوية ، وربما حكموه فى لغات العرب ورواياتهم ، فيقولون إن لغة أقيس من أخرى و إن تعبيراً ما يجيزه القياس وإن لم يرد به السماع وكأنما يشرعون فى النحو كما شرع الفقهاء فى

المعاملات . وها هو ذا ابن جنى يقول : « إذا بطل أن يكون النحو رواية ونقلا وجب أن يكون قياساً وعقلا » ويقرر من بعده ابن الأنبارى : « إن إنكار القياس فى النحو لا يتحقق ، لأن النحو قياس كله ، فمن أنكره فقد أنكر النحو » ، ولا يعلم أحد من العلماء ينكره ويعزى إلى الكسائى ذلك البيت المشهور :

إنما النحو قياس يتبع   وبه فى كل أمر ينتفع

وقد استخدم القياس فى النحو منذ المراحل الأولى ، فعالجه عبد الله الحضرمى المتوفى سنة ١١٧ هـ ، وأخذ يقيس ويعلل الأقيسة . ونماه الخليل بن أحمد ودعمه وتوسع فيه سيبويه أيما توسع ، وفى « الكتاب » أقيسة عدة واعتداد بالقياس فى مناسبات مختلفة لترجيح رأى على آخر . وقد لا يقف عند استقراء الأمر الواقع بل يفترض فروضاً نظرية ويعطيها أحكاماً خاصة وإذا كان نحو البصرة قد سبق نحو الكوفة بطبقتين كاملتين أو بما يقرب من مائة سنة ، فإن البصريين يعتبرون واضعى دعائم القياس فى النحو العربى . على أن الكوفيين أيضاً لم يترددوا فى استخدام القياس والتعويل عليه ، وربما اكتفوا بالشاهد الواحد فاستنبطوا منه قاعدة عامة ، وبالغوا فى الأقيسة النظرية والعلل العقلية . وها نحن أولاء نقيس حتى اليوم ، وللمجمع قرارات سابقة تتصل ببعض الأقيسة النحوية ، كالنسبة إلى جمع التكسير ، واستعمال وزن مفعلة للمكان .

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مدرستى البصرة والكوفة ، فإن مما يلفت النظر أن القياس النحوى نبت ونما فى العراق حيث نبت ونما القياس الفقهى ولم يجئ ذلك عبثاً ، وإنما كان وليد الاعتداد بالرأى والتأثر بالثقافات الأجنبية ومن بينها منطق أرسطو . وهنا نقطة ينبغى توضيحها نتحدث عن قياس فقهى وآخر نحوى ومن الخطأ أن يظن أن الأمر فيهما كما هو فى القياس الأرسطى ذلك لأن هذا الأخير يقوم فى أساسه على سير من الكلى إلى الجزئى ، أما قياسنا النحوى وزميله الفقهى فعلى عكس ذلك يسيران من الجزئى إلى الكلى . ولكن ينبغى أن نلاحظ فوراً أن أرسطو لم يهمل هذا النوع من الاستدلال ، فقد عرض فى لواحق قياسه لضربين من الاستدلال هما الاستقراء والتمثيل . وإذا كان لم يعتد بهما كل الاعتداد ، فقد قدرهما أن يستخدما فى البحوث والدراسات

العلمية التى جاءت بعد ، وعلى الاستقراء بوجه خاص يعتمد البحث العلمى الحديث .

فالقياس النحوى تمثيل إن استنبطت القاعدة من شاهد واحد — الأمر الذى كان يبغضه نحاة البصرة — أو استقراء ناقص إن استخلصت القاعدة من عدة حالات فردية وهو على كل حال فطرى فى صورته الأولى التى تتلخص فى تتبع الأشياء المتشابهة والبحث عن أسبابها وعللها وليس لأحد أن يدعى أن هذا القدر الفطرى من صنع أرسطو أو أى فيلسوف آخر ولكن يوم أن تتحول الفطرة إلى فن وصناعة ينبغى البحث عن عوامل هذا التحول . ولم يقف القياس النحوى عند تلك الصورة الفطرية التى أشرنا إليها ، بل فلسفه النحاة وافتنوا فيه إلى درجة كبيرة .

فبحثوا عن أركانه ، وقالوا — كما قال الفقهاء — إنها أربعة : أصل وهو المقيس عليه ، وفرع وهو المقيس ، وحكم قد يتنوع كما تتنوع الأحكام الفقهية فيكون واجباً أو ممنوعاً أو حسناً أو قبيحاً ، وأخيراً علة وهى دعامة القياس . ثم حاولوا بعد هذا أن يحددوا شرائط القياس النحوى الصحيح كما حدد أرسطو شرائط إنتاج قياسه المنطقى . وإذا كانت هذه الشرائط لم تصلنا على شكل كامل وفى صورة مهذبة فإننا نجد منها شذرات هنا وهناك فى « الخصائص » لابن جنى ، وفى « أصول النحو » و « الإنصاف » لابن الأنبارى ، وفى « الاقتراح فى أصول النحو » للسيوطى .

ودون أن نتتبع مبادىء القياس النحوى ، نكتفى أن نشير إلى أمثلة منها ، فيقال : يحمل الأقل الأندر على الأعم الأكثر لا العكس والحمل على ماله نظير أولى من الحمل على ما لا نظير له ، وما جاء على أصله لا يسأل عن علته ، والقياس على الفاسد فاسد ، وإن أجازوا القياس على ما ورد فى ضرورة الشعر بشرط أن يستعمل فى هذه الضرورة أيضاً . وفى هذه المبادىء وأمثالها ما يدل على أن نحاة العرب أرادوا أن يضعوا لقياسهم أصولا تحاكى تلك الأصول التى وضعها الفقهاء . وأصول القياس النحوى كأصول القياس الفقهى تلتقى فى أنها تترسم خطى القياس المنطقى .

ومثل واحد من بين هذه الأصول كاف فى توضيح ذلك ، ألا وهو مبدأ العلية ، وقد كان لهذا المبدأ شأن فى النحو العربى لا يقل عن شأنه فى المنطق الأرسطى ذلك لأن العلة هى الدعامة التى يقام عليها القياس النحوى والمنطقى . وما نظرية العامل النحوية إلا وليدة مبدأ العلية الفلسفى ، وإذا قلنا نظرية العامل فإنما نلخص النحو فى جملته ، وقديماً قالوا : « النحو أثر يجلبه العامل » وقد وضع أبو على الفارسى كتاباً سماه « العوامل » استوعب فيه النحو جميعه ، كما وضع عبد القاهر الجرجانى كتاباً آخر اسمه « العوامل المائة » فيه خلاصة نحوية مستوفاة .

والعوامل ظاهرة ومضمرة وقوية وضعيفة ، ومجموعة العوامل المتشابهة تكون أسرة واحدة . وهناك كلمات تعمل بنفسها وأخرى لمشابهتها لغيرها ، فالأصل فى العمل للأفعال ، وتلحق بها الأسماء إذا شابهتها . وتكون الكلمة عاملا حينا ومعمولا حيناً آخر ولا يمكن أن تكونهما فى آن واحد . والبحث عن العوامل بيان وتوضيح لعلل الإعراب ، ولقد عرفت علل الإعراب أو علل النحو قبل أن تعرف نظرية العامل فى ثوبها الكامل ، ويعتبر « كتاب » سيبويه أول بحث جامع للعلل النحوية .

فمن أين استمد النحاة فكرة العلل او نظرية العامل هذه ؟

يذهب فريق إلى أنهم تأثروا فيها بالفلسفة الكلامية ، وإذا كان لكل حادث محدث فلكل معمول عامل . ويقول الإمام الرضى : « إن النحاة يحررون النحو كالمؤثرات الحقيقية » . ويذهب فريق آخر أنهم تأثروا بالبحوث الفقهية ذلك لأن القياس النحوى شبيه كل الشبه فى القياس الفقهى . يقول ابن جنى فى « خصائصه » : « إعلم أن أصحابنا انتزعوا العلل من كتب محمد بن الحسن ، جمعوها منها بالملاطفة والرفق » ويشير الزمخشرى إلى شىء شبيه بهذا فى مقدمة « مفصله » ، ويضع السيوطى كتابه « الاقتراح فى أصول النحو » على تركيب يحاكى — فيما يرى — أصول الفقه فى الأبواب والفصول والتراجم . ولكن ابن جنى يعود فيقرر أن علل حذاق النحاة أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل الفقهاء ، لأنها أكثر مجاراة للطبع .

وسواء أكانت العلل النحوية أشبه بالعلل الكلامية أما بالعلل الفقهية ، فإن كلا الفرضين لا يحل الموقف تمام الحل . ذلك لأن علل الإعراب عرفت فى أوائل القرن الثانى للهجرة قبل أن تذاع وتعرف علل المتكلمين والفقهاء وإذا صدق كلام ابن جنى والزمخشرى على القرن الرابع والخامس فإنه ليس من السهل أن توضح به أحداث القرن الثانى . على أن فكرة العلية ، عند المتكلمين والفقهاء أنفسهم قد تأثرت بأصل أرسطى .

وذلك أن الفيلسوف اليونانى عرض لمبدأ العلية فى كتبه الطبيعية والميتافيزيقية والمنطقية ، ويعنينا الآن الجانب المنطقى لهذا المبدأ . ففى « التحاليل الثانية » ، يشرح أرسطو العلل الأربع: المادية ، والصورية ، والفاعلية ، والغائية ، ويبين مدى استخدامها فى التعريف والبرهان فالتعريف الصحيح هو الذى يوضح مادة الشيء وصورته ، أو يكشف عن باعثه وغايته . والقياس العلمى الدقيق هو الذى يستخلص النتيجة من عللها الحقيقية ، وكلما كان الحد الأوسط أحد العلل الأربع كان الاستنتاج سهلا يسيراً والاستدلال واضحاً قوياً .

* * *

ولم يعمل النحاة شيئاً أكثر من أنهم حاولوا أن يدعموا قياسهم بمبدأ العلية كما فعل أرسطو من قبل فتلمسوا عللا لما قرءوا وما سمعوا ، وقاسوا عليه كل ما يشترك معه فى علته . وتنوعت العلل عندهم كما تنوعت عند الفيلسوف اليونانى ، فلديهم علة تشبيه كبناء الاسم لمشابهته للحرف ، وإعراب المضارع لمشابهته للاسم ، وعلة استثقال كحذف واو يعد استثقالا لوقوعها بين ياء وكسرة ، أوعلة تغليب مثل: « وكانت من القانتين » وقد غلوا فى هذه العلل إلى حد أفقدها كثيراً من قيمتها ، ومن أمثلة المتعلمين : « العلة النحوية كالوردة تشم ولا يضغط عليها . » وإذا كان ابن جنى والسيوطى قد تصديا للدفاع عن العلل النحوية ، فما ذاك إلا لما أخذ عليها من ضعف ووجه إليها من نقد .

* * *

هذه هى آثار منطق أرسطو فى النحو العربى وجه إلى بعض قواعده ، وساهم فى تكوين بنيانه ، وأعان على رسم منهجه ، وكان عاملا قوياً من عوامل غزارة مادته واتساع أبوابه ولكنه من ناحية أخرى أصابه — فيما يظهر — بشىء

من العقم والصورية التي بلى بها المنطق الأرسطى نفسه ، فعنى بالصور والأشكال أكثر مما عنى بالدلالات والمعانى ، وأكثر من القوانين والضوابط فأثقل على العلماء والمتعلمين وغلا فى القواعد بحيث أصبحت جوفاء لا تصدق إلا على حال أو أحوال محدودة ، ومع ذلك لم تخل من شذوذ واستثناء ، وأسرف فى التمارين غير العملية التى جاءت وليدة تشبيه وفروض وهمية لا أساس لها . ومن يقرأ شرح السيرافى على « كتاب » سيبويه أو شرح أبى حيان على التسهيل يلمس أن النحاة كثيراً ما أفسدوا النحو بما وضعوا من فروع وعلل وأصول وأقيسة ومسائل غير عملية .

وفوق هذا فتح مبدأ العلية على النحاة باب فلسفة مفرطة وثقيلة أحياناً ، فهناك علل أول وثوان وثوالث ، وقد يكون للمعلوم الواحد أكثر من علة يتأولها كل نحوى كما يتراءى له . وفى باب الممنوع من الصرف أمثلة من تلك العلل المتهافتة ، وفى باب الاشتغال ولا النافية أمثلة أخرى من تلك الاعتبارات الفلسفية غير المقبولة . وكثيراً ما ورد فى المسألة قولان أو أقوال ، واستخدمت العلة الواحدة فى إثبات الشئ وضده .

وكان من نتائج هذا أن اختلف النحاة فيما بينهم اختلافاً بيناً ، اختلفوا مدارس كما اختلفوا أفراداً . وجدّ كل فريق فى الدفاع عن رأيه والتدليل على وجهة نظره ، واعتبرت التوجيهات النحوية ضرباً من النشاط الذهنى الذى افتن فيه أيما افتنان ، فكانت مثار جدل طويل لم يعدم أرسطو الحيلة فى أن يغذيه بوسائله الجدلية الكثيرة . ومن الغريب أن الخلاف فيما يصح أن نسميه فلسفة النحو أشد من الخلاف فى النحو نفسه ، ونظرة إلى « كتاب الإنصاف » لابن الأنبارى تكفى لتوضيح ذلك ، فالبصريون والكوفيون مجمعون على رفع المبتدأ ، والخلاف بينهم فى علة الرفع : هل هى الابتداء أو الخبر ؟ والنحاة متفقون على نصب المفعول معه ، وإنما يختلفون فى علة هذا النصب فالجمهور يراها ما تقدمه من فعل ، والجرجانى يرى الواو المقارنة لهذا المفعول ، والزجاج يضمر لذلك فعلا خاصاً ، والكوفيون يقولون بعامل معنوى هو الخلاف . ولا أظننى أبيح لنفسى أن أثقل عليكم بسرد أدلة كل رأى من هذه الآراء .

ولو وقف الأمر فى هذا كله عند الخاصة والمتفرغين ، لقلنا لهم شأنهم وليسلكوا من سبل البحث ما يشاءون أما أن يفرض على شباب المتعلمين جميعاً فهذا تكليف بما لا طاقة عليه ، وإجهاد فى غير طائل ولعل هذا هو الذى دفع ابن مضاء الأندلسى إلى القول بإلغاء نظرية العامل ورفض القياس والعلل النحوية ، فوق ما كان لديه من اعتبارات أخرى نظرية . ولاشك فى أن نظمنا التعليمية خطت خطوات فسيحة فى إعفاء شباب المتعلمين من هذه الفلسفات العقيمة والخلافات غير المجدية ، ولكن لا تزال دعوة تيسير النحو قائمة . وما أحوجنا أن نصنفه تصنيفاً جديداً ، فنحذف منه مالا لزوم له — وما أكثره — ونستغنى عن التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات ، ونقرب نحونا من روح العصر ومقتضيات الحياة الحاضرة ،ونراعى فيه تطور النحو فى اللغات الأخرى .

وإذا كانت لجنة الأحوال الشخصية ، بل والبرلمان قد يسرا للناس كثيراً من أمر حقوق الأسر ، فلن يعز علينا أن نيسر لهم قواعد لغتهم التى يتخاطبون بها ويكتبون قبل أن يتقاضوا ويختصموا .

الأدب المعاصر

سيادة الوزير :

سيداتي — سادتي :

أضم صوتي إلى صوت السيد الوزير ، مرحباً بضيوفنا الكرام ، ومتمنياً لهم طيب الإقامة . ونحن نرقب كل عام هذا اللقاء لكي نتبادل معهم الرأي ، ونتعاون جميعاً على خدمة لغتنا وتطويعها لمتطلبات العلم والحضارة . وقد قيل من قديم إن المجمعيين حماة اللغة ، وظن خطأ أن هذه الحماية تقضي بأن يقفوا عند القديم وحده ، ولا يفسحوا المجال لشيء سواه ، وهذا دون نزاع زعم باطل ؛ ذلك لأن للغات حياة تسير بسير الزمن ، وتسد حاجات العصر . ونحن نتحدث عن أدب معاصر ، وهذا التعبير نفسه خير شاهد على هذه الحياة .

وأدبنا المعاصر صنيعنا ، ووليد ظروفنا وبيئتنا . يتسم بسمات تميزه من الأدب الجاهلي ، وتباعد بينه وبين أدب عصور الركود والظلمة ، ومن أخص خصائصه أنه أدب سهل ، يمقت الصنعة والتكلف ، وينفر من الغموض والتعقيد ويتحاشى الغريب والحوشي ، هو أدب سهل في لفظه وتركيبه ، يتخير أرق الألفاظ وأعذبها ، ويستمسك بأفهم العبارات وأدلها ، لا يروقه السجع الثقيل ، ولا الكتابة الغامضة ، ذلك لأنه أدب أفكار ومعان ، لا مجرد رص جمل وتراكيب ، هذا إلى أنه أدب عصر السرعة الذي يصوب إلى الهدف من أقصر طريق . وهو أيضاً أدب ديمقراطي يخاطب الناس عامة . ويحرص على أن ينفذ إلى قلوب الجماهير ، لم يبق فيه محل للغة خاصة ، ولا لأسلوب مقصور على أرستقراطية معينة . وهو مع هذا ينكر الأدب الرخيص ، أدب التملق والزلفى أو أدب الانحراف الذي يستغل بعض العواطف . ويزين للناس حب الشهوات .

وهو أخيراً أدب نام ومتجدد ، له نثره ونظمه ، فيه البحث والمقالة ، والرواية والقصة وفيه شعر موزون مقفى ، وآخر حر طليق . وفى كل ذلك الغث والسمين ، ونحن نريد له جميعه أن يكون أدب نهضة وتجويد ، وأدبنا كسائر الآداب الحية ، يأخذ ويعطى ، وهذا نفسه أمارة حياة وقوة . يأخذ اليوم كما يأخذ بالأمس ، وقد أخذ فعلا عن بعض الآداب الأخرى ألفاظاً وأساليب ، ازدادت بها ثروته ، وتنوع مجال القول فيه . ولا ضير فى شيء من ذلك متى أحسن استخدامه ولم تخرج به عن أصول اللغة ومبادئها . وأوضح ما يكون أخذه فى لغة العلم والحضارة وهى فى تطور مستمر لابد لنا أن نسير معه ، ونفيد منه . وعطاء أدبنا آية من آيات جودته وقوته ، ودليل واضح على ابتكاره وطرافته . وقد ترجم فى نصف القرن الأخير قدر غير قليل من إنتاج كبار كتابنا وأدبائنا إلى بعض اللغات الحية الكبرى ، وهذا تبادل ثقافى هام نرجو له أن ينمو ويطرد .

* * *

سيداتى — سادتى :

يتابع مجمع اللغة العربية سير أدبنا المعاصر ، ويرقب حركاته ، وييسر له وسائل النهوض والتقدم ، ويشجع الشباب على الإقبال عليه ، والعناية به ، بما يقترح من موضوعات بحث ، وما يمنح عليها من جوائز . ويعنى عناية خاصة بلغة العلم والحضارة ، لأنها لغة الحاضر والمستقبل ويسهم إسهاماً واضحاً فى تعريب التعليم العالى والجامعى ، وفى وسعنا أن نقرر أن ليس ثمة هيئة علمية أخرى عنيت بالمصطلح العلمى العربى عنايته ، وهو يقدم منه كل عام فى مؤتمره زاداً يفيد منه الدارسون والباحثون وليست عنايته بمستحدثات الحضارة بأقل من عنايته باللغة العلمية ، وفيه لجنتان تغذيان المجلس والمؤتمر بغذاء متصل ، وهما لجنة ألفاظ الحضارة ، ولجنة الألفاظ والأساليب . ويكفى أن أشير إلى أن قدراً من المعروض على هذا المؤتمر ينصب على لغة المسرح والسينما .

وفى جدول أعمال مؤتمرنا محاضرتان عامتان ، يسعدنا أن نفتح الباب فيهما للدارسين والباحثين والمستفسرين ، وتدور أولاهما حول : لغة المسرح بين العامية والفصحى ، وسيتولاها الدكتور شوقى ضيف ، وموعدنا معها الخامسة من مساء يوم السبت ٢٢ من مارس فى دار الجمعية الجغرافية . وتنصب الثانية على قضايا حول الشعر العربى . وصاحبها شاعر فذ هو الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، وموعدنا معها يوم الثلاثاء ٢٥ من مارس الساعة الخامسة مساء فى دار الجمعية الجغرافية .

وسيعرض الزميل الدكتور محمد مهدى علام الأمين العام للمجمع صورة أوفى لنشاط المجمع طوال العام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

القصـــة

لقد كنا نتوق منذ فجر هذا القرن إلى أدب قومى تمليه آمالنا وأمانينا ، ويترجم عن عواطفنا وشعورنا ، ويحلل عاداتنا وتقاليدنا ، ويصور بيئتنا ووطننا أدب يحيي معالم الماضى ويبرز مظاهر الحاضر ، ويرسم أهداف المستقبل، أدب له خصائصه ومميزاته ، وشخصيته ومقوماته بحيث يذكر إلى جانب الآداب الأخرى فيتحدث عن أدب مصرى كما يتحدث عن الأدب الفرنسي والإنجليزى أدب يعيد إلى العربية مجدها وعزتها فيؤخذ منها كما تأخذ من غيرها ويترجم عنها كما يترجم إليها .

هذه هى الأمنية ، ويسعدنا أن نلاحظ — ولما يمض عليها نصف قرن — أنه قد تحقق منها قسط كبير . فإنتاجنا الأدبى خصب متنوع قد تناول أبواب الثقافة المختلفة ، من علم وفلسفة وتاريخ واجتماع ، واقتصاد وسياسة . كتب بلغة العصر وروح العصر ، فاستساغته النفوس وامتزج بالأفئدة . وبلغ بعض كتابنا وشعرائنا الذروة أو دنوا منها ، فأضحوا ولهم عشاق وأتباع فى مختلف الأقطار الشرقية ، بل لقد امتد أثرهم إلى بعض العواصم الغربية . ونظرة إلى الوراء قليلا كافية للتدليل على ماخطونا فى هذه السبيل من خطوات .

وليس شيء أحب إلى حملة راية النهوض الأول من أن يروا فى الميدان الجنود والأنصار ففى ذلك ما يطمئنهم على ازدهار غرسهم ونجاح دعوتهم ، وما يشعرهم بأن الأمانة التى سهروا عليها قد لقيت من يحسن أداءها ، وأن الرسالة التى اضطلعوا بها قد صادفت من يعرف كيف يتعهدها . وفى مسابقات

مجمع فؤاد الأول الأدبية ما يكشف عن جيل جديد يبعث على الأمل ويخلق الثقة فى المستقبل . وإذا كان بعض شباب المتأدبين تنقصه الإجادة ولا نعنى بالروية والإتقان ، ففى مثل هـذا المهرجان السنوى ما يحفز الهمم ويستثير النفوس .

* * *

ولا شك فى أن القصة باب هام من أبواب الأدب ، كان لها حظها فى الآداب القديمة ثم انتهت إلى منزلة سامية فى الآداب الحديثة . فطغت على الرسائل والمقالات ، وحلت محل القطع الوصفية والاعترافات ، وتكاد تستأثر بالأدب المنثور المعاصر . وإذا كان المسرح قد أخذ بيدها بالأمس ، فإن السينما تفتح اليوم أمامها آفاقاً فسيحة . وإذا كان الخيال والخرافة قد غذتها قديما بغذاء شهى جذاب فإن الرحلة والأسفار تمدها الآن بالطريف من أخبار القبائل والشعوب والغريب من وصف الكائنات والبقاع .

تساير القصة الناس فى طبائعهم ، وتجرى مجرى إلفهم وعاداتهم ، لذلك صادفت هوى من نفوسهم ، وأضحت من أشد أنواع الأدب تأثيراً فى الجماهير . فيها مناجاة نفسية ، وتخفيف للوعة إن كانت قد أملتها ظروف شخصية ، فإنها لاتلبث بمجرد وصفها أن تصبح قدراً مشتركاً وملكاً مشاعاً يتبناه كل من اهتدى إليه . وفيها كشف عن مكنون الصدور وخفى الطباع ، يكشف الكاتب فيها نفسه لنفسه أو عن النفس البشرية لقرائه ، ويلمس القارئ فيها أموراً كان يتوهمها دون أن يقف على كنهها أو يجد السبيل إلى التعبير عنها . ومن هذا تحمل شيئاً من طابع السرية وإن نشرت وأذيعت بين الناس ، لهذا يحرص قارئها على أن يختلى بها ويفرغ لها على انفراد وفيها سحر قد ينسى المرء من حوله ، ويصرفه عن طعامه وشرابه ، ويجد فيها من المتاع والأنس مالا يجده فى حلم لذيذ أو مجلس لم يكدر صفوه مكدر .

والقصة أداة نافعة من أدوات نشر المعرفة والثقافة ، ساغ موردها ، وكثر قراؤها ، فنقلت إليهم فروعاً شتى من العلم والفلسفة ، وصورت لهم آيات الفن والحضارة . وهناك أشخاص يرجع قسط كبير من ثقافتهم إلى ما قرءوا من

قصص وروايات ، وهناك آراء ونظريات خدمها الأدب القصصى وساعد على نشرها أكثر مما خدمها الباحثون والعلماء . وفى كلمة واحدة يمكن أن يقال إن القصة وسيلة من وسائل اشتراكية العلم وجعله فى متناول الجميع .

وللأدب العربي القديم جانبه القصصى ، وإن كان دون مايلحظ فى الآداب القديمة الأخرى . ومن يدرى ، فقد يكون القصص الجاهلى قد ضاع فيما ضاع من آثار أدبية أخرى على أن كتب الأدب الكبرى كالأغانى والأمالى والعقد الفريد تحتفظ بأقاصيص مختلفة ، والمعلقات فى قسط كبير منها قصص منظوم . وما أن اختلط المسلمون بالأمم الأخرى حتى تأثروا بقصصها ، كما تأثروا بألوان ثقافتها الأخرى ، وكتاب كليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة من أوضح الأمثلة على ذلك . وقد أنشأوا ضروباً جديدة من الأدب القصصى ، كالمقامات والرحلات ، وفى مقدمتها مقامات بديع الزمان والحريرى ، ورحلة ابن جبير وابن بطوطة .

غير أن القصة مع هذا لم تبرز فى الأدب العربى بروزها فى الآداب الحديثة . ولهذا قام أدبنا القصصى المعاصر فى أول نشأته على التقليد والمحاكاة والنقل والترجمة .

وإذا استثنينا « حديث عيسى بن هشام » ، وجدنا أن القصص والروايات التى صادفت نجاحاً فى العقدين الأولين من هذا القرن إنما كانت فى أغلبها مترجمة . ثم أخذت القصة المصرية ترسم لنفسها طريقها ، وتستكمل شخصيتها ، فخطت الأقصوصة رويداً رويداً إلى أن أضحت قصة ، وقرأنا من القصص المصرية المبتكرة مالا يقل روعة وبهاء عن بعض القصص الأجنبية المترجمة ، وأملت عاداتنا وتقاليدنا وماضينا وحاضرنا على الكتاب قصصاً فيه نقد وتحليل وعظة وحكمة . وبدا وادى النيل فى سمائه الصافية وشمسه الزاهية وطبيعته الهادئة على صورة لوحات فنية أحكم القصصيون صنعها وأجادوا التعبير عنها .

وبذا تعدد القصص المصرى وتنوع ، فمنه المسرحى وغير المسرحى ، والخيالى والواقعى ونحا القصاصون مناحى شتى ، فمنهم من أولع بالحوار يفضله على أى أسلوب آخر ، ومنهم من اختار السرد والرواية المتصلة ، ومنهم من جمع بين

هذا وذاك . ويبدو على بعضهم أنه إلى النقد الاجتماعى أميل وفى مناقشة العادات والتقاليد أرغب ، وعلى بعض آخر أنه بالتاريخ ألصق ، يستمد منه مادته ويرسم فى ضوئه أبطاله .

ولا أدل على هذا التنوع من تلك المجموعة التى قدمت لمجمع فؤاد الأول للغة العربية فى المسابقة التى تعرض جوائزها الليلة . فقد أعلن عن هذه المسابقة فى يونية الماضى ، وحددت نهاية نوفمبر آخر موعد لقبول القصص التى ألفت سنتى ١٩٤٦ و ١٩٤٧ الميلادية ، وبالرغم من هذا التضييق والتحديد تقدم إلى المجمع فى القصة وحدها نحو عشرين متسابقاً ، وبأيديهم مايقرب من الثلاثين قصة . وواضح أن هذا الرقم لا يمثل كل إنتاجنا القصصى فى هذه الفترة ، إلا أن له على كل حال دلالته ، خصوصاً والمتسابقون فى أغلبهم شباب أشربوا حب القصة وتعلقوا بأدبها . وفى إقبال الشباب على القصة ما يبعث على الأمل فيها ويؤذن بمستقبلها الزاهر .

ويعنينى أن أقف عند قصتين اثنتين من هذه القصص الثلاثين أولاهما « على باب زويلة » للأستاذ محمد سعيد العريان ، والأخرى « خان الخليلى » للأستاذ نجيب محفوظ .

فأما الأستاذ العريان فقد تخرج فى مدرسة دار العلوم منذ سبع عشرة سنة أو يزيد ، تفرغ طوالها لتدريس اللغة العربية ، وعنى بتصحيح العبارات وتقويم الأساليب . ويظهر أنه أحس أن مكتبة الطفل المصرى فقيرة ، وأن وسائل سمره وتسليته محدودة ، فاتجه مع بعض زملائه إلى وضع كتب تلائمه ، ووجد فى القصة خير وسيلة لتسليته . وكان من نتائج ذلك « سلسلة القصص المدرسية » التى ظهر منها حتى الآن أربع وعشرون قصة فى أسلوب سهل مبسط .

وإلى جانب مساهمته فى هذه السلسلة ، استقل بمجموعة أخرى قدم فيها اثنتين وثلاثين قصة صغيرة تحت عنوان « من حولنا » وهى أقرب إلى الأقصوصة منها إلى القصة تعرض صوراً مصرية ، وتعالج بعض مظاهر حياتنا العامة ، وتتجه نحو الكبار فتقابل « القصص المدرسية » التى وضعت خصيصاً للصغار .

غير أن إنتاجه القصصى الهام قد نحا منحى آخر ، فاتخذ من التاريخ مادته ، وعالج بعض أشخاصه وأحداثه ، يتحدث عنها بأسلوبه ويصورها بفنه ، والقصة فى حقيقتها تاريخ للحاضر أو للماضى ، تحكى الواقع وتبرز معالمه ، وتمزج بين الحقيقة والخيال . وقد شاء الأستاذ العريان أن يقف عند التاريخ المصرى الإسلامى ، فكتب أولا « قطر الندى » التى تصور عصر الدولة الطولونية منذ بدئه حتى نهايته ، ثم أتبعها « بشجرة الدر » التى جاءت عنواناً صادقاً لعهد الدولة الأيوبية .

وها هو ذا يقدم لنا أخيراً « على باب زويلة » التى تعرض لقانصوه الغورى وخليفته طومان باى ، فمن الدولة الطولونية إلى الأيوبيين ، ومن هؤلاء إلى المماليك . ولا شك فى أن القصة الأخيرة تفضل سابقتيها ، فهى أغزر مادة ، وأدق تحليلا وأعظم عناية بالتاريخ ودقائقه . يؤخذ القارئ بأسلوبها العذب وعباراتها الجزلة ، ونسجها المحكم . إلا أنها من ناحية أخرى كثيرة الشخصيات بحيث عز على كاتبنا أحياناً أن يوفيها جميعاً حقها من التصوير والتحليل ، ومتلاحقة الحوادث بحيث يخشى أن تتداخل ويطغى بعضها على بعض .

ومهما يكون من أمر هذه الملاحظة فإن الأستاذ العريان فى صفاء أسلوبه وقوة تعبيره وصدق تصويره واندماجه فى جو الوقائع التى يريد إخراجها قد توفر لديه كثير من وسائل الكاتب القصصى ولهذا استحق جائزة المجمع .

* * *

وأما الأستاذ نجيب محفوظ فقد نشأ نشأة فلسفية ، وتخرج فى قسم الفلسفة بكلية الآداب ، إلا أن أدب القصة قد بهره — فيما يظهر — فشغف به ووجد فيه من رقة الحواشى ما كاد ينسيه جفاف الفلسفة وقسوتها . على أنه يأبى أحياناً إلا أن يفلسف القصة ، ويسبغ عليها ألواناً من النظريات الأخلاقية والآراء السيكولوجية .

ولأمر ما قدر له أن يبدأ إنتاجه القصصى بما يصح أن نسميه « القصص الفرعونية » فقد وضع منها ثلاثاً متوالية هى : « عبث الأقدار » و « رادوبيس » و « كفاح طيبة » وإنها لبداية موفقة سما فيها خياله سمواً ملحوظاً ، وظهر

استعداده القصصى واضحاً ، وأفاد كثيراً من كتاب « مصر القديمة » الذى سبق له أن ترجمه . ولا نزاع فى أن هذه القصص الثلاث تربطنا بالتراث الفرعونى وتكشف عن دعامة من دعائم الشعور القومى ، وتغذينا فى ناحية يسرنا أن ندخل فى صميمها ونستمتع بها .

ولا أظن أن كاتبنا يسرف أبداً إن عاد إليها ، وعاود الكتابة فيها وتتبع شتى أطرافها .

ولكنه شاء أن ينتقل نقلة واسعة ، فرحل من مصر القديمة إلى مصر الحديثة ، وجاوز طيبة ومنفيس إلى الفجالة والدقى . وألف فيما يمكن أن نسميه « القصص العصرية » ثلاثاً أخرى هى « خان الخليلى » و « القاهرة الجديدة » و « زقاق المدق » . وإذا كان يتحدث فى القصص الأولى عن الماضى ويحكى مجد الفراعنة فإنه فى الأخيرة ينغمس فى حياتنا الاجتماعية الحاضرة ، فيكشف عن كثير من خباياها ، ويعرض منها صوراً تقرب من الواقع كل القرب . ففيها دراسة واقعية تحليلية لضرب من الأخلاق والعادات فى مختلف البيئات ، وتصوير صادق لبعض التقاليد .

و « خان الخليلى » بوجه خاص يعرض أمامنا أياماً عاشها كثيرون منا ويستعيد ذكريات نشعر إزاءها بشىء من العذوبة . وفيها ما يدل على أن الكاتب شرقى صميم فى شرقيته ، قاهرى ملم تمام الإلمام بعوائد مدينته . هذا إلى أنها ترمز للتطور الاجتماعى الذى نمر به ، وتشير إلى مرحلة الانتقال الحضارى التى نجتازها .

كل ذلك فى خيال بديع وتصوير دقيق وتحليل نفسى بارع . وإذا كان فى أسلوب المؤلف ما يدعو إلى نقد أو ملاحظة فإن فنه القصصى مبعث تقدير واستحسان ، وإذا كانت نشأته الفلسفية قد باعدت بينه قديما وبين القراءة الأدبية المستفيضة فإن واجبه اليوم وقد تفرغ للأدب القصصى أن يستكمل كل وسائله وأدواته . ومهما يكن من أمر هذه الناحية فإن الأستاذ نجيب محفوظ قد أقام الدليل على مقدرته القصصية ، وفى ماضيه وحاضره ما يؤذن بأنه سيكون من كتابنا القصصيين الممتازين ولهذا استحق جائزة المجمع وتقديره .

الشعر

الشعر لغة القلوب ، ومرآة النفوس ، يعبر عن الخلجات الغامضة ، ويكشف عن الإحساسات الدفينة . يخاطب الوجدان والعاطفة ، ويستلهم الوحى والخيال ، وينفذ إلى أعمق شىء فى الإنسان والطبيعة ، يقوم على اللفظ الرشيق ، والتصوير الدقيق ، والتشبيه البديع ، والنغم الحلو . يقول صاحب كتاب « العمدة » إن « بنية الشعر من أربعة : لفظ ، ومعنى ، ووزن ، وقافية ، وما سمى الشاعر شاعراً إلا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عنده توليد معنى ، ولا اختراع صورة ، ولا ابتداع لفظ ، كان اسم الشاعر عليه مجازا » . ويقول أيضا : « الشعر ما اشتمل على الاستعارة الرائعة والتشبيه الرائع وما سوى ذلك فوزن » .

وللشعر فى الحقيقة جانبان لا وجود له بدونهما ، وهما الخيال والموسيقى فبالتخيل يخرج الشاعر على المألوف ، ويأتى بالغريب والطريف . وقديما تحدثوا عن شيطان الشعر ، وليس شيئاً آخر سوى تلك القوة الخالقة المبدعة ، التى عدها أفلاطون قوة إلهية مقدسة ، وسما بها بعض المحدثين إلى مستوى المعجزة . والأخيلة الشعرية هى التى تهز الشعور والوجدان ، وتسبح بنا فى عالم آخر غير عالم الواقع . وتردد كثيرون فى أن يعدوا النظم التعليمى شعراً ، لأنه لا خيال فيه ولا تصوير ولا تشبيه . وليس هذا الخلق والإبداع فى متناول الجميع ، بل لابد له من ملكة واستعداد خاص ، ومن لا موهبة عنده أولى به ألا يغامر فى هذا المضمار وقديما قال الشاعر :

الشعر صعب وطويل سلمه   إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
هوت به إلى الحضيض قدمه

والشعر وثيق الصلة بالموسيقى ، تطرب النفوس لوزنه ، وتهتز الأجسام لنغمه وأغلب الظن أنه نشأ أول ما نشأ فى ثوب الغناء ، يترنم به الفرد فى وحدته وتردده الجماعة فى جدها ولهوها . وقد قيل : « الشعر موسيقى المجاهدين فى سبيل المجد ، وحداء المجتهدين فى ركب الحياة » .

ويحاول الموسيقيون دائماً أن يوقعوه على سلمهم ، ويؤدوه بآلاتهم ، وما التلحين إلا صوغ للشعر صياغة موسيقية وبما فيه من موسيقى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفنون الجميلة ، وينفذ إلى القلوب ، ويزداد تأثيره فى النفوس ، وإن فاته الوزن والنغم ، فلا سبيل إلى التفرقة بينه وبين النثر .

قيوده وضوابطه

لكل لغة شعرها ، وهو قديم قدم اللغات نفسها ومن المرجح أنه يبدأ شعبياً سهلا ثم يفتن فيه الموهوبون والمتخصصون ويوم أن يصبح فناً وصنعة ، توضع له قيود وضوابط تقسو حيناً وتلين حيناً آخر . والفن فى حركة دائمة بين الجمود والطلاقة ، بين المحافظة والتجديد ، بين الاتباع والابتداع وأكثر ما تنصب هذه القيود على الصور الشعرية من جانب ، والوزن والموسيقى من جانب آخر . ودون أن ندخل فى تفاصيل ذلك ، ونعرض لكل من عنوا به ، نكتفى بأن نشير إلى رجلين اثنين : أرسطو بين اليونان ، والخليل بن أحمد بين العرب .

وأرسطو رائد فى أكثر من ميدان ، بدأ دراسات لأول مرة ، وأخرجها شبه كاملة ، هو رائد بلا شك فى علم المنطق ، ويمكن أن يعد بحق رائداً فى دراسة الشعر . وضع فيه كتاباً قدر له نجاح كبير ، وأثر فى الآداب الأوربية على اختلافها . ترجم إلى عدة لغات من بينها العربية ، وشرح غير مرة ، وممن علقوا عليه ابن سينا وابن رشد . وعلى أساسه قامت الكلاسيكية فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ، واعتبر دستوراً للشعر والفن المسرحى .

ويرى أرسطو أن دعامة الشعر التخيل ، وتحقيق متعة روحية هى متعة التصوير والوصف . ولابد فيه من انسجام وإيقاع ، فمادته مستمدة من عبقرية الشاعر واختراعه ، وقوام لغته الوزن والموسيقى ، والشاعر حر فى اختيار أوزانه ولكن لابد له من وزن على كل حال . ويقول بنظرية المحاكاة التى ترمى إلى رد

الشعر إلى شيء من الواقع ، وإن تعارضت مع فكرة التخيل التى أكدها فى أكثر من مناسبة .

والخليل بن أحمد رائد آخر من رواد الفكر الإنسانى ، ذو عبقرية ممتازة وأصالة نادرة ، فهو المؤسس لفن المعاجم العربى ، ويعد بحق مؤسساً لعلم النحو ، أخذ عنه سيبويه وعول عليه . وهو الواضع لعلم العروض الذى لانزاع فى أنه علم عربى خالص ، فلا نظير له فى اللغات السامية القديمة ، ومن الخطأ أن يقال إن فيه محاكاة لنماذج من الشعر اليونانى . وإنما عوّل فيه الخليل على ذكائه الحاد ، وأذنه الموسيقية ، وحفظه للكثير من الشعر العربى ويظهر أنه كان رياضياً ماهراً ، فأقام العروض على أساس هندسى . وربط بحوره بدوائر معينة وكان لهذا العلم أثر كبير ، لا فى العربية وحدها ، بل امتد إلى لغات أخرى كالعبرية والفارسية والتركية . وإذا اعتبرنا الموشحات الأندلسية امتداداً له ، استطعنا أن نقول إنه أثر فى بعض اللغات الأوربية .

ذهب الخليل إلى خمسة عشر بحراً أقامها على خمس دوائر ، ورأى فيها ما يجمع أوزان الشعر العربى . ويظهر أنه بنى حصره على أساس نظرى أكثر مما استمده من الواقع ، فمن البحور التى قال بها ما أملاه منطق الدوائر الخمس ومنها ما يمكن رد بعضه إلى بعض . وبعده بقليل استطاع الأخفش الصغير أن يضيف إلى بحوره بحراً جديداً ، هو المتدارك .

وفى القرن الرابع الهجرى أحدث الجوهرى بعض التعديلات ، فحذف تفعيلة من تفعيلات الخليل الأصلية . واستمعنا فى مؤتمر المجمع الأخير إلى بحث فى « ميزان البند » ، وهو وزن خفيف يقوم فى الغالب على تكرار تفعيلة واحدة فى أشطر قصيرة . ظهر فى العراق منذ ثلاثة قرون ، والعراقيون شعراء مجيدون يحفلون بالوزن والنغم . وفوق هذا ، فى الزحاف والعلل ما ينتهى بالبحور المعروفة إلى ٨٥ صورة ، تتنوع بها الأوزان أيما تنوع . ومهما يكن من أمر فعلم العروض يكشف عن الجانب الهام فى الشعر ، وهو الوزن والموسيقى .

تطوره :

لسنا فى حاجة أن نشير إلى أن الشعر فى تطور مستمر ، يتطور بتطور اللغات نفسها من جيل إلى جيل ، بل من شاعر إلى آخر . يتطور فى لفظه ومعناه ، كما

يتطور فى أخيلته ومبناه ، وهو أشبه ما يكون بلوحة متحركة يرسم عليها الفنان ما يعن له من صور وألوان، ويعنينا أن نعرض لشيء من تطور وزنه . والأوزان الشعرية متنوعة متجددة فى اللغات كلها ، وهذا التنوع ملحوظ فى الشعر العربى . والعروضيون وحدهم هم الذين يأخذون بحور الخليل مأخذ القوالب الجامدة ، أما الشعراء فيعتدون بعبقريتهم ، ويحرصون على حريتهم فى تجديدهم واختراعهم ومنهم من لايعرف العروض مطلقاً ، وقل من يستحضره حين ينظم أو يترنم . وأعلن أبو العتاهية من قديم أنه فوق الأوزان والبحور ، وأباح أبو تمام لنفسه الخروج على البحور المألوفة ، ولوحظ على البحترى أنه كثير الزحاف ، ولم ينقص ذلك شيئاً من جمال شعره . وقيل خطأ إن نظم المتنبي وأبى العلاء يعد شعراً ، لأنهما لا يلتزمان الأساليب القديمة .

وعنى ابن خلدون بتطور الشعر العربى ، ووقف عليه فى « مقدمته » فصلا طويلا جاء دليلا جديداً على أنه جدير بأن يسمى مؤسس علم الاجتماع . فقد عالج فيه الشعر على أنه ظاهرة اجتماعية تتأثر بتغير الأحداث السياسية والاجتماعية ، وتخضع للعوامل الحضارية والعمرانية ، وأدخل فيه الشعر الشعبى الذى يعد باباً هاماً من أبوابه ، يجيء على الفطرة ، ويعبر عن الإحساسات فى غير تكلف ويتغنى به الناس فرادى وجماعات . وعنده أن البلاغة لا تتوقف على الإعراب والمهم مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ومن الشعر الشعبي ما يسمو إلى المستوى البلاغى وإن لم يخل من اللحن . ولم يستوعب العروضيون النغمات كلها ، وباب التجديد فيها فسيح ومفتوح دائماً . والموشحات ذات نغمات جذابة ، وهى شعر حضرى خفيف مرقص ، ابتدعه الأندلسيون وتفننوا فيه .

وحدثنا السيد رئيس المجمع فى مؤتمر سابق عن فن من فنون الشعر يتطور بأعين الناس ، وهو الرجز . فأشار إلى أنه عرف منذ الجاهلية وعمر إلى اليوم متخذاً أشكالا وصوراً شتى . قد لايحفل به الشعراء ولا يقفون عنده ، ولكنه استخدم فى حفظ اللغة ، واتخذ أداة للشعر التعليمى وديواناً للحكمة . وهو قبل كل شىء أكثر فنون الشعر ملاءمة للغناء الشعبي .

***

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول إن قضية الشعر الحر غير ذات موضوع إذ ليس ثمة من ينكر على الشاعر حقه فى الابتكار والاختراع ، ولامن يضيق عليه حريته مادام لايحول الشعر إلى نثر مرسل أومقيد . ولقد جمعتنى فى بغداد أخيراً ندوة شعرية ، ودار فيها حوار طويل حول هذا الموضوع ،ونعمنا فيها بنقاش ممتع خرجنا منه بأمرين هامين ؛ فاتفقنا أولا على أن الشعر لا يكون شعرا إلَّا حيث يكون الخيال المبدع والوزن الشجى ، ولاحظنا ثانياً أن أدعياء الشعر لايكاد يخلو منهم عصر ، يحاولونه ولا قبل لهم به ، فيسفون ، ويأبون إلا أن يعدوا إسفافهم عملا فنياً . ودنيا الشعر — كما قيل — كدنيا الفنون لايخلد فيها إلَّا الأعلون .

التأليف المعجمى

أيها السادة :

إنى أضم صوتى إلى صوت السيد وزير التعليم فى الترحيب بضيوفنا ، وزملائنا الكرام من أعضاء عاملين ، ومراسلين حرصوا على أن يسهموا معنا فى مؤتمر هذه الدورة .

وقدموا من المشرق والمغرب ومن أوربا ، ونحن نعول دائما على إسهامهم وتعاونهم ، ولا تنقطع هذه الصلة طوال العام لأنا نبعث إليهم من حين لآخر بعض القضايا التى استوقفتنا أو بعض القرارات التى انتهينا إليها تمهيداً لأن يقولوا كلمتهم الأخيرة فيها فى لقاء اليوم. وقانون مجمعنا صريح فى أن قراراته العلمية لاتكون نهائية إلا أن أقرها المؤتمر ، ولا أشك فى أنهم يحسون بسعادتنا آملين أن يلقوا بيننا أهلا ومكاناً سهلا .

ينصب الموضوع العام لهذا المؤتمر على التأليف المعجمى ، ولاشك فى أن اللغة العربية من أغنى اللغات القديمة والحديثة بمعجماتها اللغوية . بدأها الخليل ابن أحمد على وجه شامل فى كتاب « العين» ، وتلته جهود مخلصة فى معجمات ومفردات على مر السنين ومن بينها ما لم ير النور حتى الآن ، وقد أخذ مجمعنا على عاتقه أن يحيي منها ما لم يتم إحياؤه ، وأن يعيد إخراج ما لم يستكمل وسائل التحقيق العلمى الدقيق . وشاء أن يقصر جهوده ما أمكن على إحياء التراث اللغوى اضطلاعاً بعبئه ومشاكله . واستحث فوق هذا همم شباب المثقفين على أن يتجهوا نحو إحياء التراث العربى بوجه عام ، واقترح لذلك جائزة خاصة وإن كانت متواضعة ، ولم يقصرها على مصر ، بل فتح بابها لأبناء العروبة جميعاً . ولست فى حاجة أن أشير إلى بعض ما أخرجه المجمع من معجمات

وجدت سبيلها إلى القراء فى المشرق والمغرب أذكر من بينها كتاب « الجيم » للشيبانى ، وكتاب « الأدب » للفارابى ، وكتاب « التكملة والذيل والصلة » للصاغانى ، ويتابع مجمعنا السير بانتظام .

بيد أن منهج التأليف المعجمى قد خطا فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن خطوات فسيحة زادته دقة ، وعنيت بيسره ووضوحه . وكان لمجمعنا إسهام متلاحق فى هذا المضمار ، فاتجه عند إنشائه نحو فكرة المعجم التاريخى الذى رسم معجم أكسفورد أحسن مثل لها فى اللغات الحديثة . وشاءت الأقدار أن يكون بين المؤسسين من زملائنا مستشرق ألمانى عاش مع كتب اللغة العربية نحو خمسين عاماً وهو الأستاذ فيشر الذى رغب فى إخراج معجم تاريخى للغة العربية يقف عند القرن الثانى أو الثالث للهجرة . ولم يتردد المجمعيون الأوائل فى أن يرحبوا بفكرته وتعاقد المجمع معه على الاضطلاع بهذه المهمة ، ووفر له كل ما هو فى حاجة إليه من أعوان ومراجع . وبدأ فعلا فى رسم منهجه وجمع المادة اللازمة لتحقيقه ، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فقضت عليه بالإقامة فى ألمانيا وحالت دونه ومتابعة ما اضطلع بأدائه وفوجئنا بعد انتهاء هذه الحرب بانتقاله إلى الدار الآخرة ولم يبق من عمله إلّا جزازات قليلة وصورة مختصرة لمنهجه حرصنا على أن نخرجها فى كتاب خاص .

وفى عام ١٩٤٠ حظى المجمع برعيل ثان من شيوخ المصريين وعلمائهم شغلتهم فكرة المعجم الحديث الذى يتلاءم مع متطلبات العلم والحضارة وييسر الأمر على طلاب العربية وعشاقها وكان من ثمار هذا الرعيل عملان هامان فى تاريخ التأليف المعجمى ، أولهما معجم ألفاظ القرآن الكريم الذى فكر فيه عام ١٩٤١ وأريد به أن يشرح الألفاظ القرآنية شرحاً لغوياً دون الدخول فى آراء المفسرين والمتكلمين وأن يبوب تبويباً هجائياً . وبدأ فى إصداره ولم يوزع التوزيع السليم وما أجدر وزارة التعليم أن تضمه إلى مجموعة الكتب التى تقدمها إلى تلاميذ الدراسة الثانوية .

ويعيش المجمع الآن مع المعجم الكبير الذى أراد به أن يحل محل المعجم التاريخى الذى أشرنا إليه من قبل ، وحبل العبادة هنا طويل ولم نخرج من

هذا المعجم إلاَّ جزأين : أولها موقوف على حرف الهمزة والثانى على حرف الباء وكان الله فى عون الدارسين والباحثين .

أيها السادة :

أخشى أن أكون قد اطلت عليكم ولكنى شئت فقط أن أشير إلى أن التأليف المعجمى فى اللغة العربية قد صادف فى النصف الأخير من هذا القرن عناية ورعاية تضعه فى مصاف التأليف المعجمى فى اللغات العالمية الكبرى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المعجم العربى فى القرن العشرين

١ ــ قد لا يكون ثمة لغة توفرلها من المعجمات ماتوفر للعربية . وإذا تركنا جانبا تلك الرسائل الصغيرة التى ظهرت فى القرن الأول للهجرة ، وجدنا الخليل بن أحمد قد افتتح عصر المعجمات الكبرى فى القرن الثانى بوضعه «كتاب العين» . ثم تنافس الباحثون من بعده فى وضع معجمات متلاحقة ، من أحجام مختلفة وفى تبويب متنوع . ولايكاد يخلو قرن من ظهور معجم عربى جديد ، وهناك قرون ظهر فيها عدة معاجم . ويمكننا أن نذكر من بينها القرن الرابع الذى يعد بحق القرن الذهبى للمعجم العربى ، فقد ظهرفيه « الجمهرة » لابن دريد (٣٢١) ، و« التهذيب» للأزهرى (٣٧٠) ، و «المحيط » للصاحب ابن عباد (٣٨٥) ، و « المجمل » لابن فارس (٣٩٥) ، و« الصحاح » للجوهرى (٣٩٧) . ووصل إلينا معظم المعجمات القديمة عن طريق مباشر أو غير مباشر ، وبين أيدينا اليوم منها قدر لا بأس به ، نصدر عنه ونعول عليه ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوربية .

وفى التاريخ القديم معجمات يونانية ولاتينية ، ولكنها لم تبلغ مبلغ المعجمات العربية ، ولم يصلنا منها إلاّ شذرات صغيرة . وأقدم معجم يونانى أو لاتينى عرفناه يصعد إلى القرون الوسطى . ويعد عصر النهضة بوجه خاص نقطة بدء هامة فى تاريخ الدراسات اللغوية . ولم توضع معجمات فى اللغات الأوربية الكبرى إلاّ فى عهد متأخر ، ففى إنجلترا مثلا لم تظهر الإنجليزية فى المعجم إلاّ لخدمة اللاتينية حتى القرن السادس عشر . وفى القرن السابع عشر بدئ فى

(*) بحث ألقى بالفرنسية فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد بموسكو عام ١٩٦٠ .

وضع معجمات للغات الأوربية الحديثة ، وأخذ فن المعاجم ينمو ويتطور . فعنى بترتيب المواد وتحديد مدلول الألفاظ ، وألفت معجمات كبيرة وأخرى صغيرة ، فى لغة واحدة أو فى عدة لغات ، وامتد تصنيفها إلى الفلسفة والعلوم فوضعت معجمات فى التاريخ والجغرافيا والحيوان والنبات . وبلغ هذا الفن القمة فى القرن التاسع عشر ، الذى ظهر فيه معجم « لتريه» و« لاروس» فى الفرنسية ، و « أكسفورد» و « ويبستر» فى الإنجليزية ، و « أدلونج » فى الألمانية ومعجم« أكاديمية سان بطرسبورج » فى الروسية .

٢ — ولا نزاع فى أن المعجمات العربية القديمة غزيرة المادة ، تؤذن باطلاع واسع ومجهود عظيم . ولها قيمة تاريخية لا تنكر ، وستبقى معينا لا ينضب فى بيان أصول الكلمات وشرح الألفاظ الغريبة والعبارات الغامضة . إلّا أنها تشتمل على بعض العيوب المشتركة ، فتخطئ أحيانا فى ضبط الكلمات ، وتسرف فى سرد المترادفات ، وفى تعريفاتها غموض وفى معلوماتها خلط ، وخاصة حين تجاوز اللغة إلى بحوث فى التاريخ والجغرافيا أو الكيمياء والطبيعة .

ونشير خاصة إلى منهجها والأساس الذى قامت عليه ، فهى تضيق دائرة اللغة ، ولا تكاد تسلم إلّا بما أخذ عن البادية ، تقبل لغة الجاهلية وصدر الإسلام وتنكر ما عداهما ، وتقف بالاحتجاج عند القرن الثانى للهجرة . فتهمل عصور اللغة الأخرى ، ولا تعبر عن العصر الذى وضعت فيه ، وكأنما تغفل قانون التطور الذى يقضى بأن تتابع اللغة سير المجتمع الذى نعيش فيه. فيها حشو وتكرار وكثيرا ما أخذ لاحقها عن سابقها فى غير ما تعديل ولا تصرف . ويعترف ابن منظور صاحب « اللسان» ، أكبر معجم وصلنا ، بأنه لم يفعل شيئا أكثر من أنه جمع «تهذيب» الأزهرى و « صحاح» « الجوهرى» ، و« محكم» ابن سيده ، و « حواشى ابن برى على الصحاح » ، « والنهاية » لابن الأثير ،وما أحوجنا إلى درس المعجمات العربية القديمة درسا مقارنا ، يبين مدى تسلسلها وتأثير بعضها فى بعض .

والمعجم أداة بحث ، ومرجع سهل المأخذ ، فينبغى أن يكون واضحا ، و دقيقا ، مصورا ، محكم التبويب ، مما لا يتوفر كثيراً فى معجماتنا القديمة ، ففى الرجوع إليها عناء ، وفى عرضها حشو . حقا إن ترتيب موادها تطور مع الزمن ، فروعى فيه أولا تدرج الحروف فى أصواتها ومخارجها ، على نحو ما حدث فى الطبعة الأولى من معجم الأكاديمية الفرنسية ، ثم عدل عن هذا إلى ترتيب هجائى تلحظ فيه أواخر الكلمات أو أدائها ، وكل ذلك لا يخلو من تعقيد ، ويتطلب الإلمام بالتصريف والاشتقاق قبل الرجوع إلى المعجم . وهى أيضا محشوة باستطرادات يضل الباحث فى ثناياها .

٣ ــ وقد لوحظ هذا من قديم ، وأريد تداركه . ودون أن نعرض لآراء القدامى ، نكتفى بأن نشير إلى مالاحظه فارس الشدياق فى أخريات القرن الماضى ودعاه إلى وضع « الجاسوس على القاموس » . وتابعه فى هذا عالمان لبنانيان آخران ، عنيا بالمعجم العربى ، وشاءا أن يخرجاه فى ترتيب أيسر ، متأثرين فى الغالب بالمعجم الأوربى . وهما البستانى صاحب « محيط المحيط » الذى رتب مواده ترتيبا هجائيا سهلا ، واقتصد فى الشواهد والنصوص ، والشرتونى صاحب « أقرب الموارد» الذى قدر له رواج أكثر من سابقه ، وهو أحكم ترتيبا وأقل استشهادا .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل بذلت جهود أخرى فى القرن العشرين ، وعُنى خاصة بالمعجمات الصغرى . ذلك لأن ما وضع منها قديما « كمختار الصحاح » ، « والمصباح المنير» لا يخلو من صعاب وقد عوّلت عليهما المدرسة الثانوية المصرية منذ أوائل هذا القرن ، ولم تلبث أن كشفت عما فيهما من نقص . وفى لبنان أيضا أخرج الأب لويس المعلوف اليسوعى « المنجد» وهو معجم صغير سهل التناول . ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٠٨ ، وتوالت بعدها طبعات عدة ، فظهرت الخامسة منقحة ومزيدة عام ١٩٢٧ ، وتلتها السادسة عام ١٩٥٦ ، وفيها قسم جديد للآداب والعلوم . ولا شك فى أن « المنجد» محاكاة صادقة لمعجم « لاروس الصغير » ، فهو ميسر التبويب ، سهل المأخذ ، مزود بوسائل الإيضاح من لوحات ورسوم وصور .

بيد أن هذه المحاولات على اختلافها لم تستطع أن تتخلص من سلطان الماضي وبقيت خاضعة له خضوعا تاما . فلم تصنع شيئا أكثر من أنها جمعت ما ورد في المعجمات القديمة ، أولخصته في شيء من الوضوح والترتيب . ولم تجرؤ واحدة منها على أن تعرض للغة المعاصرة ، ولا لما يتخاطب به الناس اليوم من ألفاظ العلم والحضارة .

٤ ـ وكان طبيعيا أن يضطلع مجمع اللغة العربية بذلك ، ونص مرسوم إنشائه على أن من أهم أغراضه « أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية » . وقد أخذ نفسه بذلك منذ البداية ، وكوّن في الدورة الأولى لجنة المعجم من كبار اللغويين العرب والمستعربين ، وحاولت هذه اللجنة رسم الخطة وتحديد معالم المعجم العربي في القرن العشرين . وكان من بين أعضائها المستشرق الألماني الدكتور فيشر الذى عني بالمعجمات العربية منذ أخريات القرن الماضي ، ورغب في أن ينهج بها نهجا جديدا ، وقد نشر فكرته لأول مرة في مؤتمر عقد ببال سنة ١٩٠٨ ، واستمر يتعهدها إلى أن أصبح عضوا في مجمع اللغة العربية عام ١٩٣٤ وكان يرمى إلى وضع معجم مستمد من النصوص القديمة ، يوضح مختلف المعاني والاستعمالات للألفاظ والعبارات ويتتبع تطورها ، ويعرض في اختصار تاريخها . ولم يتردد المجمع في أن يوفر له أسباب البحث والدرس ، وأن يتعاقد معه على نشر معجمه الذى كان يأمل أن يخرجه في ست سنوات أوسبع . وبعد عمل متصل طوال أربع سنوات في الجمع والتنسيق تمهيدا للنشر ، فاجأته الحرب العالمية الثانية واعترضت سبيله . فاحتجز في ألمانيا ، وبقي مساعدوه وجزازاته في مصر ، ولما وضعت الحرب أوزارها قعد به المرض عن متابعة عمله ، وتوفى عام ١٩٤٩ قبل أن يخرج معجمه إلى النور . وعبثا حاول المجمع أن يلم شعث ما تفرق من أصوله ، ولم يقف من جهود أربعين سنة إلاَّ على جزازات غير مستوفاة حرص على أن يرتبها ويضعها تحت تصرف الباحثين . ولم يستطع أن ينشر من معجم فيشر إلاَّ مقدمة ونموذجا صغيرا ، سبق للمؤلف أن أعدهما .

وأغلب الظن أن فيشر قد تأثر « بمعجم أكسفورد » ، وشاء أن يطبق منهجه التاريخي على اللغة العربية . وهي محاولة ولاشك قاسية ، وقل أن يقوم بها

فرد وحده ، وقد تكون متعذرة اليوم . لأن العربية أفسح مجالا من الإنجليزية ومصادرها أكثر وأغزر ، ومنها مالم يكشف عنه بعد ، وما كشف لايزال قدر منه مخطوطا . ولا أدل على هذا من أن فيشر نفسه قد حصر جهوده ، وقنع بأن يقف عند القرن الثالث الهجرى ، وليته استكمل هذه المرحلة ، إنه لوفعل لأمكن متابعة السير من بعده ، وكم نأسف لأن جهوده لم توصل إلى غاية ، وقد حاول المأسوف عليه كريمر أن يفيد ، فى غير جدوى ، من جزازاته لاستكمال « معجم لين » الذى وقف عند حرف « القاف » .

٥ ـ شغل المجمع بمعجم فيشر زمنا ، ولما يئس من إخراجه استأنف عام ١٩٤٦ جهوده لإخراج معجمه ، واكتفى بأن يسميه « المعجم الكبير » ، تاركا للزمن استكمال الوسائل الضرورية لوضع المعجم التاريخى . واستطاع عام ١٩٥٦ أن ينشر منه جزءا فى نحو ٥٠٠ صفحة ، عده تجربة دعا المتخصصين من عرب ومستعربين إلى قراءتها ، وتسجيل ما يعن لهم فيها ، راجيا أن يرسلوا إليه ملاحظاتهم مشكورين . وفى مقدمة هذا الجزء تلخيص للمبادئ التى قام عليها «المعجم الكبير» ، ومن أهمها أن اللغة كل متصل الأجزاء ، يرتبط حاضره بماضيه ، وهما يعدان معا لمستقبله . والعربية لغة قديمة وحديثة ، صعدت إلى الإسلام ، وبقيت مع الزمن ، وأدت ألوانا من ضروب العلم والمعرفة . فلها قديمها الخالد ، وحاضرها الحى ، ومستقبلها الزاهر . فكيف نقف بها عند القرن الثانى أو الرابع الهجرى ؟ إنا إن فعلنا قضينا عليها بالموت . ومعجم القرن العشرين يجب أن يعبر عن اللغة فى مختلف عصورها ، فيضم ألفاظا حديثة إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام ، ويستشهد بالشعر والنثر مهما كان العصر الذى قيلا فيه . ولابد للمعجم الحديث أيضا أن يشتمل على قدر من المصطلحات العلمية والأعلام التاريخية والجغرافية وخاصة ما اتصل منها بالأدب العربى ، وأن يلتزم الترتيب الهجائى مع تقديم الأفعال على الأسماء ، والمجرد على المزيد ، واللازم على المتعدى ، والحسى على المعنوى ، والحقيقى على المجازى .

وقد ظهر هذا النموذج بعد دراسة طويلة وبحث شامل ، وأثار ما أثار من تعليق وملاحظة فى مجلس المجمع ومؤتمره . فأخذ عليه غلبة الطابع الموسوعى ،

والإكثار من الشواهد والنصوص . واستمر المجمع يراجعه ، ويعدل خطته حتى استقام له منهج واضح ، وسار فى تطبيقه شوطا ، ويعتزم أن يخرج قريبا الجزء الأول منه . ووضع المعجمات عمل طويل المدى ، ويكفى جيلا أن يرسم المنهج فى دقة ، وأن يطبقه على خير وجه ، تاركا للخلف أن يتدارك ما تقاصرت عنه جهوده .

٦ – وإلى جانب المعجم الكبير ، اتجه المجمع نحو معجم وسيط يسد حاجة التعليم . فقد طلبت إليه وزارة المعارف عام ١٩٣٦ أن يسعف العالم العربى بمعجم على نمط حديث ، محكم الترتيب ، واضح الأسلوب ، سهل التناول يشتمل على صور لكل ما يحتاج إلى تصوير ؛ وعلى قدر من مصطلحات العلوم والفنون ، وملحق بالمشهور من أعلام الأشخاص والأماكن وكأنما كانت تصوب إلى شئ شبيه « بمعجم لاروس الصغير » . ولم ينتظم العمل فى هذا المعجم إلا بعد فترة ، وسار أحيانا بين البطء والتردد ، ومع هذا كان معدا للطبع منذ بضع سنين . وظهر أخيراً فى جزءين كبيرين ، يحتويان نحو ١١٠٠ صفحة من ثلاثة أعمدة ومن القطع الكبير . ويشتمل على نحو ٣٠ ألف مادة ، ومليون كلمة ، وستمائة صورة ، وأغفل فيه منذ البداية ملحق الأعلام ؛ وقصر على اللغة قديمها وحديثها وتوسع فى المصطلحات العلمية الشائعة وأخذ بما استقر من ألفاظ الحياة العامة .

وفى هذا المعجم تجديد من نواح شتى . رتب الكلمات على حسب نطقها لا على حسب تصريفها فذلل صعوبة البحث عن أصولها ومشتقاتها . ويسر الشرح وضبط التعاريف ، وكتب بلغة العصر وروحه . واكتفى من الشواهد بما تدعو إليه الضرورة . وطور اللغة : فقاس فيما قصر أمره على السماع . وقبل ما تدعو إليه الضرورة من الألفاظ المولدة أو المحدثة أو المعربة أو الدخيلة وأفسح المجال لألفاظ الحضارة والحياة العامة . وأخذ بطائفة من المصطلحات العلمية الشائعة التى أقرها المجمع وأصبحت جزءا من اللغة . وعرفها المختصون تعريفا دقيقا ، وبذا اشتمل على ما لم يشتمل عليه معجم المجمع الفرنسى طوال المائة سنة الأولى من ظهوره . ولا محل لمقارنته « بالمنجد » أو « أقرب الموارد » فهو دون نزاع أوضح ، وأدق ، وأضبط ، وأحكم منهجا . وأحدث طريقة

وهو بخاصة مجدد ومعاصر ، يهدم الحدود الزمانية والمكانية التى أقيمت خطأ بين عصور اللغة المختلفة .

وقد أثار شيئا من النقد والملاحظة ، وإن كان دون ما كنا نتوقع ، وكلنا يعلم كم نوقش معجم الأكاديمية الفرنسية فى عنف وقسوة . وكأنما يقر الباحثون مع المجمع منهج « المعجم الوسيط » ويرحبون بتجديده فى فن التأليف المعجمى ، ويرون فيه ما يسد حاجة ، وما يوجه نحو معجمات جديدة .

٧ – ولن نقف طويلا عند المعجمات الثنائية أو الثلاثية ، ولا عند معجمات اللهجات . وقد وضع من الأولى عدد غير قليل فى القرن العشرين ، تيسيرا للترجمة والبحث العلمى ، أو سدا لحاجة السياحة والسفر ، فهناك معجمات عربية فرنسية ، أو عربية إنجليزية ، وبالعكس . ونحرص على أن نشير إلى (Arabischen Worterbuch) الذى وضعه زميلنا الأستاذ فير عام ١٩٥٢ ، وعول فيه على العربية المعاصرة ، وخاصة العربية المصرية . أما اللهجات فلم يوضع منها فى القرن العشرين شئ يذكر ، وماذاك إلا لأن اللهجات العربية لم تدرس بعد الدرس الكافى . وكم دعا المجمع إلى درسها ، ورحب بكل ما يبذل فيها من جهد .

وهناك نوع آخر من المعجمات عرف فى اللغة العربية من قديم ، ونعنى به معجمات العلوم والفنون ، ونستطيع أن نذكر من بينها « مفاتيح العلوم » للخوارزمى (٩٩٧م) ، « وكشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى (١٧٤٥م) . إلا أن هذه على أهميتها إنما تعبر عن الماضى ، وينقصها كثير من الوضوح والدقة وقل أن تتوفر فيها شرائط الفن المعجمى الحديث . ولم تقف مصطلحات العلوم والفنون عند القدر الذى جاءت به بل نمت نموا كبيرا فى التاريخ الحديث . وفى اللغات الأوربية معجمات علمية وفنية متعددة ، ولا بد للعربية أن تحذو حذوها .

وما إن اتصل العالم العربى بالنهضة العلمية الحديثة حتى بدأ ينقل عنها ، ويضيف إلى مصطلحاته القديمة مصطلحات جديدة . ومنذ أوائل القرن الماضى حاولت مصر أداء الحقائق العلمية الجديدة بألفاظ عربية أو تركيا

أو فارسية ، وقد تلجأ إلى اللفظ الأجنبي فتعربه ، فرنسيا كان او إيطاليا أو إنجليزيا . ولم يتردد الباحثون منذ النصف الأخير من القرن الماضي أن يضعوا معجمات في بعض العلوم ، وإن لم تصل إلى المستوى المنشود . وفي القرن العشرين ظهرت معجمات أخرى أكثر وضوحا وأعظم دقة ، ونكتفي بأن نشير إلى اثنين منها وضعهما مجمعيان ، أحدهما مصري والآخر سوري ، ويعدان حجة في بابهما . فأما الأول فهو «معجم إنجليزي عربي في العلوم الطبية والطبيعية » للدكتور محمد شرف ، وقد نشر عام ١٩٢٨ ، ويشتمل على عدة آلاف من المصطلحات الإنجليزية ، ومعها مقابلها وتعريفاتها بالعربية . وأما الثاني فهو « معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية » للأستاذ الأمير مصطفى الشهابي ، وقد أعيد طبعه غير مرة ، وفي الطبعة الثالثة (١٩٥٧) عشرة آلاف مصطلح فرنسي ، ومعها مقابلها العربي أو المعرب ولا يتردد المؤلف في أن يذكر أكثر من مقابل إذا كان المصطلح العربي لم يستقر بعد .

وكان لابد للمجمع أن يعني بهذه المصطلحات لأنه مطالب بأن يحافظ على سلامة اللغة ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها وملائمة على العموم لحاجات العصر ومقتضياته . وقد أنفق في سبيلها كثيراً من وقته وجهده ، دعا إليها الخبراء والمتخصصين ، وكون من أجلها اللجان ، وعقد لها الجلسات . وكان حريصاً على تخير المصطلحات من بين مفردات اللغة بالاشتقاق أو النقل ، وقد يلجأ إلى التعريب . ثم أخذ ينشر تباعاً ما أقر منها في مجلته ، أو في مجموعات خاصة ، أخرج منها خمساً حتى الآن . ظهرت أولاها عام ١٩٤٢ ، وفيها ٣٥٦٦ مصطلحاً ، والثانية عام ١٩٥٧ وفيها ٩٠٩٠ مصطلحاً والثالثة عام ١٩٦٠ وفيها ٢٣٥٧ مصطلحاً ، والرابعة في مارس ١٩٦٢ وفيها ٢٢٥٠ مصطلحاً ، والخامسة في يولية ١٩٦٢ وفيها ١٦٠٠ مصطلح . وفي هذه المجموعات يعرض المصطلح الأجنبي بالإنجليزية أو الفرنسية أو بهما معاً ، ومعه مقابله العربي وتعريفه في الغالب . وفي هذا ما ييسر حركة الترجمة العلمية ، ويكون مادة المعجمات الخاصة في العلوم والفنون . والواقع أن هذه المجموعات تنشر كما أقرت موزعة بين عدة مواد ، ومرتبة على حسب حروف الهجاء اللاتينية . ونعتقد أنه قد حان الوقت لكي نستخلص منها مجموعات متنوعة على

حسب المواد المختلفة ، أو بعبارة أخرى معجمات خاصة مرتبة ترتيباً هجائياً عربياً .

* * *

والآن نستطيع أن نقرر أن فن المعجم العربي نما وتطور في القرن العشرين وأخذ يحاكي نظيره في اللغات الأوربية الكبرى أو يزيد عليه وطرحت تلك النظرية التي كانت تقول بأن العربية لغة لا تقبل التجديد ولا التطور ، وأصبحنا نسلم بعربية معاصرة إلى جانب العربية القديمة ، وبكلاسيكية تقليدية وكلاسيكية محدثة وفتح باب القياس على مصراعيه في اللغة كما فتح في الفقه والتشريع ، ومن حقنا أن نبتكر ألفاظاً وعبارات كما ابتكر أجدادنا . وقد استعادت العربية نشاطها بعد ما مر بها من خمول وفيها اليوم حياة وقوة لم تنعم بهما منذ عدة قرون .

المعجم الكبير

١ — قد لا يكون ثمة لغة توافر لها من المعجمات مثل ماتوافر من قديم للغة العربية ففى القرن الثانى للهجرة افتتح الخليل بن أحمد عصر المعجمات الكبرى ، ووضع « كتاب العين » المشهور ، وتنافس الباحثون من بعده فى وضع معجمات متلاحقة فى أحجام مختلفة ، وفى تبويب متنوع . ولا يكاد يخلو قرن من ظهور معجم عربى ، وربما ظهر فى القرن الواحد عدة معاجم ، وقد وصل إلينا معظم المعجمات القديمة ، وبين أيدينا اليوم قدر منها لا بأس به ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوربية .

٢ — وللمعجمات القديمة قيمة تاريخية لا تنكر ، فهى غزيرة المادة ، وثيقة الرواية ، وفيها معين لا ينضب فى شرح الألفاظ الغريبة والعبارات الغامضة . ولكنها لا تخلو من عيوب مشتركة ، كالحشو والتكرار ، ونقص التعريفات أو غموضها ، وخلط المعلومات وبخاصة ما اتصل منها بالتاريخ والجغرافيا ، أو الكيمياء والطبيعة . وتبويبها معقد ، وفى الرجوع إليها عناء لا يقوى عليه عامة الدارسين . ولا يتمشى الأساس الذى تقوم عليه مع سنة التطور ، فهى تضيق دائرة اللغة ، ولا تقبل إلا ما أخذ به فى الجاهلية وصدر الإسلام ، وتقف بالاحتجاج عند القرن الثانى للهجرة وقد لوحظ هذا عليها منذ زمن ، وأريد تداركه حديثاً بوضع معجمات عربية جديدة تتمشى مع المنهج السليم .

٣ — ولا شك فى أن فن التأليف المعجمى نما وتطور على مر الزمن ، وبلغ القمة فى القرن التاسع عشر الذى ظهرت فيه معجمات هامة فى لغات شتى ،

(*) كلمة ألقيت فى مؤتمر المستشرقين الثامن والعشرين الذى منه عقد فى مدينة كانبرا باستراليا فى المدة من ٩ إلى ١٣ من شهر يناير ١٩٧١

مثل : « لاروس » فى الفرنسية ، و« أكسفورد » فى الإنجليزية ، و« أدلونج » فى الألمانية ومعجم أكاديمية بطرسبورج فى الروسية . وهى تحرص جميعاً على الدقة والوضوح ، وتعنى بترتيب المواد ، وتحديد مدلول الألفاظ وتجارى تقدم العلم والفن . ونحا بعض المعجمات العربية الحديثة نحوها ، « كالمنجد » الذى ظهر فى أوائل هذا القرن ، وجاء محاكاة صادقة لمعجم « لاروس الصغير »

٤ — ويوم أن أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، أريد به أن يضطلع بين أعبائه المختلفة ، بوضع معجم تاريخى للغة العربية . وشاءت الصدف أن يكون من أعضائه المؤسسين لغوى أوربى كبير ، هو المستشرق الألمانى فيشر الذى عنى بالمعجمات العربية منذ أخريات القرن الماضى ، ورغب فى أن يخرج معجما عربياً تاريخياً على غرار « معجم أكسفورد » ولم يتردد المجمع فى أن يوفر له أسباب البحث ، وأن يتعاقد معه على نشر معجمه الذى كان يأمل أن يخرجه فى سبع سنوات ، ولكن حالت الحرب العالمية الثانية دونه وما يريد وعبثاً حاول المجمع أن يلم شعث ما تفرق من أصوله ، ولم يقف من جهود ٤٠ سنة إلا على جزازات غير مستوفاة .

* * *

٥ — ويوم أن يئس المجمع من إخراج معجم فيشر التاريخى ، أخذ نفسه بوضع ما سماه « المعجم الكبير » ، وأخرج منه عام ١٩٥٦ نموذجاً فى نحو ٥٠٠ صفحة عده تجربة دعا المتخصصين إلى قراءتها وتسجيل ملاحظاتهم عليها . ثم استمر فى عمله واستطاع فى منتصف العام الماضى أن يخرج الجزء الأول من معجمه الكبير الذى أقدمه اليوم . وهو مقصور على حرف الهمزة ، ويقع فى نحو ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير . وقد جاء كما ترون ثمرة جهود طويلة متصلة ، ووليدة خبرة واسعة . أعد مادته محررون دربوا فى كنف المجمع وتحت إشرافه ، وراجعها خبراء متخصصون فى علوم اللغة ، وفى اللغات السامية والفارسية والتركية ثم عرضت على لجنة المعجم الكبير من بين أعضاء المجمع وهم من كبار رجال الأدب واللغة والعلم والفلسفة ، ولم يتردد هؤلاء فى أن يرجعوا إلى زملائهم المجمعيين الآخرين فى نواحى تخصصهم المختلفة .

٦ — ونستطيع أن نقرر أن هذا المعجم لون جديد فى عالم المعجمات العربية فيه تأصيل وتحقيق ، فذكر فى صدر المادة النظائر السامية إن وجدت وفى هذا ما يربط العربية بأخواتها السامية ، وما يفتح باباً لدراسة مقارنة . وأشير بعد هذه النظائر إلى معانى المادة الكلية ، متدرجة من الحسى إلى المعنوى ، ومن الحقيقى إلى المجازى .

وفيه جمع واستيعاب ، ورجوع إلى المصادر الأولى ، وتعويل ما أمكن على النصوص الثابتة ، فلم يقتصر فيه على الأخذ من المعجمات القديمة ومنها المطبوع والمخطوط ، بل أضيف إليها كتب الأدب والعلم والتاريخ . وللغة نطاق واسع وميادين كثيرة يجب تتبعها والأخذ عنها . واستشهد فيه ما أمكن على المواد توضيحاً للمعنى ، وتأييداً للاستعمال . ورتبت الشواهد ترتيباً طبيعياً ، فبدئ بالقرآن ، وتلاه الحديث ، ثم جاء بعدهما النص المنثور ، ومنه المثل ثم ختم بالشعر ، واستشهد بالقديم والحديث على السواء ، واللغة كل متصل الأجزاء ، يرتبط حاضره بماضيه ومن القصور أن نقف بها عند حدود زمنية معينة .

وعنى فيه عناية خاصة بالوضوح والدقة ، فرتب ترتيباً دقيقاً ، وبوب تبويباً سهلا . بدىء فيه بالفعل الثلاثى ، مع ضبط عين مضارعه وذكر مصدره ثم تلاه الثلاثى المزيد بحرف أو أكثر وجاء بعدهما الرباعى بأنواعه . ولم تذكر المشتقات لأنها قياسية ، وختم بالأسماء مشتقة كانت أو جامدة وذكرت معها جموع التكسير وحدها فى الغالب والتزم فى كل هذا الترتيب الحرفى ولكن فى حدود المادة اللغوية ، تمشياً مع طبيعة العربية وأنها لغة اشتقاقية . وصيغت التعريفات فى عبارة مختصرة وأسلوب سهل ، ووضحت النصوص المأثورة والشواهد المعقدة .

ولم يكن بد لمعجم القرن العشرين أن يتابع العلم فى سيره وتطوره وأن يسجل لغته الخاصة ، وهى جزء من اللغة العامة فأورد من القديم اصطلاحات الفقهاء والمحدثين والمناطقة والعروضيين . واكتفى من المصطلحات الحديثة بما شاع استعماله فى الأوساط العلمية والحياة العامة ، أو كان وثيق الصلة بالاستعمال

الأدبى واللغوى ، ووقف فى ذلك كله عندما أقره مجمع اللغة العربية وعرض المعجم أيضاً لأعلام الأشخاص ، فعرف بها فى اختصار وأنزلها منزلتها فى تاريخ الفكر الإنسانى ولأسماء بعض الأماكن ذكر متصل فى الأدب العربى ، ولا مناص من الإشارة إليها ، وإن عز تحديد مواقعها أحياناً . وأضيف إليها أسماء القارات والدول والمدن الشهيرة ، وما كانت له قيمة تاريخية ، أو نسب إليه علماء مشهورون .

فى هذا المعجم جوانب ثلاثة أساسية : جانب منهجى هدفه الأول دقة الترتيب ووضوح التبويب ، وجانب لغوى عنى فيه بأن تصور اللغة تصويراً كاملا ، فيجد فيه طلاب القديم حاجتهم ، ويقف عشاق الحديث على ضالتهم وفيه أخيراً جانب موسوعى يقدم ألواناً من العلوم والمعارف تحت أسماء المصطلحات والأعلام ، وروعى فى هذا الجانب الجمع بين القديم والحديث ما امكن ، فذكرت معطيات العلم العربى وأضيف إليها ما جاء به العلم الحديث وفى هذا كله عمق ودقة ، وأصالة وتجديد ، ويسر وتيسير .

المعجمات العربية المتخصصة

قد يظن أن المعجمات المتخصصة من صنع التاريخ الحديث والمعاصر ، ولكنها عرفت منذ زمن طويل . لها أصول فى التاريخ القديم والمتوسط ، ووصل إلينا منها قدر لا بأس به . ودون أن نعرض لها فى اللاتينية أو اليونانية ، نود أن نقف قليلا عندها فى العربية فنشير إلى نشأتها ونموها ، وننوه ببعض نماذج منها . ولا شك فى أن هذه المعجمات ثمرة من ثمار النهضات العلمية والثقافية ، لاتظهر لأول وهلة ، وإنما هى وليدة جمع وتحصيل لجهود سابقة واستخلاص من مكاسب وثروات محققة وتتويج لحركات فكرية متلاحقة .

وقد بدأت الحركة الفكرية فى الإسلام منذ الدعوة المحمدية ، وأخذت تتغذى بقول النبى وفعله ، وقام على أمرها من بعده الصحابة والتابعون ، وتعهدها شيوخ المسلمين وأئمتهم . ولم يترددوا فى أن يستعينوا فى ميدان الدرس والبحث بمن انضم إليهم من مفكرين كتابيين وغير كتابيين ، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها . وبلغت هذه الحركة أوجها فى القرن الرابع الهجرى ، أو العاشر الميلادى ، ونشأت عنها علوم مختلفة ، بين دينية ولغوية ، طبيعية ورياضية ، منطقية وفلسفية . وأصبحت دائرة المعارف الإسلامية من أوسع دوائر معارف الفكر البشرى ، ربطت التاريخ القديم بالمتوسط ، وامتدت إلى التاريخ الحديث ، وغذته بغذاء له شأنه . أخذت وأعطت ، تأثرت وأثرت .

ولكل علم لغته ومصطلحاته ، يضعها أهله ، ويذيعها الدرس والتأليف . تبدأ قلقة محدودة ، وتخضع لسنة النشوء والارتقاء فيحذف منها ما يحذف ، ويعدل ما يعدل ثم لا تلبث أن تنمو بنمو العلم نفسه ، وأن تنتشر بانتشاره ، وأن تستقر باستقرار العرف والاستعمال . وهنا يعنى الباحثون بجمعها وشرحها

فى معجمات خاصة لأنها مفاتيح العلم وأدوات التعلم . ويتفننون فى وضع هذه المعاجم ، فيقصرونها على علم بعينه ، أو يستوعبون فيها طائفة من العلوم . يرتبونها ترتيبا موضوعيا ، أو يسلكون فيها مسلك الترتيب الهجائى على غرار المعجمات اللغوية . وتتفاوت شروحهم للمصطلحات ، فتجئ تارة مختصرة مركزة ، تكتفى بذكر الدلالة اللغوية للفظ ، وتضيف إليها دلالته الاصطلاحية فى دقة واختصار وتنحو تارة أخرى منحى البسط والتفصيل ، فتبين آراء العلماء والباحثين ، وتشير إلى خلاف المذاهب والمدارس .

ولا تقف المعجمات المتخصصة عند المصطلحات العلمية ، بل تعالج أيضا العلماء أنفسهم . فتحاول حصرهم والتعريف بهم ، وتسجل بذلك تاريخ العلم وتعين على فهم قضاياه ، وتمكن من الحكم على رجاله .

* * *

والعربية غنية غناء ملحوظاً بمعجماتها المتخصصة ، فكر فيها منذ عهد مبكر وبدئ بها فى العلوم الدينية واللغوية ، ثم طبقت فكرتها على العلوم الأخرى من إنسانية وطبيعية ورياضية ، وكتب التفسير فى أساسها تعد ضربا من هذه المعجمات وكتب الحديث من صحيح ومسند وشرح لهما لاتخرج عن هذا كثيرا . وفى وسع العربية أن تباهى بما وفرلها من معجمات الأعلام ، فلديها منها ثروة لانكاد نجد لها نظيرا فى اللغات الأخرى . وكثيراً ما سميت كتب الطبقات أو التراجم ، ولكل فرقة ولكل مدرسة ولكل علم طبقاته ، مثل طبقات المعتزلة ، وطبقات الشافعية ، وطبقات النحاة ، وطبقات الأطباء . ولا شك فى أن علوم الحديث فى عنايتها بتاريخ الرجال والكشف عن مدى نزاهتهم وصدقهم فى روايتهم هى التى وجهت نحو هذا اللون من التأليف . ولم يقف أمر هذه المعجمات عند الأشخاص بل امتد إلى البلدان والأماكن . وهناك باحثون أولعوا بذلك ولوعا كبيرا ، وعلى رأسهم ياقوت الحموى (٦٢٤ هـ ١٢٢٨ م) صاحب « معجم الأدباء » ، و « معجم البلدان » وهو دون نزاع حجة فى هذا الباب ، ومرجع هام يعول عليه . ويعد من أعلام أصحاب الموسوعات والمعاجم فى التاريخ القديم والحديث .

وندع جانبا معجمات الأشخاص والأماكن وما أجدرها ببحث خاص . ونقصر حديثنا على معجمات المصطلحات ، والحديث فيها يطول ، وليس فى وسعنا أن نستوعبها هنا جميعها . فهى متعددة ومتنوعة بتنوع العلوم والفنون ، ونكتفى بذكر ثلاثة منها تشير إلى التطور التاريخى فى وضع المعجمات العربية المتخصصة ، وهى « مفاتيح العلوم للخوارزمى » ، و« تعريفات الجرجانى » ، و« كشاف اصطلاحات العلوم والفنون للتهانوى » .

والخوارزمى (٣٨٧هـ — ٩٩٧ م) شيخ من شيوخ القرن الرابع الهجرى ، الذى يعد العصر الذهبى للثقافة الإسلامية ، فوقف عليها الخوارزمى فى مراحل نضجها ، وألم بفروعها وأصولها . واتسم بالطابع الموسوعى الذى كان شارة العصر وإن غلبت عليه حرفة الأدب . اتصل بالدولة الساسانية ، وهى مشهورة بخدمة العلم ورعايته ، وكتابه الذى نعرض له إنما صنف باسم واحد من وزرائها . وكان يجيد العربية والفارسية ، وله فيما يبدو إلمام بالسريانية واليونانية ويظهر أن بعض فلاسفة هذا العصر وعلمائه كانوا يعنون باللغات الأجنبية ، ويحصلون منها ما يجدون السبيل إلى تحصيله . ويكفى أن نشير إلى الفارابى الفيلسوف ، وهو معاصر للخوارزمى ، وقد توسع رجال التراجم كثيراً فيما ينسبوه إليه من معرفة لغات أجنبية .

والخوارزمى رائد من رواد المعجمات العربية المتخصصة ، أدرك فى وضوح الفرق بينها وبين المعجمات اللغوية . ذلك لأنها تعبر عن عرف خاص وتشتمل على مصطلحات ومواصفات لا يعرفها إلا أهل العلم أنفسهم . ويلاحظ بحق « أن اللغوى المبرز فى الأدب إذا تأمل كتابا من الكتب التى ألفت فى أبواب العلم والحكمة ، ولم يكن شدا[1] صدرا من تلك الصناعة ، لم يفهم شيئا منه »[2]. وهو يشير بهذا إلى ما استقر عليه رأى الفيلولوجيين المعاصرين من أن اللغة العلمية واحدة من اللغات الخاصة . ولاحظ أيضا أن اللفظ الواحد قد يأخذ دلالات مختلفة باختلاف العلوم والفنون ، فالرجعة مثلا عند الفقهاء الرجوع

---

(١) شدا : شفا .

(٢) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ٢ .

فى الطلاق ، وعند متكلمى الشيعة عودة الإمام بعد غيبته أو موته ، وعند الفلكيين سير أحد الكواكب الخمسة المتحيرة على غير نضد البروج [١] .

ويقع كتابه فى مقالتين ، وقف أولاهما على العلوم الشرعية والعربية ، ووقف الثانية على العلوم الأعجمية والدخيلة وتحت كل مقالة عدة أبواب وتحت كل باب عدة فصول . فقام الكتاب جميعه على تقسيم موضوعى وتبويب دقيق محكم . وقد أعلن المؤلف فى مقدمته : أنه ، رغبة فى الاختصار والوضوح ، ترك جانبا المصطلحات المشهورة والمتعارف عليها ، كما ترك المصطلحات الغريبة والغامضة التى تحتاج إلى مزيد من الشرح والتفسير ، وتحاشى التفريع المفرط وإيراد الحجج والشواهد [٢] . وقد حقق فعلا ما قصد إليه ، وجاء كتابه مرجعا للمتخصصين ، وعونا لطلاب البحث والدراسة . ولذلك سماه « مفاتيح العلوم » لأنه مدخل لها ، ووسيلة للكشف عن بعض الغامض منها [٣] . ولهذا الكتاب شأن خاص فى توضيح تطور المصطلح العلمى العربى ، والإشارة إلى مصادره الأساسية من وضع أو تعريب ، ولعله من أوضح المراجع العربية فى بيان الأخذ عن اليونانية والسريانية . وقد كشف عنه حديثا المستشرق الهولندى « فان فولتن » فى أخريات القرن الماضى ، وعول عليه من بعده الباحثون والدارسون .

والشريف الجرجانى (٨١٦هـ — ١٤١٣م) من رجال القرن التاسع الهجرى جاء بعد الخوارزمى بنحو خمسة قرون ، وعاش فى عصر غلبت فيه الدراسات النقلية من فقه وتفسير وحديث ، ولم يبق من الدراسات العقلية إلا المنطق وعلم الكلام . تتلمذ لبعض شيوخ عصره ، أمثال قطب الدين الرازى (ت ٧٦٦هـ — ١٣٦٥م) واتصل بتيمور لنك ، وفى مجلسه ناظر سعد الدين التفتازانى (٧٩٠هـ — ١٣٨٩م)

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤ .

(٣) المصدر السابق .

أجاد العربية والفارسية ، وكتب وألف فيهما . وتدور مؤلفاته حول الفقه والتفسير والحديث من جانب ، والمنطق والكلام والبلاغة من جانب آخر .

ومن بينها « كتاب التعريفات» ،وهو معجم متخصص صغير عنى خاصة بالعلوم الدينية والأدبية ، وطغت عليه نزعة لغوية واضحة ، فأدخلت فيه ألفاظ لاتعد من المصطلح فى شىء ، وحظ العلوم الطبيعية والرياضية فيه جد ضئيل ، فهو صورة صادقة لبيئته وثقافة عصره . سلك فيه مؤلفه مسلكا واضحا فى التلخيص والتركيز ، ولم يعرض للخلافات المذهبية والمدرسية إلا فى حدود ضيقة . فجاءت تعريفاته جلية واضحة ، يسهل حفظها والاستشهاد بها . ورتبت مصطلحاته ترتيبا أبجديا ، يسر أمرها على الدارسين والباحثين . وفى هذا ما يفسر سر ذيوعه ، والإقبال عليه ، ولكن « مفاتيح العلوم» دون نزاع أعمق منه درسا . وأكثر تخصصا .

والتهانوى من رجال القرن الثانى عشر الهجرى (١١٥٧هـ — ١٧٤٥ م) . وهو علم من أعلام الفكر الإسلامى فى الهند . ويمتاز هذا الفكر بمحاولة دائبة للجمع بين العلوم العقلية والنقلية ، حتى فى عصور الانحطاط والظلمة . وقد نشأ التهانوى فى بيت علم ، واستطاع أن يلم بأطراف المعرفة لعهده فأحاط بالعلوم الشرعية والعربية ، وتمكن من علوم الحكمة النظرية والعملية ، واتسم بطابع موسوعى فسيح يذكرنا بكبار مفكرى الإسلام فى العصر الذهبى .

ويبدو طابعه الموسوعى هذا فى معجمه الكبير الذى سماه «كشاف مصطلحات الفنون» وقد قضى فى وضعه بضع سنين وهو قطعا من أكبر المعجمات العربية المتخصصة . بدأه بمقدمة طويلة حاول أن يحصر فيها العلوم المختلفة بين عربية وغير عربية ، شرعية وغير شرعية ، جزئية وكلية ، حقيقية وغير حقيقية . وهذه المقدمة ضرب من تصنيف العلوم شبيه بما لوحظ لدى مفكرين آخرين كإحصاء العلوم للفارابى ، وإن كان صنيع التهانوى أعم وأشمل . وعرض لهذه الأقسام قسما قسما ، وعرف بموضوع كل علم ومسائله وأهدافه . وقد يشير إلى بعض كتبه ورجاله . ومراجعه عربية خالصة ، وفى أغلبها معاصرة أو شبه معاصرة . وفى ضوء هذه المعرفة غذى معجمه ،وقد يتوسع فى بعض المواد إلى درجة هى

أدخل فى باب التأليف الموسوعى منها فى باب المعجم العلمى. ويكفى أن نشير على سبيل المثال إلى مادة « التاريخ » التى وقف عليها عدة صفحات عرض فيها للتواريخ المختلفة ، الهجرى، والرومى ، والقبطى ، والفارسى ، والتركى .

ورتب هذا المعجم ترتيباً أبجدياً ، وقسم إلى أبواب على حسب حروف الهجاء ، وتحت كل باب عدة فصول . ولوحظ فى الباب الحرف الأول من الكلمة ، وفى الفصل الحرف الأخير منها ، على عكس ما صنع صاحب « الصحاح » وهو تبويب معقد بعض الشئ ، لايجد فيه الباحث طلبته فى يسر فينتقل مثلا من « الأدب » إلى « المؤنث » ، ثم إلى « الأوج » ، « والتاريخ » وقضى بذلك على كثير من مزايا الترتيب الأبجدى . ولو وقف عند الأبواب ورتب مواد كل باب ترتيباً هجائياً خالصاً لكان أولى ، وقد درج المؤلف فى الشرح على أن يبدأ بالدلالة اللغوية ، ثم ينتقل إلى الدلالة الاصطلاحية ، ويتوسع فيها ما استطاع ، ولا يتردد فى أن يبين مختلف المذاهب والآراء ، وأن يشير إلى بعض المراجع . وقد يثبت نصوصاً فارسية للدلالة على معنى خاص . فجاء معجمه إلى حد ما « ثنائى اللغة » وشاءت وزارة الثقافة أن تخرجه فى ثوب عربى خالص ، وأن تعيد طبعه وفق المنهج العلمى السليم ، لاسيما وقد نفدت طبعة الهند العتيقة (١٨٦٢) . ويسير هذا التحقيق فى بطء ملحوظ ، بدئ به عام ١٩٦٣ ، ولم يخرج منه فى العشر سنوات التالية إلا ثلاثة أجزاء صغيرة ، وقف آخرها عند « باب السين » « فصل الطاء » .

* * *

هذه نماذج ثلاثة من المعجم العربى المتخصص ، وفيها سبق واضح فى الموضوع والترتيب ، فمنها ما اقتصر على المصطلح ، ولم يخلط به شيئاً سواه . وهذا هو أساس المعجم المتخصص . ومنها ما التزم بالترتيب الأبجدى . وهذا هو دعامة التأليف المعجمى اليوم ، ومنها ما نحا نحواً موسوعياً ، فمهد لما تضطلع به دوائر المعارف الحديثة ، وهذه المعجمات الثلاثة متعاقبة زمناً ، ويرتبط لاحقها بسابقها وبرغم أنها وليدة بيئات مختلفة فإنها تشهد بوحدة لغة العلم فى العالم الإسلامى جميعه ، وبذيوعها واستقرارها لدى العلماء والباحثين شرقاً وغرباً . ولم يصنع أصحاب المعجمات هذه شيئاً أكثر من أنهم سجلوا تراثاً شائعاً ، ودونوا

مصطلحات ومواصفات متوارثة ، وهذه هى القيمة الحقيقية للمعجم العلمى . فلم يخترع أصحابنا شيئاً ، ولم يبتكروا ألفاظاً جديدة ، وفى هذا درس ما أجدرنا أن نفيد منه فيما نعالج من معجمات علمية .

ولا شك فى أن العالم العربى ، من الخليج إلى المحيط ، يشهد اليوم نهضة ثقافية ملحوظة ، تهدف إلى إحياء مجد الماضى ومواجهة متطلبات الحاضر . ومما يؤسف له أن كثيرين من باحثينا لا يعنون بالمصطلحات القديمة عناية كافية ، وفى وسعهم أن يفيدوا منها فى أداء بعض مبتكرات العلم الحديث وهذا قصور أو تقصير لا مبرر له . ويلحظ فى ربع القرن الأخير تسابق إلى تأليف المعجمات المتخصصة ، ونحن فعلا فى حاجة إليها . ولكنها ليست مجرد ترجمة ووضع مقابلات عربية لألفاظ أجنبية ، بل هى أساساً تسجيل لعرف شاع واستقر . أما أن تتعدد هذه المقابلات وتتنوع بتنوع المؤلفين ، فهذه بلبلة ينبغى أن نحذرها وقيمة المصطلح فى أنه جزء من لغة تعارف عليها المشتغلون بعلم معين واطمأنوا إليها . ونريد للعلم العربى اليوم لغة موحدة فى المشرق والمغرب ، كما كان شأنه بالأمس القريب والبعيد.

مجمع اللغة العربية في خمسة عشر عاماً

في الحاضر قدر كبير من الماضي ، وهما معا يمهدان للمستقبل ويمتزجان به ومجموعة ذلك كله ما نسميه الزمان ، مقياس الحركة والتطور ، وأوضح ما تكون هذه الأطراف اختلاطاً في لغة العلماء والباحثين . ومع هذا فإنهم لا يترددون أن يتصوروا في مجرى الزمن سداً يفصل بين الماضي والحاضر وجسراً يلقون منه نظرة إلى الخلف ، فيتبينون ما كان في الأمس ، وما يتوقع أن يكون في الغد .

وعلى هذا السنن نقف اليوم من المجمع اللغوى ، لنستعرض في إجمال ما كان من أمره في الخمس عشرة سنة الماضية . وفي هذا الاستعراض ما يعيننا على رسم خطة أو تدارك بعض ما فات . ولا شك في أن هذه الفترة لاتكاد تذكر في حياة المجامع العلمية واللغوية . وكم يذكرنى موقفى هذا بحديث تلك الساعة الكبرى التي أهداها كليبر (Colbert) للمجمع الفرنسي ، كي يقيس بها الزمن جماعة الخالدين فكانت مثار تندر وفكاهة ، إلا أن سنواتنا المعدودات ملأى بالحوادث والآثار .

هي بالدقة خمسة عشر عاماً ونحو أحد عشر شهراً ، وقد أبت الحرب الأخيرة إلا أن تطغى على جزء منها ، فحرمت الأعضاء المصريين من مشاركة زملائهم الشرقيين والمستشرقين خلال خمس سنوات متلاحقة . ومع هذا طرأ على المجمع فيها أمور لها شأنها . فعدل مرسوم إنشائه غير مرة . وزيد أعضاؤه من عشرين إلى ثلاثين ، ثم إلى أربعين . ونما عدد محرريه وكتابه نمواً ملحوظاً . وغير نظام انعقاده . فبعد أن كان يجتمع بكامل أعضائه لمدة شهر أو يزيد ، قسم إلى مجلس يقتصر على المصريين ويعمل معظم السنة ، ومؤتمر يشمل جميع

الأعضاء وينعقد سنوياً أربعة أسابيع متوالية على الأقل. وإذا كان المجمع قد بلى غير مرة فى هذه الفترة القصيرة بالهجرة من مسكن إلى مسكن ، وكلها فى الغالب غير كافية ولا ملائمة ، فإنا نرجو أن يعد له قريباً مبنى خاص يحمل شارته وتتركز فيه تقاليده .

* * *

بيد أن هذا التغيير والتعديل لم يقف سيره ولم يعق سبيل عمله ، وامتد نشاطه إلى نواح شتى أهمها أبواب أربعة : تشجيع الإنتاج الأدبى ، ووضع المصطلحات العلمية ، وتيسير اللغة متناً وقواعد أو كتابة ورسم حروف ، ووضع بعض المعجمات اللغوية والفنية .

فأما تشجيع الإنتاج الأدبى فلم يتجه إليه المجمع فى بدء حياته ، ولم ينص عليه صراحة فى مرسوم إنشائه ، مع أنه من أعمال المجمع الفرنسى البارزة . وقد قضى مجمعنا نحو عشر سنوات وليست له جوائز أدبية معروفة ، وإنما بدأ بالحكم فى مسابقات دعت إليها وزارة المعارف ، وحاول توزيع جوائز تبرع بها بعض الخاصة . ولكنه لم يلبث أن اتجه نحو تشجيع الإنتاج الأدبى بوسائل مختلفة ، فتوج بعض الأشخاص أو الكتب تتويجا أدبيا ، ومنح ما منح من جوائز مالية . وقد انتهى به الأمر إلى تقرير هذا المبدأ ورسم طرائق تطبيقه ، ففى ميزانيته مبلغ معين للإنتاج الأدبى ، وله جوائز يعلن عنها سنوياً ويحدد موضوعاتها وشرائطها فى وضوح ودقة .

وكم حفزت هذه الجوائز من همم ، وأثارت رغبة البحث والكتابة ، وربطت المجمع بالناطقين بالضاد فى مختلف البلاد ، فلم تقف الآثار الأدبية التى وصلت إليه عند الإنتاج المصرى وحده ، بل جاوزته إلى إنتاج الأقطار الشقيقة وبلاد المهجر فى جنوب أمريكا . ومن بين هذه الآثار ما أضاف إلى الأدب المعاصر ثروة يعتد بها وبدا جديراً بالتقدير والتنويه .

وإذا كان البحث الأدبى مما يمكن أن ترسم له خطة وتحدد له غاية ويعالج بشىء من المرانة والدربة ، فإن الشعر والقصة فى أساسهما فيض الخاطر ووحى السليقة ، لذلك قد يصيبهما أحياناً ضرب من الجدب والإفلاس . هذا إلى أن

الجوائز الأخرى قد تطغى على الجوائز المجمعية بما اشتملت عليه من حفز وإغراء أتم ، فلا يصادف المجمع دائما ذلك الإنتاج الأدبى الممتاز الذى ينشده ولوحظى بتبرعات وهبات مالية ذات شأن ، لتحرر من قيود الميزانية السنوية وأفسح الأجل لمسابقته ، فتجىء ثمارها أطيب وأقوم ، وما أجدره أن يعالج أبواب الإنتاج الأدبى ألا وهو المساهمة فى نشر النصوص القديمة وإحياء الآثار الأدبية القيمة ، وما أحوج هذا إلى زمن وأناة .

وأما المصطلحات فقد كانت شغل المجمع الشاغل منذ نشأته إلى اليوم ، استدعى من أجلها الخبراء ، وعقد اللجان والجلسات ، والمتتبع لمحاضره يلحظ أنها تمثل الجزء الأكبر من إنتاجه . ولا غرابة فقد نص مرسوم إنشائه على أن الغرض الأول من أغراضه «أن يجعل اللغة وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر» . لهذا لم يقنع بالمصطلحات العلمية ، بل ضم إليها ألفاظ الحضارة ، وقطع فى ذلك كله شوطاً بعيداً .

ففى أضابيره وسجلاته عشرات الآلاف من المصطلحات العلمية فى الطب والطبيعة وعلوم الأحياء والكيمياء والرياضة . والموسيقى والتاريخ والفلسفة والقانون والاقتصاد إلى غير ذلك ، كما أقر آلافا أخرى من ألفاظ الحضارة وأسماء المخترعات الحديثة . وقد نشر بعضها متفرقاً فيما نشر من مجلة المجمع ومحاضره ، وظهر منها عام ١٩٤٢ مجموعة مستقلة تشتمل على ما يقرب من أربعة آلاف مصطلح علمى وفنى ، هى جملة ما أقر فى الدورات الست الأولى .

وإذا كان المجمع قد تردد إزاء هذه المصطلحات زمنا : أيخترع أم يسجل؟ أيأخذ من العامية أم يرفضها رفضا باتاً ؟ أيعرب من اللاتينية أم يحيي قديما تراكمت عليه الأنقاض ؟ أيقنع باللفظ الأجنبي ومقابله العربى أم لابد من قسط من التوضيح والتعريف ؟ وإذا كان قد تردد فى هذا كله فإن منهجه الآن استقر على نحو ما . فهو يؤمن بأن مهمته الأولى أن يسجل ما اصطلح عليه العلماء والمختصون من ألفاظ ودلالات ، ويقرر أن العامية ليست بعيدة عن الفصحى كل ذلك البعد وأن كثيراً من ألفاظها عربى الأصل وإن فقد بعض اعتباره ، ومن الخير أن يرد إليه هذا الاعتبار ، ويأخذ بالتعريب كلما مست إليه الحاجة

متحاشيا حوشى الألفاظ ومستهجنها ، ويرى من الضرورى أن يقرن المصطلح بقول شارح يوضحه ويكشف عن مدلوله ، خصوصاً وفى ذلك تمهيد لازم للمعجمات اللغوية والفنية المنشودة .

ولعل المصطلحات وألفاظ الحضارة هى الباب الأول الذى نفذ منه النقد إلى المجمع والمجمعيين ، فكانت فرصة مواتية لألوان من الدعابة والفكاهة . وما حديث « الإرزيز ، والشاطر والمشطور بينهما كامخ » عنا ببعيد وإن لم تدخل هذه فعلا فى مناقشات المجمع وقراراته . ونحن لا ننكر أن من بين ما أقره المجمع قديما من مصطلحات ما قد يعيد النظر فيه اليوم ، ذلك لأنه يتم على نحو شامل أو لأن المصطلح العلمى نفسه فى تغير وتبدل شأن الألفاظ الحديثة المختلفة . هذا إلى أن مجمعنا اللغوى تنقصه أداة ضرورية من أدوات إعداد المصطلحات العلمية ، فليس بجانبه تلك المجامع الأدبية والعلمية والفنية التى توجد إلى جانب المجمع الفرنسى مثلا . ومما يلفت النظر أن فى وزارة المعارف مشروعاً يرجع إلى عدة سنوات ويرمى إلى إنشاء معهد مصرى عام (Institut) مكون من خمس شعب : علوم وطب وآداب وفنون وسياسة واقتصاد إلى جانب المجمع اللغوى ، ولم يقدر له أن يظهر إلى حيز الوجود بعد ، على الرغم من تحريكه غير مرة ، وفى قيام بعض الجمعيات العلمية والحرة ما يمهد ويحفز له .

وقد تساءل المجمع فى وقت ما ، أيقنع بجمع المصطلحات وتسجيلها أم يحاول أن يمنحها صفة إلزامية ؟ ويبحث عن وسائل قاهرة تحمل على استعمالها والأخذ بها ، ومن حسن الحظ أنه عدل عن ذلك عدولا باتاً تاركاً الأمر لحرية الكتاب والباحثين ، ومؤمناً بأن فى إقراره لطائفة من المصطلحات ما يمنحها قوة وسلطاناً فوق ما كسبت من الاستعمال العادى .

ولكن مما يؤسف له أن قسطاً كبيراً من هذه القرارات لايزال ثروة مهملة فإنه لم ينشر شىء فى استقلال من المصطلحات العلمية والفنية التى أقرها المجمع بعد تلك المجموعة التى نشرت عام ١٩٤٢ ، وقد أبطأت الحرب الأخيرة بمجلة المجمع وسلسلة محاضره بطئاً شديداً ، فلم يظهر من كل منها إلا الأعداد الخمسة

الأولى ، ولا تزال هناك عشر دورات فى انتظار النشر ، وواجبنا أن نعجل بذلك ونستحث فيه الخطى ، كيفما كانت الصعاب التى تصادفنا فى الطبع ووسائله ، وإن لم تسعفنا المطبعة الأميرية فلنعدل عنها إلى مطبعة أخرى ، كى نخرج إلى التداول ما انتهينا إليه من قرارات ، ونضع أمام القراء ما عالجه المجمع من بحوث ، وحبذا لو بوبنا مصطلحاتنا العلمية ونشرنا كل باب منها على حدة ، إنا إن فعلنا يسرنا أمرها للطلاب والباحثين ، وأفدنا مما يمكن أن يوجه إلينا من نقد أو ملاحظة .

ولقد عنى المجمع كذلك بتيسير اللغة متنا وقواعد ، وكتابة ورسم حروف فاستوقف نظره لأول وهلة متن اللغة ، وحاول أن ييسر من أمره ما استطاع وأثار حول ذلك جدلا ونقاشا لم يخل من متعة وطرافة ، وانتهى إلى طائفة من القرارات ذات القيمة العملية . فرأى مثلا أن التضمين قياسى لا سماعى ، وأن النحت والتعريب جائزان عندما تلجئ إليهما الضرورة ، وتوسع فى بعض القواعد الصرفية فجعل تعدية الفعل الثلاثى بالهمزة قياسية ، وأجاز النسب إلى جمع التكسير عند الحاجة ، وجمع المصدر إذا اختلفت أنواعه ، واتخذ صيغاً قياسية للدلالة على الحرفة ، أو الآلة التى يعالج بها الشئ ، أو الأعيان التى تكثر فى مكان ما .

وقد شغل المجمع بتيسير النحو ، وذلك أن وزارة المعارف شكلت لجنة لتبسيط قواعد النحو والصرف وتخفيف أمرها على تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية ، وعندما فرغت من عملها أعدت تقريراً ضمنته مقترحاتها ، ثم رأت وزارة المعارف عرض هذا التقرير على المجمع ، فدار حوله نقاش طويل وممتع فى عشر جلسات من جلسات مؤتمر الانعقاد الحادى عشر عام ١٩٤٥ . فى أثنائها أصدر المؤتمر خمسة عشر قرارا تصلح أساسا لنحو وصرف جديدين يلائمان النشء ، ويتمشيان مع روح التخفيف والتيسير وبذا يصفى النحو من تلك الفلسفة التى لا طائل تحتها ولا حاجة إليها ، ويجرد الصرف من بحوث فقه اللغة التى لا تعنى البادئين من المتعلمين ولا يدركون كنهها وقد أوصى المؤتمر فوق هذا أن تؤلف الوزارة كتاباً على أساس هذه القرارات على أن يعرض على مجلس المجمع ليراجعه ويستكمل ما قد ينقصه .

ولكن هذه القرارات وتقرير لجنة المعارف نفسها قد نسيت أو تنوسيت ، وبقيت هذه الجهود المتلاحقة دون جدوى ، الأمر الذى دفع المجمع لأن يثير الموضوع مرة أخرى فى مؤتمر دور الانعقاد الرابع عشر مطالباً أن يوضع كتاب النحو الذى أوصى به من قبل .

ولا نظن أن فى وسعه أن يفعل أكثر من هذا ولسنا ندرى متى يقدر لهذا النحو الميسر أن يبرز إلى عالم المدارس والتلاميذ؟ إنه يوم أن يظهر سيضيف دليلا جديداً على مدى مسايرة المجمع لمقتضيات العصر وروح التطور .

أما تيسير الكتابة العربية فكان بحث المجمع الشائق وعمله الجرئ فى مؤتمره العاشر عام ١٩٤٤ ، ورغبة فى هذا التيسير قدم مشروعان لزميلين كريمين أحدهما للمرحوم على الجارم والآخر للأستاذ عبد العزيز فهمى ، وكم أثارا من ملاحظة واعتراض ومتابعة لهذا الموضوع الهام وتقديرا لهذين المشروعين قرر المؤتمر نشرهما مصحوبين بكل التعليقات التى تتصل بهما ، وبذا وجه النظر إلى مشكلة دقيقة من مشاكل اللغة . ولم يقنع المجمع بهذا ، بل أعد جائزة كبرى بأن يتقدم بأحسن اقتراح لتيسير الكتابة العربية ، فقدم إليه ما يزيد على مائتى اقتراح . وها هم أولاء الفنيون يراجعونها ويوازنون بينها راجين أن يجدوا فيها ما ييسر الكتابة العربية — مخطوطة كانت أو مطبوعة — تيسيراً مقبولا . ومهما تكن النتيجة فإن إثارة أية مشكلة خطوة نحو حلها ، إن عاجلا أو آجلا .

وإذا كان المجمع قد واجه مشكلة الكتابة العربية فى جملتها ، فإنه لم يهمل جانباً آخر منها له أهميته ، ألا وهو رسم الحروف والإملاء ولا أظننا نجهل ما يلاقى الأطفال من عنت فى الكتابة والهمزة فى وسط الكلمة أو آخرها ، أتكتب على ألف أم على واو أم على ياء ؟ وما يشعرون به من حيرة إزاء الألف اللينة ، أيرسمونها ألفاً أم ياء فى الأسماء والأفعال ؟ ولقد أحس بهذه الصعوبات كثيرون من المشتغلين بالتعليم فى البلاد العربية ، مما دفع المؤتمر الثقافى للجامعة العربية عام ١٩٤٧ أن يعرض لها ويحاول تذليلها .

* * *

وقد شاء المجمع بدوره أن يساهم فى حل هذه المشكلة . فتوفرت على درسها لجنة خاصة تقدمت بمقترحات كانت موضع بحث ومناقشة فى المؤتمرين الأخيرين وأبديت عليها ملاحظات من لجنة اللغة العربية بالمجمع العلمى العراقى ومن أساتذة اللغة العربية بدار المعلمين العليا ببغداد، ولا يزال الأمر قيد البحث والدرس . وإذا كنا لم نصل بعد إلى حل شامل لمشكلة الكتابة العربية فلا أقل من أن نذلل بعض جوانبها .

ولست فى حاجة أن أشير إلى أن المجمع إزاء هذه المشاكل على اختلافها يتجاذبه تياران متقابلان : يحرص أحدهما على القديم ويستمسك به . ويتجه الآخر نحو الجديد ويعتد به . وقد يكون فى هذا التجاذب شئ من الشد والمد واللجاج والتكرار ، والتسويف والإرجاء . خصوصاً وأعضاء المجمع فى ازدياد مطرد وتغيير من حين لآخر ، فتثار مشكلة ما غير مرة ، وتناقش المسألة الواحدة فى أكثر من مناسبة . ولكن هذا التجاذب نفسه سبيل لكشف الحقيقة ووسيلة لربط الحاضر بالماضى ومدعاة للسير المتئد لا تفريط فيه ولا غلو ، واللغات أقل الأشياء خضوعاً للثورات . وإنما تخضع عادة لتطور هادئ طويل المدى .

* * *

وأخيراً تنص المادة الثامنة من مرسوم إنشاء المجمع على أن من أغراضه «أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية ، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة فى تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها» وقد أخذ المجمع نفسه بوضع هذا المعجم منذ انعقاده الأول ، فشكل لجنة ترسم خططه وتبين كيفية السير فيه ؛ ورأى أن يبدأ فيطبع تحت إشرافه ذلك المعجم التاريخى الذى سبق للأستاذ فيشر أن أعده . وقد سار الأستاذ فى طريقه ، إلى أن جاءت الحرب الأخيرة فاعترضت سيره وكنا نرجو بعد أن وضعت الحرب أوزارها أن يستأنف عمله ولكن مقامه فى ألمانيا الشرقية حال دونه والخروج منها . وها هو ذا ينعى إلينا فى أوائل هذا العام

فينقد المجمع بفقده عالماً جليلا ولغويا ممتازاً . ويتوقف عمل خطا فيه خطوات فسيحة ، وكنا نرتقب ثماره .

على أن المجمع لم يقف عند معجم فيشر ، بل أخذ منذ عامين يعد العدة لإخراج المعجم التاريخى الكبير[1] ، والعمل سائر فيه تباعاً ، وقد عرض منه نموذج على المؤتمر الماضى ، ومؤلف كهذا لا يسأل متى يتم ، وإنما المهم أن يحتم بدؤه ، ويحدد فى دقة ووضوح منهجه . وعلى الخلف متابعة السير وإتمام حلقات السلسلة . ويكفى أن نشير إلى أن المجمع الفرنسى بدأ معجمه العادى سنة ١٦٣٤م ولم يتمه إلا سنة ١٦٩٦م ، أما المعجم التاريخى فقد قنع منه بإنجاز جزءين اثنين فى حرف A دون أن يأتيا عليه .

وقد اتجه مجمعنا نحو معجمين آخرين ، هما : المعجم اللغوى الوسيط ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم . فأما الأول فقد اضطلعت به وزارة المعارف فى المبدأ ، راجية أن تيسر به على تلاميذ المدارس الثانوية وطلاب الدراسات العالية ثم لم تلبث أن وكلت أمره للمجمع ، كى يتولى وضعه وتنسيقه ويشرف على طبعه ونشره ، وقد انتظم العمل فيه منذ سنة ١٩٤٠ وسار بين البطء والإسراع حتى اليوم ، ويمكن أن يقال إن مادته اللغوية قد اكتملت وإن كانت لا تزال فى حاجة إلى ضرب من التنسيق والمراجعة ، ولابد له إلى جانب ذلك أن يعرض لبعض المصطلحات العلمية وألفاظ الحضارة ، ونرجو أن يتوفر له ذلك قريبا . وكيفما كان ضبطه ودقته فلن يخلو من نقد ، شأن كل مؤلف جامع فلنعجل إذاً بنشر طبعته الأولى ، آملين أن نتدارك ما فاتنا فى الطبعات التالية .

وأما معجم ألفاظ القرآن الكريم فقد نبتت فكرته عام ١٩٤١ ، وكانت مثار أخذ ورد طويلين ، وبعد أن أقرت أخذ المجمع يعد العدة له . فرسم منهج العمل فيه وحدد الغرض منه ، وشكل له لجنة خاصة تشرف عليه . وقد بدأت اللجنة عملها منذ زمن ، وعرضت على مؤتمر المجمع نموذجاً منه فى الدورة الرابعة عشرة ، وتنوى أن تعرض نموذجاً آخر فى المؤتمر الحالى ، وإذا كانت لم تفرغ بعد من تحضير مواد المعجم جميعها ، فإنها ترجو أن يتم ذلك قريباً .

* * *

(١) المقصود « المعجم الكبير » وهو معجم لغوى موسوعى .

هذه لمحة عاجلة عن مجمع فؤاد الأول في الخمس عشرة سنة الماضية . ومنها يبدو أن المجمعيين حرصوا ما استطاعوا على الاعتكاف في صومعتهم . مؤثرين العمل في صمت وهدوء والسير في تؤدة وتأن . وكثيرا ما يجهل البعيدون عنهم ما يجرى بينهم . فيرمونهم بالجمود تارة . وبالعقم أخرى . وكم كان المجمع عرضة لهجوم وحملات . وأغلب ظني أن ذلك راجع إلى أنا نعيش في عصر السرعة . ويرجو الناس منا أن نوافيهم بإنتاج متلاحق . وقد يكونون على حق في شيء من ذلك . ولكن ينبغي ألا يفوتهم أن طبيعة اللغة في سيرها وتدرجها تأبى التفريط .

المجمع اللغوى فى ربع قرن (*)

سيدى الرئيس ، سيداتى ، سادتى :

أبدأ فأبلغكم اعتذار السيدوزير التربية والتعليم فى الحكومة المركزية الذى كان يحرص كل الحرص على أن يشترك فى حفل الاستقبال هذا ولكن ظروف وأعمال ارتبط بها حالت دونه وما يريد .

كما اعتذر الأستاذ سعيد العريان وكيل وزارة التربية والتعليم المساعد لسفره إلى الرباط .

واعتذر أيضاً زميلنا الدكتور أحمد بدوى مدير جامعة عين شمس لسفره أيضاً .

أيها السادة :

إن حياة أية لغة فى أمرين أساسيين : ماض له قداسته ، وحاضر له حكمه وضرورته وإذا ماوقفت اللغة عند الماضى ، والماضى وحده ، فذلك هو الجمود والركود أو إن شئتم العدم والفناء . وإن أخذت بالحاضر وحده ، فقدت أخص خصائصها من إجماع واتفاق ، وتتابع واستقرار ، وأضحت وليدة الصدفة ومبعث الهوى . واللغات الحية هى التى تعتز بالماضى والحاضر معا ، تمقت الجمود وتأبى الطفرة ، تباهى بتراثها وتحرص فى الوقت نفسه على أن تنميه وتضاعفه .

وإذا كان للمجامع اللغوية من رسالة فهى أن تلائم بين هذين المبدأين ، وتوفق بين هذين الطرفين تستبقى من القديم أنفسه وأسلسه ، وتتقبل من الجديد

(*) ألقيت بمناسبة استقبال السادة الأعضاء العشرة الجدد الذين عينوا فى ١٤ من فبراير سنة ١٩٦١ .

أدقه وأحكمه ولابد لها أن تلم إلماماً واعياً بالثروة اللغوية ، وتحيط إحاطة تامة بالتطورات الفكرية والمستحدثات اللفظية ، فتتخير من هذا وذاك الأنسب والأصلح ، والسر كل السر فى هذا الاختيار .

* * *

ودون أن أقف عند المجامع اللغوية المختلفة ، وما أكثرها ، أود أن أعرض لاثنين فقط بينهما قدر من وجوه الشبه ، وأعنى بهما المجمع الفرنسى ومجمعنا العربى فأما الأول فقد جاء وليد حاجة وثمرة ضرورة ، شعر جماعة من الأدباء الفرنسيين فى أوائل القرن السابع عشر بأن لغتهم الناهضة فى حاجة إلى من يرعاها ويسهر عليها ، فعقدوا العزم على أن يلتقوا فيما بينهم ليتذاكروا فى شئونها فكانوا يعقدون جلسة كل أسبوع يستعرضون فيها مقالة لأحدهم ويتولونها بالنقد والتعليق .

وما أن أحس ريشيليو بهم شاء أن يتبنّاهم ويضعهم تحت كنفه ، فكون سنة ١٦٣٥ ما سمى الأكاديمية الفرنسية ، ورغب فى أن يمتد درسها إلى الآثار الأدبية المعاصرة ، فاتجهت أول ما اتجهت نحو « سيد » لكورنىّ . ولم يرق نقدها الروائى العظيم ، الذى لم يأبه به اعتزازا بتقدير الرأى العام وإعجابه . وقد أخذت نفسها بعد هذا ألا تنقد كتاباً إلا بناء على طلب صاحبه ، وألا ينشر نقدها إلا بعد مضى ستة أشهر من إعداده . وفى عام ١٦٣٩ أقدمت على أكبر عمل مجمعى ، وهو وضع معجم للغة الفرنسية . وقضت زمناً فى رسم منهجه وإعداد خطته ، ثم شرعت فى تدوينه ، ولم يظهر إلا بعد مضى نحو ستين سنة (١٦٩٦) ، ومن أخص مميزاته حذف الكلمات المماتة والمهجورة وإحالة أسماء الأشخاص والأماكن إلى المعاجم الخاصة ، وأعيد طبعه غير مرة ، كان آخرها الطبعة الثامنة التى ظهرت عام ١٩٣٥ .

وقد التزم فيها عدد ثابت ، فكونت من أربعين خالدا لا يزيدون ولا ينقصون ولم يكن فى وسعها أن تضم كبار الكتاب والأدباء فى مختلف العصور . وإذا كانت قد عرفت فى القرن السابع عشر أونريه دى بلزاك فإنها لم تعرف موليير ، وإن اقامت له نصباً كتب عليه :

« لم ينقص مجده فى شئ وإنما نقص مجدنا » وفى القرن الثامن عشر انضم إليها بوالو ، فى حين لم يحظ بعضويتها روسو ، وبين المعاصرين انتخب فاليرى ولم ينتخب أندريه جيد . ولعل فى هذا ما يفسر بعض ما أثير حولها من تهكم لاذع ، فقيل : « إنها جماعة هازلة تحاول أن تظهر بمظهر الجد» و« أن الخالدين أربعون فى عقول أربعة » وأبى شاعر فرنسى لم يتمكن من دخولها إلا أن يكتب على قبره : — « هنا يرقد من لم يكن شيئاً ، ولا عضواً فى الأكاديمية » .

أريد بها رعاية اللغة الفرنسية ، واستكمالها وضبط قواعدها ، وذلك بوضع معجم لغوى شامل ، وتنقيح قواعد الإملاء والنحو والصرف والعروض والبلاغة ولم تنجز من ذلك بحق إلا معجمها الذى أشرنا إليه من قبل ، ومع هذا قررت أن تقصى من طبعته الأولى المصطلحات العلمية والفنية ، ولم تقبلها إلا فى الطبعة الرابعة أما تبسيط الإملاء فترددت فيه كثيراً معلنة أنه لا وصاية لها عليه ، وأن المألوف فيه خير وأولى ، ولم تورد منه إلا ما ذهب إليه أحد أعضائها من تعديل كتابة عدد كبير من الكلمات على مقتضى النطق دون استصحاب الأصل اللاتينى أو اليونانى ، وذلك فى الطبعة الرابعة من المعجم فقط ، وأما النحو فوضعت فيه أخيراً كتاباً مختصراً أقرب إلى المحافظة منه إلى التجديد ، ولم تعالج شيئاً من العروض أو البلاغة برغم أن فينلون رسم لها منهجاً شاملا فى كتابه : خطاب إلى الأكاديمية الفرنسية ، منذ أوائل القرن الثامن عشر .

ولا شك فى أن هذا المجمع الفرنسى برغم أنه مطمح العلماء والأدباء ، كان أميل إلى المحافظة ، وقضت الظروف التى نشأ فيها بأن يكون رمزاً لأرستقراطية فكرية وأدبية خاصة ، حمى اللغة من التدهور والتبذل ، وأضحى بمثابة محكمة عليا للأدب الفرنسى ، ولكنه لم يفسح المجال للتجديد إلا بعد الحربين العالميتين الأخيرتين .

***

وإذا انتقلنا إلى مجمعنا العربى ، خيل إلينا أنه (ما أشبه الليلة بالبارحة) فقد ألف رهط من الأدباء فى العواصم العربية جمعيات أدبية ولغوية كانت دون نزاع نواة مجمع دمشق والقاهرة وبغداد ، وإن لم تعمر طويلا وفى القاهرة نشأت هذه الجمعيات منذ أخريات القرن الماضى ، ويذكر من بينها نادى السيد

توفيق البكرى ، ونادى أحمد تيمور ، ونادى رئيسنا لطفى السيد ، ونادى دار العلوم ، وقد مهدت هذه كلها لمجمعنا الحاضر الذى صدر المرسوم بإنشائه فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، ولم يعين أعضاؤه إلا فى أكتوبر سنة ١٩٣٣ . وأريد به أن يحافظ على سلامة اللغة ، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ، ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر ، وذلك بوضع معجم تاريخى للغة ، وتنظيم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة وبحث كل ماله شأن فى تقدم اللغة العربية .

بدأ المجمع دورته الأولى عام ١٩٣٤ ، وهو الآن فى دورته السابعة والعشرين وتلك — ولاشك — حقبة قصيرة فى حساب الزمن ولكنه بذل فيها جهودا لها قيمتها وقام بأعمال لها شأنها ويمكن أن ترد إلى أبواب أربعة : أولها تشجيع الإنتاج الأدبى الذى لم ينص عليه صراحة فى مرسوم إنشائه مع أنه من أعمال المجمع الفرنسى البارزة ، ولم يعتمد له فى البداية المال اللازم . ومع هذا بدأ مجمعنا بالحكم فى مسابقات دعت إليها وزارة المعارف ، وحاول توزيع جوائز تبرع بها الخاصة ثم اعتمد فى ميزانيته مبلغاً للإنتاج الأدبى . وكم حفزت جوائزه من همم وربطته بالناطقين بالضاد فى مختلف البلاد فوصله إنتاج من الأقطار الشقيقة وبلاد المهجر فى جنوب أمريكا إلى جانب الإنتاج المصرى وقد أضاف هذا الإنتاج إلى الأدب المعاصر ثروة لابأس بها . ونستطيع أن نقول إن تشجيع المجمع أخذ بيد عدد من الشباب الذين أضحوا اليوم فى طليعة الكتاب والقصاص ، ولو دبر له المال اللازم لخطا فى هذا السبيل خطوات أفسح . ومع ذلك حذف منذ سنوات اعتماد الإنتاج الأدبى على ضآلته ، وما أجدره أن يعود وأن تخصص منه مبالغ لنشر النصوص القديمة ، وإحياء الآثار الأدبية القيمة ، وفى التشريع الأخير ما يقضى بذلك .

شغل المجمع أيضاً بالمصطلحات العلمية منذ نشأته ، فاستدعى من أجلها الخبراء وعقد اللجان والجلسات ، وقطع فيها شوطاً بعيداً . ولعله تردد إزاءها زمنا ، أيخترع أم يسجل ؟ أيأخذ من العامية أم يرفضها رفضاً باتا ؟ أيعرب أم يحيى القديم ؟ ولكن منهجه استقر أخيراً ، فهو يؤمن بأن مهمته الأولى أن يسجل ما اصطلح عليه المختصون من ألفاظ ودلالات ويرى أن العامية ليست بعيدة عن الفصحى كل البعد وأن كثيراً من ألفاظها عربى الأصل وإن فقد

بعض اعتباره ويأخذ بالتعريب كلما دعت إليه الحاجة على طريقة العرب فى تعريبهم . وقد نشر عام ١٩٤٢ مجموعة المصطلحات التى أقرت فى الدورات الست الأولى ، وتبلغ نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة ، وفى عام ١٩٥٧ نشر مجموعة ثانية تشتمل على ٩٥٩٠ مصطلحاً فى شتى العلوم والفنون ، وفى يونية الماضى نشر مجموعة ثالثة تحتوى على ٢٣٥٧ مصطلحاً ، وهو يأمل متابعة هذا النشر وإخراج مجلد كل عام . وفى هذا ما يسمح بتطويع اللغة لحاجات العصر وما يعين العلماء والباحثين على التأليف والترجمة ومايعد نواة لمعاجم المصطلحات الخاصة .

قد يقال إنه يبطئ فى إقرار مصطلحاته ، وأنه ينفق كثيراً فى إعدادها . وأسارع فأجيب بأن هذا المجمع أقل المعاهد المماثلة إنفاقاً ، وقل أن جاوزت ميزانيته السنوية خمسين ألف جنيه على أن الغرض الذى يهدف إليه أسمى من أن يضن عليه بمال أما مايرمى به من بطء فأولى به أن يسمى تأنيا وروية جديرين بالتحقيق العلمى ، ومع هذا لا ننسى أنه كان يعمل وحده فى هذا الميدان إلى عهد قريب ، فلم تكن إلى جانبه مجامع علمية ولا فنية مثل تلك التى توجد إلى جانب المجمع الفرنسى واليوم قد أنشئ مجلس للعلوم ، وآخر لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ونشطت الجمعيات العلمية واتحادات العلوم ، فإنه يستطيع أن يستحث الخطى ، وأن يجد فى يسر المادة التى يبنى عليها حكمه .

ويقال كذلك أنه يكتفى بجمع المصطلحات وتسجيلها ، تاركاً للعلماء والباحثين أن يستعملوها إذا شاءوا أو أن يستبدلوا بها غيرها ، وكان أولى به أن يفرضها على الناس فرضاً . ونحن لا نقر إخضاع حرية البحث لقيد ما ، ونؤمن بأن فى إقرار المجمع لطائفة من المصطلحات ما يمنحها قوة وسلطانا فوق ما اكتسبت من الاستعمال العادى وإذا كانت قد قعدت به بعض القيود المالية زمناً عن نشر مصطلحاته ، فها هو ذا اليوم ينشرها تباعاً وييسر تبادلها . ولقد أصبح فى تكوينه الأخير مجمعاً عربياً يضم نخبة ممتازة من أدباء العرب وعلمائهم فهو بهذا إنما يقرر ما يقرر باسم البلاد العربية جمعاء .

وألفاظ الحضارة لون آخر من المصطلحات يقبل المجمع منها ما يقبل ،

ويسجل ما يسجل ، ولكنه لا ينشر إلا القليل . لأنه يؤثر بها أن تستقر نوعاً وأن يدمغها الاستعمال أولا بطابعه ، وأن يصل فيها إلى ضرب من التوفيق أو التقريب بين البلاد العربية ومع هذا كانت هذه الألفاظ ، ولا تزال ، مجال الفكاهة والتندر به ، فنسب إليه أنه قال بالعرعور بدل الوزير ، وبالأرزيز بدل التليفون ، وبالشاطر والمشطور بينهما كامخ بدل الساندوتش ، وهو من كل هذا براء ومهما يكن من أمر فقد أصبح من الضرورى أن نلتقى العرب عند دوال مشتركة لمداولات الحضارة المختلفة .

وعنى المجمع ثالثا بتيسير اللغة متنا وقواعد ، وكتابة ورسم حروف . استوقف نظره أولا متن اللغة وحاول أن ييسر من أمره ما استطاع ، وانتهى إلى نحو خمسين قرارا فى التعريب والاشتقاق وما يتصل بأقيسة اللغة ، فرأى مثلا أن التضمين قياسى لا سماعى ، وأن المصدر الصناعى يمكن اطراده وأجاز النسب إلى جمع التكسير عند الحاجة ، كما أجاز جمع المصدر إذا اختلفت أنواعه ، واتخذ صيغا قياسية للدلالة على الحرفة ، أو الآلة التى يعالج بها الشئ أو الأعيان التى تكثر فى مكان ما .

وشغل بتيسير النحو والصرف بناء على تكليف من وزارة المعارف ، ووقف عليه عشر جلسات من جلسات مؤتمر الانعقاد الحادى عشر عام ١٩٤٥ ، وأصدر خمسة عشر قرارا تصلح أساسا لنحو وصرف جديدين يلائمان النشء ، ويتمشيان مع روح التخفيف والتيسير . وبذا يصفى النحو المدرسى من فلسفة لا داعى إليها ، والصرف من فقه لغة لا يدرك البادئون كنهه . وأوصى المؤتمر حين ذلك بأن تؤلف الوزارة كتابا أو كتبا على أساس هذه القرارات ، على أن تعرض على مجلس المجمع لمراجعتها . وقد نسيت هذه التوصية أو تنوسيت إلى أن قدر لها أن تنفذ فى العام الماضى ، ووضعت كتب فى النحو الميسر لم تعرض على المجمع ، واستخدمت فعلا ، ولأمر ما عدل عنها أخيراً . وإنا لنتساءل هل عدل بتاتا عن فكرة تيسير النحو لصغار المتعلمين ؟ أم الأمر مجرد استبعاد لكتب يرى أنها غير ملائمة .

ومنذ عام ١٩٤٤ أثير موضوع تيسير الكتابة العربية ، وأعدت جائزة خاصة لمن يتقدم بأحسن اقتراح فيه ، وقدم فعلا أكثر من مائتى اقتراح قضى الفنيون زمنا فى مراجعتها والموازنة بينها ، ولم يجدوا فيها ما يحقق الغرض المطلوب

فلم ير المجمع بدا من متابعة البحث ، واكتفى مبدئيا بتيسير حروف الطباعة لما لها من أثر فى نشر العلم والقراءة . وانتهى فى العام الماضى إلى اختصارها اختصارا كبيرا ، فبعد أن كانت صورها فى الجمع اليدوى ٤٧٠ ، وفى الصف الحرفى ٢٤٠ ، أصبحت ١٢٨ فقط لجميع الحروف والهمزات وللشكل والأرقام والترقيم ، وهى توضع اليوم موضع التنفيذ . ولا شك فى أن هذا الاختصار ييسر الطباعة العربية تيسيراً كبيراً ، ويعين على نشر الثقافة الشعبية ، وفيه توفير للجهد والزمن والمال . ومن الغريب أن ترتفع فى الأيام الأخيرة دعوة من لبنان باستخدام الحروف اللاتينية ، ولا نظن أنه سيقدر لها قبول أو بقاء .

ولتيسير الكتابة أقر المجمع أيضا قواعد رسم للهمزة باختلاف مواقعها فى الكلمة ، وهو بصدد البت فى رسم الألف المتطرفة بدورها . وكلنا يعلم ما يعانى الأطفال من عنت فى رسم الهمزة المتوسطة والمتطرفة ، وما يشعرون به من حيرة إزاء الألف اللينة . وشاء المجمع أن يضع خطة للشكل فى الكتب المدرسية بحيث يتدرج فى مراحل التعليم على حسب السن والمستوى وسبق أن أصدر قرارات عدة لكتابة الأعلام اليونانية واللاتينية والأعلام الأجنبية الأخرى بحروف عربية .

وأخيرا نص فى مرسوم إنشاء المجمع « على أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية » وقد أخذ نفسه بذلك منذ البداية ، وشكل له لجنة خاصة من كبار رجال اللغة من العرب والمستعربين ، ورضى بأن يبدأ فيطبع تحت إشرافه ذلك المعجم التاريخى الذى سبق لأحد أعضائه أن يعد له وهو المستعرب الألمانى «فيشر» الذى أبلى فيه بلاء حسنا وقام بجهود مضنية ولكن الحرب العالمية اعترضت سيره وعاجلته المنية بعدها بقليل ، ولم يبق من جهود أربعين سنة كاملة إلا جذاذات رتبناها ، ونحاول أن نفيد منها ما استطعنا . ولم يقف المجمع عند معجم فيشر ، بل اضطلع بوضع معجم شامل يستوعب اللغة فى مختلف عصورها ، سماه « المعجم الكبير » وقام على أمره منذ سنة ١٩٤٦ واستطاع أن ينشر منه فى عام ١٩٥٦ نموذجا فى نحو ٥٠٠ صفحة . ولا يزال يوالى جهوده لإخراجه حريصا على أن يؤدى الأمانة على وجهها .

ووضع المعاجم عمل طويل المدى ، والمهم أن يرسم المنهج فى دقة وأن يطبق على خير وجه . وقد أشرنا من قبل إلى أن المجمع الفرنسى قضى ٦٠ عاما قبل أن يخرج معجمه ، ولم يخرج من المعجم التاريخى إلا جزأين فى حرف A دون أن يأتيا عليه .

واتجه مجمعنا نحو معجمين آخرين ، هما المعجم الوسيط ، ومعجم ألفاظ القرآن ، فأما الأول فقد رغبت فيه وزارة المعارف لينتفع به طلاب العلم ، وييسر لهم تحصيل اللغة . ولم ينتظم العمل فيه إلا عام ١٩٤٠ ، بسبب الإجراءات الإدارية والمالية التى كثيراً ما تعوق وتعطل . وسار بين البطء والإسراع إلى أن قدر له أن ينشر أخيراً ، وقد ظهر منه الجزء الأول ، والثانى تحت الطبع (١) ويبدو أنه محكم الترتيب والتبويب ، ذللت فيه الصعاب الصرفية والنحوية ، وبسّر الشرح ، وضبط التعريف ، وصور ما يحتاج توضيحه إلى تصوير ، وهجر الغريب والحوشى ، وتوسع فى المصطلحات العلمية الشائعة ، وأخذ بما استقر من ألفاظ الحياة العامة ، وأقر كثيراً من الألفاظ المولدة والمعربة الحديثة .

وأما معجم ألفاظ القرآن فقد نبتت فكرته عام ١٩٤١ ، ثم أخذ فى رسم منهجه وإعداد العدة له ، وظهر منه حتى الآن جزءان : أولهما سنة **١٩٥٣** فى الهمزة والباء والتاء والثاء ، والثانى سنة **١٩٥٩** فى الجيم والحاء والخاء والدال والذال ، وتعد العدة لإخراج الجزء الثالث .

ويوالى المجمع إخراج مجلته ، وفيها بحوث أدبية ولغوية وعلمية على مستوى رفيع . وقد اعترضت الحرب العالمية الأخيرة سبيلها ، فتوقفت عن الظهور زمنا ، وها هى ذى تتدارك الآن ما فاتها . وظهر منها أخيراً الجزء الثانى عشر وينتهى إلى الدورة الثانية والعشرين من دورات المجمع ، والجزء الثالث عشر تحت الطبع (٢) . ونحن جادون فى أن تصبح معاصرة تتابع المجمع فى نشاطه وأن تنشر بين المختصين نشراً يحقق الاستفادة منها .

---

(١) ظهر فى سنة ١٩٦١ / ٦٢ .

(٢) ظهر فى سنة ١٩٦١ .

أيها السادة :

أظننا نستطيع أن نقول إن هذا المجمع ، وإن كان يعمل فى صمت ، قد أنتج وأنتج كثيرا فى ربع القرن الماضى . ومن الظلم أن يرمى بالجمود أو العقم ولا محل لمقارنته بمجمع آخر كالمجمع الفرنسى ، على أنه لا يزال أمامه أعمال كثيرة ، وطريق البحث فى الأدب واللغة ممتد وفسيح .

ولم يلتزم فى تكوينه عدد ثابت ، فقد ألف لأول مرة من عشرين عضوا اختير نصفهم من المصريين ، والنصف الآخر من العلماء العرب والمستعربين ثم رفع العدد إلى أربعين سنة ١٩٤٦ ، على ألايجاوز العلماء غير المصريين العشرة . وفى العام الماضى صدر تشريع شامل يحدد شخصية المجمع ويدعم استقلاله ، ويبين فى وضوح أغراضه ووسائله ويقضى بأمرين هامين : أولهما ربط مجمع دمشق بمجمع القاهرة برباط أوثق ، وجعلهما جزأين من كل وفرعين لأصل واحد . والثانى رفع العدد إلى ثمانين على أن تقتصر العضوية العاملة على أبناء الجمهورية العربية المتحدة وممثلى البلاد العربية ، وهم موزعون على النحو الآتى : ٤٠ لمجمع القاهرة و٢٠ لمجمع دمشق ، و٢٠ لممثلى البلاد العربية ، وهذا ما أتاح لنا فرصة تعيين عشرة أعضاء جدد ينضمون إلينا ويساهمون معنا فى خدمة الأدب واللغة ، ولى الشرف العظيم فى أن أكون المتحدث باسم المجمع لاستقبالهم .

أيها السادة :

إن كسبنا لعظيم ، وإن تعويلنا عليهم لكبير ، فالكل منهم ماضيه الحافل فى خدمة الأدب واللغة ، والعلم والثقافة . فيهم النحوى والصرفى ، الأديب واللغوى ، العالم والفيلسوف ، العربى والسيكلوجى ، الفقيه والمشرع .

فالدكتور إبراهيم أنيس تخرج فى دار العلوم سنة ١٩٣٠ ، واشتغل بالتدريس فى المدارس الثانوية ، ثم سافر إلى انجلترا فتخصص فى الدراسات اللغوية . ولما عاد اشتغل بالتدريس فى دار العلوم وآداب الإسكندرية ، ورجع إلى دار العلوم حيث أضحى عميدا لها منذ سنة ١٩٥٥ إلى اليوم . ومنذ عودته من أوربا تفرغ لدراساته الفيلولوجية . ووضع عدة كتب فى الأصوات واللهجات

والألفاظ ، نذكر من بينها « الأصوات اللغوية» ، الذى أعيد طبعه للمرة الثالثة هذا العام ، وكم أعان الدكتور أنيس المجمع بدرسه وبحثه ، وهو خبير به منذ سنة ١٩٤٨ .

والأستاذ إبراهيم اللبان زميل أسن وعميد اسبق لكلية دار العلوم ، سلك مسلكا مشابها فى النشأة والتكوين . تخرج فى دار العلوم سنة ١٩١٨ ، وقام بالتدريس فى المدارس الثانوية ، ثم أوفد إلى إنجلترا حيث تخصص فى التربية وعلم النفس والفلسفة . وما أن عاد من بعثته حتى عهد إليه بالتدريس فى دار العلوم وآداب الإسكندرية ومعاهد التربية العالية ، وكان مفتشا عاما للفلسفة خمس سنوات وعميدا لدار العلوم أربع سنوات . وله بحوث لم تنشر جميعها ومن بين ما نشر الفلسفة والمجتمع الإسلامى ، وطرق تجديد المجتمع .

والأستاذ إسماعيل مظهر وثيق الصلة بالمجمع من قديم ، اتصل بخبرته زمنا عنى فيه خاصة بتحديد المصطلحات وجمع ألفاظ الحياة العامة . وثقافته خصبة متنوعة ، وله فى فن المعاجم خبرة تامة ، ويكفى أن أشير إلى معجمه المشهور «قاموس النهضة » وفيه جهد واضح ويقع فى جزأين كبيرين .

وأستاذنا أمين الخولى تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى عام ١٩٢٠ لم يكد يتخرج فيها حتى دعى للتدريس بها ، وعين إماما للمفوضية المصرية بروما وبرلين عام ١٩٢٣ ، ثم صاحب كلية الآداب بجامعة القاهرة منذ سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٥٣ ، أستاذا للبلاغة وعلوم القرآن ، ورئيسا لقسم اللغة العربية ووكيلا ، وقبل تقاعده عين مديرا عاما للثقافة بوزارة التربية والتعليم ، وله نواحى نشاط أخرى أدبية وصحافية ، وأخصها اشتراكه فى عدد غير قليل من مؤتمرات المستشرقين ، وإنتاجه غزير متنوع : أدب ولغة ، دين وفلسفة ، علم نفس وأخلاق ، ومن أخصه مالك بن أنس ، ومشكلات حياتنا اللغوية ، وهو فى الجملة صاحب مدرسة يلتف حوله فيها الأمناء .

وأستاذنا عبد الحميد حسن شيخ من شيوخ دار العلوم ، تربى فيها وتخرج سنة ١٩١١ ثم أوفد إلى انجلترا حيث درس التربية وعلم النفس والأدب . ولما عاد قام بالتدريس فى المدارس الثانوية والعالية ، وتفتيش اللغة العربية ، وكان حظ معهده منه عظيما ، فقد قضى فيه نحو ١٧ عاما . وكان يضرب لتلاميذه

دائما خير مثل فى الترتيب الدقيق ، والعمل المحكم والنشاط المتصل . وله بحوث ومقالات فى الأدب والتربية ، ومن بين كتبه الأصول الفنية للآداب ، والقواعد النحوية مادتها وطريقتها .

والأستاذ عبد الفتاح الصعيدى مراقب سابق للمجمع اللغوى ، قضى فيه نحو عشرين عاماً بعد أن مر بالمدارس الأميرية المختلفة مدرسا للغة العربية وله مشاركة بينة فى الشعر والأدب ، وعنى خاصة بفقه اللغة ، وضع مع زميل له كتاب « الإفصاح » الذى رتب فيه المخصص وبوبه ونقّحه وزاد عليه .

والدكتور على بدوى القانونى الضليع ، أستاذ وعميد سابق للحقوق ، تخرج فيها سنة ١٩١٧ على رأس فرقته ، واشتغل بالنيابة العامة زمنا ثم أوفد إلى فرنسا حيث تخصص فى القانون الجنائى ، واختير للسلك السياسى قبل تقديم رسالته . وفى سنة ١٩٢٨ نقل إلى كلية الحقوق ، وبقى بها أستاذا وعميدا إلى سنة ١٩٤٢ وتفرغ بعدها لنصرة العدالة عن طريق المحاماة . واشترك فى الوزارة عام ١٩٥٢ وساهم فى ألوان شتى من النشاط الفقهى والثقافى ، فهو عضو بالمجلس الأعلى للجامعات ومجلس جامعة القاهرة ، ورئيس للجنتى توحيد قانون العقوبات وقانون الإجراءات الجنائية . تطمئن النفوس إلى حكمه ، ويباهى زملاؤه بشجاعته واعتداده برأيه . له مؤلفات عدة فى القانون الجنائى وتاريخ التشريع ، بعضها بالعربية ، وبعضها بالفرنسية ، نذكر من بينها مبادئ القانون الرومانى ، والأحكام العامة فى القانون الجنائى .

والدكتور مراد كامل من أبناء كلية الآداب ، تخرج فى قسم اللغة العربية واللغات الشرقية عام ١٩٣٠ ، وأوفد إلى ألمانيا حيث قضى بضع سنوات متخصصا فى اللغات الشرقية . وما أن عاد حتى اشتغل بالتدريس فى كليته ، ثم إختير عضوا فى المجمع العلمى المصرى ، ومعهد الدراسات الشرقية بالإسكندرية والأكاديمية الألمانية للآثار ببرلين . وله بحوث متفرقة أغلبها مقالات كتبت بالعربية أو بلغات أجنبية قديمة أو حديثة ، وتدور حول الأدب العربى والمصرى واللغات السودانية والحبشية والترجمة لبعض المستشرقين . واشترك مع الدكتور

البكرى فى وضع تاريخ الأدب السريانى من نشأته إلى الفتح الإسلامى ، ومع الدكتور عبد الحليم النجار فى ترجمته تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان وهو خبير بالمجمع منذ زمن ، يعد للمعجم الكبير منذ البدء فيه .

والدكتور محمد عوض محمد أديب شاعر ، جغرافى واجتماعى . التحق بمدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤ ، واعتقل سياسيا — وهو فى السنة النهائية فتعطلت دراسته أربع سنوات ، ولم يحصل على الدبلوم إلا سنة ١٩٢٠ . ثم أوفد إلى إنجلترا للتخصص فى الجغرافية . وهناك حصل على البكالوريوس والماجيستير والدكتوراه . وما أن عاد حتى قام بالتدريس فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وبقى بها ما يزيد على عشرين عاما (١٩٢٦ — ١٩٤٨) ، مدرسا وأستاذا للجغرافية ورئيسا لقسمها ولمعهد الدراسات السودانية الذى ساعد فى إنشائه . وانتقل بعد ذلك إلى الإدارة الثقافية بوزارة المعارف مديرا عاما لها ، ثم مديرا لجامعة الإسكندرية . ثم وزيرا للمعارف . هذا إلى نشاط متنوع فى الإذاعة والصحافة والجمعيات المختلفة كالجمعية الجغرافية ، والجمعية التاريخية ، والجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية . اشترك فى عدة مؤتمرات أخصها المؤتمرات العامة لليونسكو حيث رأس وفد مصر غير مرة ، وانتخب أخيراً رئيسا للمجلس التنفيذى . حصل على جائزة الدولة للعلوم الاجتماعية عام ١٩٥٢ له مؤلفات عدة فى الجغرافية والأدب والسياسة بعضها بالعربية وبعضها بالإنجليزية ، ومن أهمها كتاباه عن نهر النيل ، والسودان الشمالى ويعدان بحق فى مقدمة ما كتب فى هذا الباب فى نصف القرن الأخير .

وأختتم هذه السلسلة الذهبية بالصديق والزميل الدكتور محمد مهدى علام الذى تخرج فى دار العلوم عام ١٩٢٢ ، ثم أوفد فى بعثة إلى انجلترا حيث درس الأدب الإنجليزى والتربية واللغتين الفارسية والعبرية . ويوم أن عاد عهد إليه بالتدريس فى دار العلوم ، ثم بالتفتيش فى وزارة المعارف . وفى عام ١٩٣٦ دعى للتدريس بجامعة مانشستر ، ومكث بها ١٢ سنة ولما عاد ثانية اختير عميدا لتفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف ، ثم أستاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية بكلية الآداب — جامعة عين شمس ، ثم عميدا لها من سنة ١٩٥٤ حتى اليوم . وإلى جانب التفتيش والتدريس له نشاط ثقافى وأدبى واسع ، فهو عضو فى

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، والمقرر العام للجنته النثرية ، وعضو فى المجلس الأعلى لدار الكتب ، ومستشار المؤتمر الإسلامى . وضع بحوثا ومقالات وكتبا مختلفة فى الأدب والأخلاق أغلبها بالعربية وبعضها بالإنجليزية نذكر من بينها فن المقصورة فى الأدب العربى ، نظرية الوسط بين فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين .

* * *

أيها الزملاء :

أخشى ما أخشاه أن أكون قد أسأت إليكم بهذا العرض الخاطف والتعريف الناقص ، ومما يهون علىّ أنكم فى غنى عن التعريف ، وكل ماحاولت إنما هو مجرد تدوين وتسجيل . ولو اتسع لنا الوقت لكان لنا عن كل واحد منكم حديث نفيد به ونستفيد ، ونكشف فى جلاء عن بعض آثاركم الفكرية والأدبية وهى جانب هام من جوانب حياتنا الثقافية المعاصرة .

أيها السادة :

لقد حاولت بمناسبة استقبال الزملاء الكرام أن أرسم صورة مختصرة لنشاط مجمع اللغة العربية فى ربع قرن . وإذا كان المجمع قد أدى بالأمس بعض واجباته فلا تزال أمامه واجبات أخرى كثيرة ، وإذا كان قد قام ببعض أعمال فهنالك أعمال أخرى تنتظره . هناك معاجم لابد أن يتمها وأخرى لما يبدأها ، هناك تحقيقات فى الأدب واللغة لم يضطلع منها بقسط وافر وهو أولى بمعالجتها ، هناك مصطلحات علمية وفنية عليه أن يتخير أحسنها أو يستبدل بها غيرها ، هناك ألفاظ حضارة قلقة تختلف من بلد عربى إلى آخر وهو الذى يستطيع بتكوينه أن يلائم بينها . ولاشك فى أن الزملاء الجدد فى نشاطهم وعلمهم خير من يعين على ذلك .

إن علينا أن نساير الزمن ، وإذا كانت مجامع القرن السابع عشر أميل إلى الحفاظ والمحافظة ، فإن مجامع القرن العشرين أحوج إلى التجديد والمسايرة .

وفى العالم العربى اليوم وعى قوى يقظ يريد أن يخلق ويبتكر ، أن ينهض ويتقدم أن يستكمل كل أسباب الحياة والرفعة . وفى مقدمتها أن تكون له لغة تعبر عن كل ما يصادفه أو يجول بخاطره فى الشعر والنثر ، فى العلم والفن ، فى الاقتصاد والسياسة . وهو يثق كل الثقة بمجمعكم هذا ، ويؤمن بأنه خير من يطوع العربية لحاجات العصر ومقتضياته ، فأجيبوا سؤله ، وحققوا طلبته وإنكم لفاعلون .

مجمع دمشق في عيده الذهبي

سيدى الرئيس :

سيداتى (*) ، سيادتى :

أحمل إليكم تحية مجمع شقيق يقدر ما لمجمعكم من فضل السبق ، ويتمنى له دوام السداد والتوفيق . وأحمل إليكم تحية المجمعيين جميعاً الذين يعتزون بأخوتكم ، ويعتدون بزمالتكم ، وكم كان بود الدكتور طه حسين رئيس مجمع القاهرة ، والأستاذ زكى المهندس نائب الرئيس ، أن يشتركا فى حفلكم هذا ، لولا ظروف صحية تعدت بهما ، وهما يبعثان إليكم بأطيب الأمانى ، وأصدق التهانى ببلوغ مجمع دمشق عامه الخمسين .

ويحق لمجمعكم أن يباهى بأنه أبو المجامع العربية الحديثة القائمة . ولد فى أخريات العقد الثانى من هذا القرن ، وسار على الدرب يشق الطريق ويذلل الصعاب . ولدت قبله فى مصر مجامع أخرى لم يقدر لها حياة ولا بقاء . وقد جاء تلبية لحاجة ماسة ، واستجابة لوعى جديد : وحمل رسالة لم يحملها مجمع آخر ، فاضطلع بها فى صبر وجلد ، ورعاها فى حماس ورغبة ، وكأنما أريد به إلى جانب خدمة اللغة ، أن يقوم على نفائس الماضى جميعها فى العلوم والفنون ؛ فطلب إليه أن يجمع الكتب مخطوطة كانت أو مطبوعة ، ويؤسس لها داراً عامة ، وأن يجمع الآثار القديمة عربية كانت أو غير عربية ، وينشئ لها متحفا خاصا . مهمة ولاشك شاقة ومتنوعة وربما تنوء بها هيئات مختلفة ، ولكنه أبى إلا أن يضطلع بها ، وقد بذل فى سبيلها ما وسعه ، وجمع لسوريا تراثا يعتد به

* * *

(*) كلمة ألقيت باسم مجمع القاهرة فى حفل هذا العيد بالقاعة الكبرى بجامعة دمشق فى الخامس من نوفمبر عام ١٩٦٩ .

والكتب الإسلامية ، فيما عدا ما يقتنيه الأفراد ، موزعة من قديم بين دور العلم والمساجد والتكايا ، إنْ فى الشام أو فى غيرها من البلاد العربية . فكانت معرضة للضياع ، وقد تسرب منها ما تسرب . وفى أخريات القرن الماضى أريد تركيزها وجمعها فى مكتبة عمومية بالمدرسة الظاهرية تحت إشراف لجنة خاصة تابعة لدائرة الأوقاف . وقد غذيت بمكتبات دمشق الفرعية ، وتوافر لديها نحو ٢٥٠٠ مجلد . وما أن أنشئ المجمع العلمى حتى ضمت هذه المكتبة إليه ، وسميت « دار الكتب العربية » . ووقف عليها بناء الظاهرية .

وأخذ المجمع فى ترتيب شئونها ، وتزويدها بأنفس المطبوعات والمخطوطات فوضع نظاما لدخولها والاستعارة منها . وحاول ترتيب كتبها وفهرستها . وبعث البعوث شرقا وغربا لجمع الكتب والمطبوعات شراء أو استهداء ، وعلى رأسها بعثة إلى القاهرة عام ١٩٢٤ ، وقد عادت ومعها نحو ١٦٠٠ مجلد من الكتب النفيسة . واستنسخ الكتب العربية النادرة من مكتبات أوربا ، أو صورها . وأشرف على دار الكتب نفر من أعضائه ممن لهم خبرة واسعة فى المراجع والكتب العربية ، وتولى إدارتها بعض من تخصص فى فن المكتبات فنهضوا بها نهضة ملحوظة وأصبحت تشتمل على نحو عشرة آلاف مخطوط ، وما يزيد على مائة ألف كتاب مطبوع . وهى دون نزاع مكتبة سوريا الكبرى .

وكانت آثار الشام عرضة للسلب والنهب فى العهد التركى ، تواردت عليها فى النصف الثانى من القرن الماضى بعثات أوربية للحفر والتنقيب ، فأخذت منها ما أخذت . ونقل منها الحكام الأتراك إلى الآستانة ما نقلوا . ولم يتنبه إليها إلا فى عهد الحكومة العربية ، فأمر بإنشاء متحف لها مقره المدرسة العادلية ، وقد ألحق بالمجمع العلمى . الذى قضى نحو عشرين عاماً يرتب أموره ، ويسهر عليه . ولم يتردد فى أن يستعين ببعض الخبراء ، وكون لجنة لدراسة مشكلة الآثار فى سوريا بوجه عام . وأوفد مدير المتحف السيد الأمير جعفر الحسنى أمين المجمع اليوم إلى باريس لدراسة نظام المتاحف . فحمل معه آراء نافعة . وبعث فى المتحف حياة جديدة . وقد جمعت الآثار المبعثرة فى أماكن

متفرقة ، وبذلت عناية خاصة فى حفظها ، ونظم أمر الحفر والتنقيب وأسهم الانتداب الفرنسى فى ذلك بعض الشىء ، وحاول حماية الآثار السورية من السلب والنهب . ولم يلبث المتحف الشاب أن تحول إلى دار آثار زاخرة بتحفها ونفائسها ، وسلم فى عام ١٩٣٧ إلى مديرية الآثار العامة ، وأصبح مؤسسة مستقلة مالياً وإدارياً .

* * *

وقد سلك مجمع دمشق فى خدمة اللغة مسلكاً لم تجاره فيه كثيراً من المجامع العربية الأخرى ، فحاول إصلاح لغة الدواوين التى كانت قد طغت عليها التركية ، وطلب إلى دوائر الحكومة أن تقفه على ما تحتاج إليه من ألفاظ وعبارات ، وأرسلت إليه قوائم شتى حرص على مراجعتها مع مندوب الدائرة المختصة ، فعدل ألفاظاً ومصطلحات ، وأصلح تعابير واستعمالات ، وطلب إلى رؤساء الدواوين ورجال الصحافة ، أن يستعملوا مقترحاته ، فيقربوها إلى الناس ، ويزيدوهم بها إلفا ، وعنى باللغة فى معاهد التعليم ، فحاول أن يطورها وأن يجعلها ملائمة للعصر وحاجاته . إن فى المدرسة الثانوية أو فى الجامعة ، وراقب لغة الكتب المدرسية ، فلم يكن يسمح بتدريس كتاب إلا إذا وافق عليه . ووضع مشروع كلية الآداب لنشر اللغة الفصحى والآداب العربية ، ولم يتردد فى أن يسهم فى إعداد طلاب هذه الكلية ، بتزويدهم بعض الدروس التمهيدية فى علوم الأدب واللغة .

ولم يقنع بخدمة اللغة فى هذا المجال الخاص ، بل أبى إلا أن يمتد نشاطه إلى المجال الشعبى . فأعد قاعة للمحاضرات العامة ، دعا إليها الرجال والنساء ، ونظم فيها محاضرات دامت نحو خمسة وعشرين عاماً ، توقفت حينا ، ونشطت حيناً آخر . وفى هذه القاعة العامرة ألقى بضع مئات من المحاضرات العامة ، اضطلع بها نفر من كبار الباحثين رجالا ونساء ، بين سوريين ، وعرب ، ومستعربين . وفيها أدب ولغة ، أخلاق ودين ، تاريخ وحضارة ، اقتصاد وسياسة ، علم وفلسفة ، وقد نشر قدر كبير منها ، ولا يزال زاداً صالحاً للباحثين والدارسين .

واستن سنة حسنة فى تكريم كبار الأدباء والشعراء ، فأقام مهرجانين عظيمين لمرور ألف عام على وفاة المتنبي وأبى العلاء ، وقد سارت بهما الأمثال وأسهم فيهما عدد غير قليل من الأدباء والشعراء العرب والمستعربين ، ومثلت فيهما البلاد العربية على اختلافها . وإلى جانب هذين المهرجانين الكبيرين أقام عدة حفلات للتأبين أو التكريم ، وكان فى تأبينه وتكريمه سمحاً لا يتقيد بجنس أو وطن ، بل لعل نصيب غير السوريين منهما أعظم من السوريين أنفسهم ، فابن طاهر الجزائرى ، وأحمد كمال المصرى ، ومحمد رشيد رضا ، ومحمود شكرى الألوسى ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وكرم وأبّن أحمد شوقى وحافظ إبراهيم ، وكرم الشاعر المصرى محمد الهراوى . وامتد تكريمه إلى بعض شباب الناشئين من أبناء سوريا ، تشجيعاً لهم ، وحثاً لغيرهم أن يسيروا على نهجهم ، وقد أضحوا اليوم فى مقدمة الشعراء والأدباء ، وأذكر من بينهم الأستاذين زكى المحاسنى وأنور العطار .

ورأى تفشى الأغلاط اللغوية والنحوية فى الصحف والمطبوعات ، فأراد تداركها ، واستحدث ما سماه « عثرات الأقلام » ، وتلك سنة أخرى تذكرنا بما أخذ به بعض اللغويين المعاصرين ، أمثال أحمد العوامرى ، والدكتور مصطفى جواد ، فكان يجمع الأغلاط الشائعة ، دون ذكر لأسماء من وقعوا فيها ، ثم يحاول تصحيحها بعد تثبت ومراجعة ، وينشر التصحيح فى الجرائد المحلية تباعاً ، وأفسح المجال للتعليق والرد ، فأثار بذلك حركة أدبية ولغوية نافعة . وحرص على أن يسجل تصحيحاته فى مجلته ، وتوافر له بذلك نحو ثلاثين مقالة ، فيها درس وبحث ، وتحقيق وتحرير ، وقد قاده هذا إلى أن أصبح « شبه دار للفتوى اللغوية » ، فكانت توجه إليه أسئلة عن بعض الكلمات الغريبة والمصطلحات الفنية ، وما كان يتردد فى الإجابة عنها .

ومجلة المجمع من أعماله الخالدة ، بدأ فى إخراجها عام ١٩٢١ ، ثم استمر يرعاها ويسهر عليها حتى الآن . توقفت عن الظهور مرتين ، ولكنها استطاعت أن تستعيد نشاطها وقوتها . أريد بها فى البداية أن تكون شهرية ، ثم أخرجت كل شهرين ، وأضحت أخيراً ربع سنوية ، واستقرت على هذا الوضع ، وبدت فى مظهر وحجم ثابتين تقريباً ، وتعد اليوم بين الباحثين من

المصادر التى يرجع إليها ، فيها أدب ولغة ، تاريخ وآثار ، وفيها تعريف بالمخطوطات ونقد لأشهر المؤلفات ، وبخاصة ما اتصل منها بالإسلام وحضارته

أما فى عالم النشر والتحقيق فقد أخرج نفائس يعتد بها ، عهد بها إلى محققين أعلام أغلبهم من أعضائه، فحققوها تحقيقا جيداً ، وتثبتوا من أصولها ، وجلوا غامضها ، ثم أخرجت فى ثوب أنيق جذاب . فيها أدب ولغة ، علم وفلسفة ، ويدور معظمها حول التاريخ ، وتاريخ دمشق بوجه خاص . فأخرج المجمع ما عثر عليه من أجزاء « نشوار المحاضرة » التّنوخى ، و« الدارس فى تاريخ المدارس» للنُّعَيمى الدمشقى ، و «فضائل الشام ودمشق» للربعى ، «وأمراء دمشق » للصفدى . ويهدى المجمع مطبوعاته إلى جميع الجامعات والمعاهد والمؤسسات الثقافية المعنية بالعربية وآدابها ، ولا يبخل بها على كبار المشتغلين بالأدب واللغة من عرب ومستعربين ، وهم يرقبونها دائماً فى شوق ورغبة .

* * *

سيداتى ، سادتى :

إن صلة مجمع القاهرة بمجمع دمشق وثيقة من قديم ، فمن بين أعضائه العشرين المؤسسين كان ثلاثة من أعضاء مجمعكم العلمى العربى ، وهم رئيسه الأول محمد كرد على ، وشيخه الجليل عبد القادر المغربى ، ولغويه الكبير عيسى إسكندر المعلوف . ولقد أبلوا فى مجمع القاهرة بلاء حسناً ، وغذوه بغذاء متصل ، ولهم فى محاضره ومجلته ملاحظات قيمة ، وبحوث دقيقة ، ودراسات ممتعة . ثم جاء على أثرهم رئيس مجمعكم الراحل الأمير مصطفى الشهابى ، وكان أميراً حقاً فى قوله وعمله ، نعمنا بصحبته ، وأفدنا من درسه وبحثه ، وهو من نعرف وثوقاً فى اللغة ، وحجة فى علوم النبات والزراعة ، وعمدة فى وضع المصطلح العربى وحسن اختياره .

وفى عام ١٩٦٠ أضحى مجمع القاهرة ومجمع دمشق فرعين لأم واحدة هى العربية ، يسهران عليها ، ويتضافران على خدمتها والنهوض بها ؛ لكى

نستعيد مكانتها بين اللغات العالمية الكبرى . وإن إخاء على هذا النحو ليبقى على الدهر ، وسيوطد أركانه دائماً وحدة الهدف ، وصدق العزيمة ، والثقة المتبادلة .

سيداتى ، سادتى :

إن بلدكم فى عروبته لجدير بمجمعكم هذا ، وإن مجمعكم فى ماضيه وحاضره لخليق بكل تأييد وتعزيز . لقد مر بأيام مزدهرة ، وهو أهل لأن تزدهر أيامه دائماً . هو — ولا شك — وسيلة ناجعة من وسائل تطوير اللغة والنهوض بها ، وحلقة ضرورية لسلسلة نهضاتكم الثقافية والعلمية ، وهمزة وصل بينكم وبين المجامع العربية الأخرى .

وقد تساءلنا فى لقائنا هذا عن ضرورة إنشاء مجمع موحد للبلاد العربية جميعها ، أو عن قيام اتحاد يضم المجامع المختلفة . وكل عمل ثقافى فى سبيل الوحدة نافع ومحبب ، ولكنى أعتقد أننا حتى بوسائلنا الحاضرة ، نستطيع أن نسير باللغة فى طريق الوحدة العلمية والحضارية ، إن تلاقينا وتبادلنا الفكرة واللفظ الدال عليها ، ولقاؤنا اليوم خير شاهد على ذلك — ولا أكتمكم — أنى شعرت بأنا إلى حد ما منفصلون ثقافياً ، فمطبوعاتنا غير متبادلة فى يسر ، ولقاءاتنا العلمية قليلة ، وما أجدرها أن تسمو إلى مستوى لقاءاتنا الأدبية . وأظنكم تتفقون معى على أن لغتنا الأدبية لا عزلة فيها ولا فرقة ، فلم لاتكون لغتنا العلمية مثلها ؟

وإنى باسم مجمع القاهرة واسمى أشكر لكم أن أتحتم لنا فرصة هذا اللقاء ، أشكر السادة وزير التعليم العالى ، ورئيس المجلس الأعلى للعلوم ، ورئيس جامعة دمشق ما شملونا به من عناية ورعاية . أما المجمع الشقيق والسيد رئيسه فهما منا وإلينا — غمرونا بفضلهم ، وأسبغوا علينا عطفهم ، وشعب سوريا كله ضياف كريم .

الباب الأول

الموضوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

(I. S. B. N 977 - 5037 - 04 - 2)

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٩٠٣ / ١٩٩٣

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٣٠١٢ — ١٩٩٠ — ٨٤٣٢